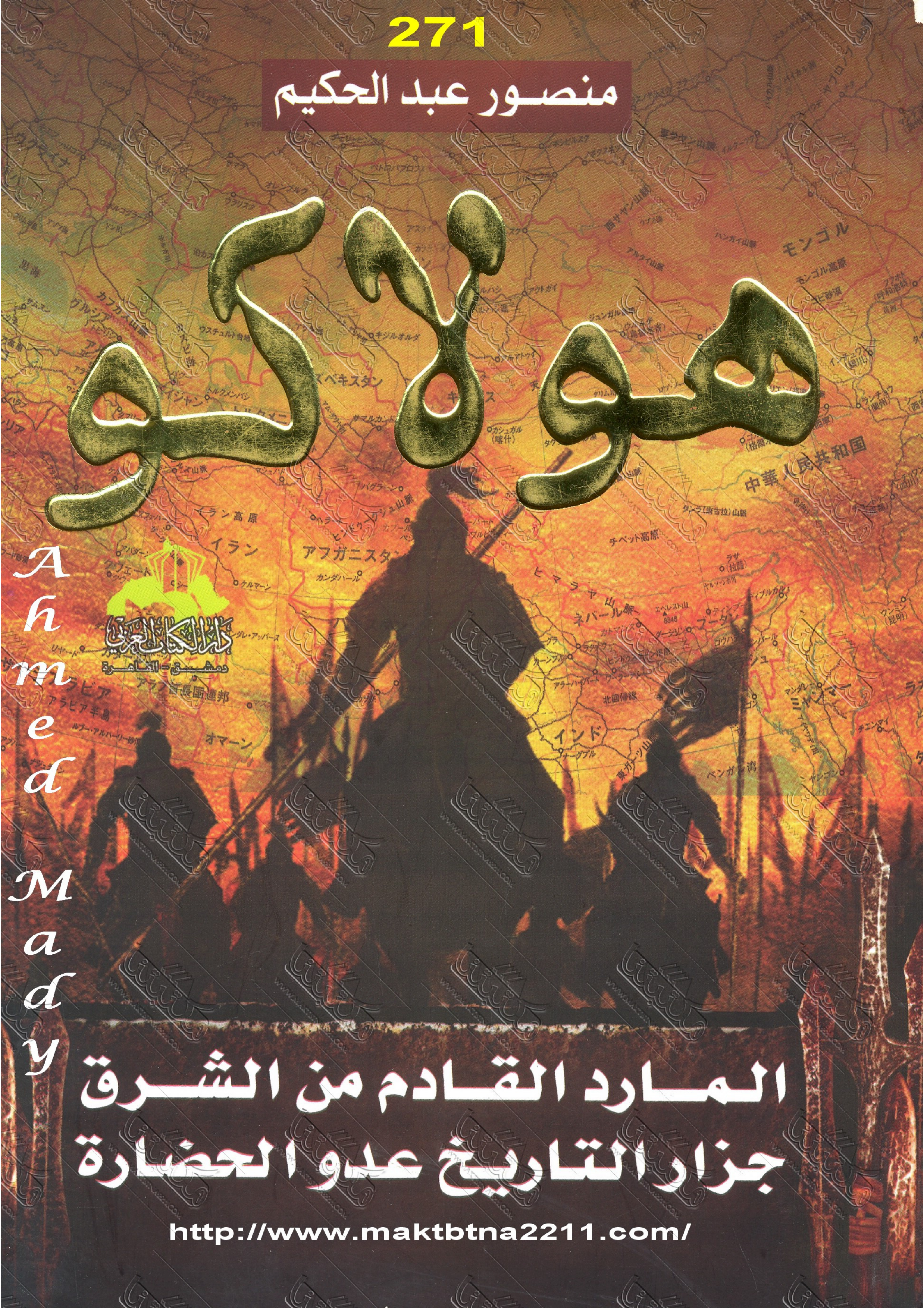

271
منصور عبد الحكيم
هولاكو
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة
Ahmed Mady
المارد القادم من الشرق
جزار التاريخ عدو الحضارة
http://www.maktbtna2211.com/
モンゴル
中華人民共和国
イラン
アフガニスタン
チベット高原
インド

旭烈兀

HULAGU KHAN

"هولاكو خان" حفيد "جنكيز خان" كان عمره تسع سنوات حين مات جده "جنكيز خان" ولد هولاكو عام ١٢١٨م. لأبيه تولوى خان أصغر أبناء جنكيز خان وكانت أمه نصرانية نسطورية وكذلك زوجته، وكان هو وأبواه على دين المغول (الوثنيه) وشريعة الياسا شريعة جنكيز خان وكان شديد الولع بالحضارة الفارسية أرسله أخوه مونكو خان زعيم المغول لإتمام ثلاث مهمات فى غرب آسيا منها القضاء على جماعة الحشاشين والإسماعيليين وكان المغول يطلقون عليهم "الملاحدة" فقضى عليهم واستولى على قلاعهم وخاصة قلعة الموت الشهيرة، ثم توجه نحو الخلافة العباسية فى بغداد لإخضاعها لحكمه فاستطاع إسقاطها واحتلال بغداد وقتل الخليفة العباسى شر قتله.

وتقرأ فى هذا الكتاب كيف قام هولاكو وجنوده بقتل أكثر من مليون مسلم فى بغداد، وكذلك قتل الآلاف من البشر خلال غزوه لبلاد الشام حتى وصل إلى فلسطين، وجاء خبر وفاة أخيه زعيم المغول منكو خان فغادر الشام إلى المشرق واستقر هناك وترك جيشه لغزو مصر، فكانت معركة عين جالوت التى انهزم فيها جيش هولاكو شر هزيمة وتم طردهم من بلاد الشام إلى ما وراء نهر الفرات ولم تفلح محاولات هولاكو بعدها من غزو الشام مرة أخرى.

وتتوالى الهزائم على هولاكو من قبل ابن أخيه "بركة خان" الذى اعتنق الإسلام ونشره فى القبيلة الذهبية المغولية وتحالف من السلطان المملوكى "الظاهر بيبرس" وحارب "هولاكو" وانتصر عليه عامى ١٢٦٠م، ١٢٦١م، فحزن هولاكو حزناً شديداً وأصيب بجلطة دماغية وصرع مات على أثره لا رحمه الله فقد كان من أكبر السفاحين الذين عرفهم التاريخ الإنسانى فى مثل جده جنكيز خان وكان شيطاناً مريداً قدم من الشرق ليزهق أرواح البشر جهة الغرب حيث البلاد الإسلامية.

وتقرأ المقارنة بينه وبين بوش الابن هولاكو العصر الحديث (فليس الهدف منه ذكر سيرته الحكاية التاريخية وإنما العظة والعبرة واستقراء للتاريخ القديم والتاريخ الحاضر المعاصر وان التاريخ يعيد نفسه.

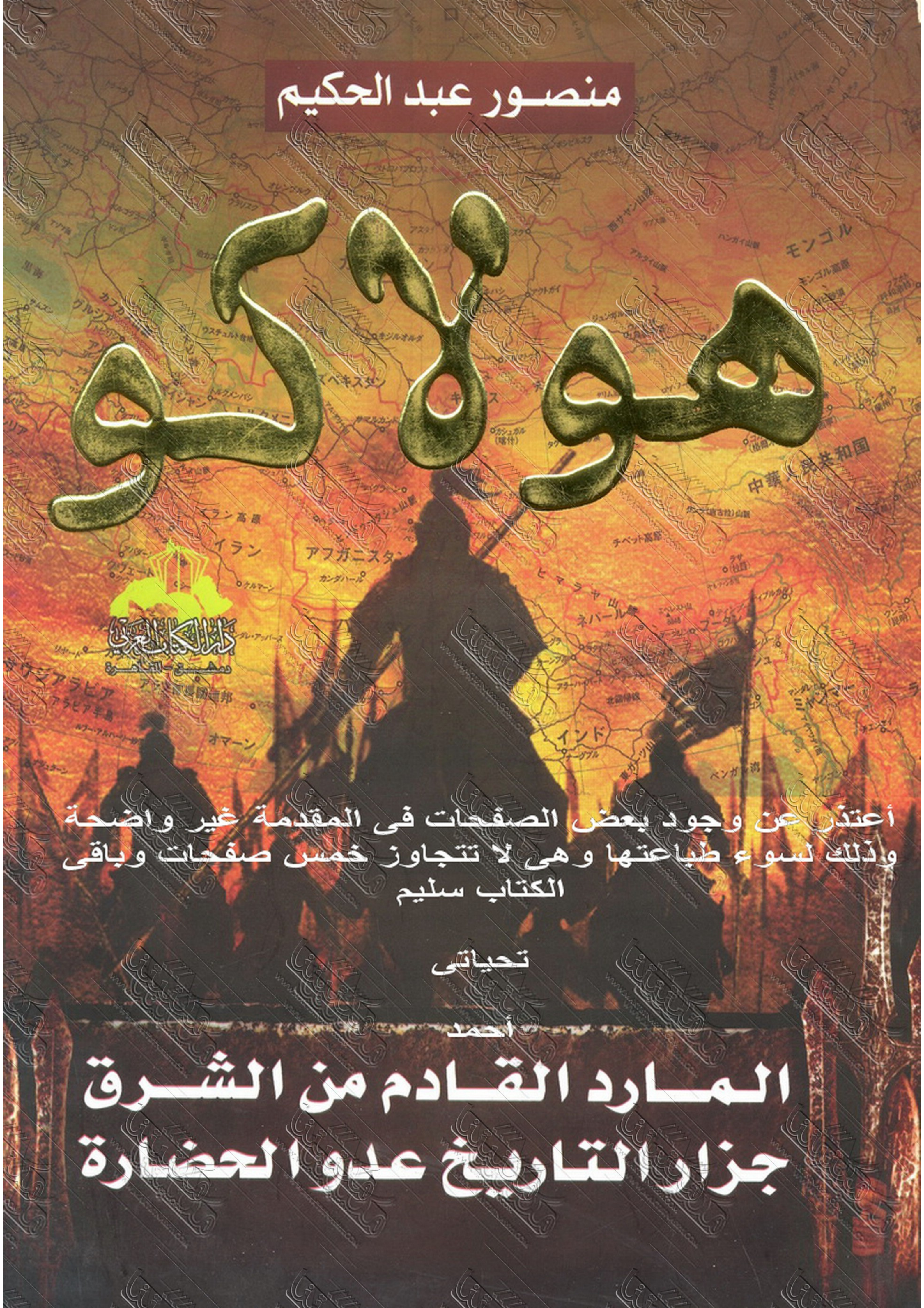
(وتقرأ عن التشابه بين الغزو المغولى لبغداد قديماً وغزو أمريكا لها وللعالم الإسلامى حديثاً وأسباب هزيمة المسلمين ثم انتصارهم آخر الأمر قبل هلاكهم عند الغزو المغولى لديارهم.

وأن دولة الباطل والظلم لا تدوم، إنه كتاب جدير بك أن تقرأه وتدعو غيرك لقراءته فى التاريخ هو روح الأمة.

W.Salama 010 15 17 873






منصور عبد الحكيم
هولاكو
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة
أعتذر عن وجود بعض الصفحات فى المقدمة غير واضحة
وذلك لسوء طباعتها وهى لا تتجاوز خمس صفحات وباقى
الكتاب سليم
تحياتى
أحمد
المارد القادم من الشرق
جزار التاريخ عدو الحضارة



هولاكو مارد من الشرق

مدمر العالم قديماً وحديثاً

◆

منصور عبد الحكيم

◆

الناشر

دار الكتاب العربي

دمشق - القاهرة

المقدمــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير، خلق الخلق وقدر الأقدار يهب الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الملك وهو على كل شىء قدير سبحانه وتعالى، يرفع أقواما ويخفض آخرين.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله، خاتم الأنبياء والمرسلين فلا نبى ولا رسول بعده، خير من بلغ عن ربه عز وجل صلى الله وبارك وسلم عليه وعلى آله وصحبه.

ثم أما بعد..

فقد نجح جنكيزخان فى إقامة إمبراطورية مغولية من قبائل التتار الهمج وغزا بهم العالم لسنوات طويلة ضمت أقاليم الصين الشمالية واستولى على العاصمة «بكين» ثم اصطدم بالدولة الخوارزمية التى كانت تجاوره واستطاع تدميرها تماماً قبل وفاته عام ٦٢٤ هـ ١٢٢٣م.

واستطاع هولاكو أحد أحفاد جنكيزخان أن يستكمل مسيرته التدميرية فاستكمل غزو وتدمير وهلاك العالم الإسلامى فكان كالمارد الذى انطلق لا يوقفه أحد فقضى على دولة الملاحدة الإسماعيلية ثم الدولة العباسية تماماً وقتل الخليفة العباسى الذى أطلق عليه قتيل التتار وأهله قتلة شنيعة وذبح أكثر من مليونى من المسلمين فى بغداد وحدها إضافة إلى ملايين المسلمين فى البلاد التى قام بغزوها وتدميرها.

لقد كان هولاكو أكثر فظاعة من جده جنكيزخان وكان جيشه مكونا من ١٢٠ ألف فارس من فرسان المغول المدربين المزودين بأحدث الأسلحة فى ذلك الزمان فى القرن الثالث عشر الميلادى السابع الهجرى، وكان بداية تحركه للغزو من عاصمة الإمبراطورية المغولية «قراقور» عام ٦٥١هـ ١٢٥٣م وكان هدفه القضاء على دولة الإسماعيلية التى

[illegible] عقيدة المغول التتار دولة [illegible]

[illegible] جنكيزخان قبل وفاته (1) [illegible]

[illegible] توجه هولاكو نحو دولة الخلافة العباسية [illegible] وصلت جيوشه نحو الشام واستولى على مدنها ولم [illegible] حين توجه لغزو الديار المصرية فتصدى لهم جيش [illegible] السلطان [illegible] وقتها وانهزم التتار وانكسرت شوكتهم بعد [illegible] فى يوم [illegible] رمضان عام ٦٥٨هـ.

[illegible] تلك الأحداث وغيرها هو أخذ العبرة والموعظة وفهم [illegible] المستقبل وما يحاك ضدنا، فما حدث بالأمس يحدث [illegible] على الخلافة العباسية واحتل العراق والشام [illegible] وقتل أكثر من مليون من أهلها [illegible]

[illegible] التاريخ كما يقولون يعيد نفسه ولكننا لا نقرأ ولا نستوعب،

فالقراءة هى السبيل الوحيد إلى المعرفة، معرفة الحقيقة الغائبة إلا أننا أصبحنا شعوباً لا تقرأ ولا تستوعب.

نسأل الله العظيم أن يوفقنا إلى ما يحب ويرضى سبحانه وتعالى ويجعلنا ممن يقرأون فيفهمون ويستوعبون وأن يتقبل منا أعمالنا الصالحة خالصة لوجهه الكريم وأن تكون فى ميزان حسناتنا يوم القيامة إنه ولى ذلك والقادر عليه.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

منصور عبدالحكيم محمد

القاهرة في ٤ مايو ٢٠٠٨م

E.Mial: alshekhmansur@Hoitmail.com

---

(١) اقرأ كتابنا «جنكيزخان إمبراطور الشر» الناشر دارالكتاب العربى ففيه المزيد والمفيد عن هذا القائد المؤسس لدولة المغول فى القرن السابع الهجرى وهو جد «هولاكو» الذى استكمل مسيرته.

أبعاد شخصية

القائد والزعيم

- الزعيم يولد زعيماً، والقائد من الممكن إيجاده بالتعلم والتعليم.
- مشكلة [illegible] الزعيم والزعامة.
- قواعد وأسس القيادة الإدارية المكتسبة.

الزعيم يولد زعيماً
والقائد يمكن إيجاده بالتعليم والتعلم

القيادة هى النظر إلى الحياة وفق وجهة نظر خاصة لصاحبها وزاوية معينة محورها الاندفاع مع الحرص على تحقيق ما يمكن من أهداف عامة، وهى مكتسبة وفطرية.

أما الزعامة فهى فطرية تولد مع الإنسان وتوجد فى جيناته الوراثية مثل الثقة بالنفس والحكمة والقدرة مع معرفة شؤون الآخرين ورعاية مصالحهم.

والنظرية القديمة لمفهوم القيادة تقوم على نظرية أن القادة يولدون ولا يُصنعون، لكن النظريات الحديثة تؤكد أن القيادة يمكن صنعها بالتدريب والتعليم والتأهيل وهذا ما يحدث فى المناصب الإدارية العليا والحكومية فى الدول المتقدمة، أما الزعامة فهى موهبة ربانية لو امتزجت بالدراسة والتعليم والتدريب كانت غاية.

ومن خلال دراسة الزعماء الديكتاتوريين التاريخيين مثل جنكيزخان وحفيده هولاكو وغيرهما نجد أنهم جميعاً ولدوا ليكونوا زعماء واستولى عليهم حب السيطرة والقيادة للغير والاستيلاء على ما فى أيدى غيرهم بالقوة.

وكذلك اعتقادهم أن زعامتهم ربانية وضعها الإله فيهم كى يقودوا العالم وهو ما اعتقده حنكيزخان بعد أن أوحى إليه بتلك الفكرة أحد الزعماء الدينيين فى عصره بذلك وكذلك كان نابليون وهتلر وآخرهم بوش الابن أيضاً، الذى يؤمن أن الله أرسله إلى البشرية لتحقيق العدل والديمقراطية فطبق نظرية الفوضى الخلاقة من القتل والتدمير والتشريد بهدف الإعمار والتجديد!!

إنها نظرية شيطانية الأصل والهدف.

وهناك شروط يجب توافرها فى الزعيم أو القائد الملهَم منها:

١- إيمانه بفكرة معينة محددة مثل توحيد قبائل أو شعوب متفرقة مثلما فعل جنكيزخان الذى سعى إلى توحيد القبائل المغولية المتفرقة المتنازعة فيما بينها وخلق أمة موحَّدة بغرض

حكم الأمم الأخرى، وهذا ... [illegible]

إلا أن الأصل كما يقولون غلاب فلم تستمر الإمبراطورية [illegible] وتفككت وعادت كما كانت بعد قرن من إنشائها.

٣- وضع قانوناً ودستوراً يطبق على الجميع ويبدأ [illegible] ويحقق أهدافه.

وهذا ما فعله جنكيزخان بوضعه [illegible] يطبقونه بعد دخولهم فى الإسلام، وهذا ما جعل علماء وفقهاء الإسلام يحاربونهم باعتبارهم كفرة لأنهم لا يطبقون شرع الله وأحكامه ويرتضون قانون [illegible] بقوله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ (سورة المائدة: ٤٤)

٤- التنظيم الجيد: فمن الضرورى تحديد الشخص المسئول عن كل عمل وتقسيم الواجبات بانتظام ووضوح قبل تنفيذ أى مهمة ومتابعة الوزراء والمسئولين متابعة [illegible] بعيداً عن الخطابة [illegible] ولذلك كان من القادة والزعماء الذين [illegible]

٤- القدوة: مهما يفعل القائد فإن أفراد فرقته يرغبون فى تقليده [illegible] إضفاء جو من السعادة والبهجة فى الأنشطة مما يجعل كل فرد [illegible] المحبة وخلق الانتماء لدى أفراد الشعب وتجعلهم [illegible]

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا ... فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

ولذلك تجد أن الفساد ينتشر فى بعض بلدان العالم الثالث عن غيرها من الدول المتقدمة لفساد الطبقة الحاكمة.

٥- التأثير فى الآخرين «الشعوب»: والقدرة على التأثير فى تصرفات الآخرين، بما فى ذلك القدرة على توظيف الأفراد النافعين، والإلمام اللازم بمهارات العاملين والعمل كالمهارات المالية والإدارية والتخطيط.. إلخ.

والقدرة على التأثير فى التنظيم مثل التخطيط ورسم السياسات والاتجاهات والأنظمة، ولقد ذكرت بعض الدراسات أن القيادة تعرف من خلال تأثرها فى التصرفات وتغيير السلوكيات.

[illegible] القدرة على [illegible] المطلق يؤدي إلى [illegible] موازنتها من [illegible]

[illegible] التعرف على القيادة من خلال [illegible] إضافة إلى القيادة [illegible] الأهداف وإيجاد التفاعل بين الأفراد والتأثير في [illegible] والمجتمع.

[illegible] التعرف على القيادة [illegible] والتي من خلالها تتم [illegible] من حيث مهام [illegible]

[illegible] والأفكار [illegible] والمبادرة بالتطوير [illegible] عن المعلومات الضرورية لاتخاذ القرارات والتطوير [illegible] التنظيم والأعمال.

[illegible] القيم والمبادئ التي يحتاجها المجتمع والتي تساعد على نمو [illegible]

[illegible] والمثابرة والتعاون حتى يكون القائد قدوة لغيره.

[illegible] العلاقة الطيبة وحثهم على المشاركة والإبداع [illegible]

[illegible] الاختبار [illegible] وكفاءتها مع [illegible]

[illegible] ارتفاع الجودة والأداء وقياس نتائج [illegible]

[illegible] والصعوبات والمشاكل في العمل [illegible] للنجاح وتفوق [illegible]

ويشترط لنجاح القائد أن تكون لديه القدرة على صياغة وتطوير مهام القيادة ومن ذلك،

الشرط الأول:

التشجيع: تشجيع العاملين من خلال المصداقية والصراحة والأمانة والتصرف بإيجابية والتقدير للمجدين، وحث العاملين على المساهمة فى النمو وإعطاء الاقتراحات والاستماع لبعضهم البعض وتقديرهم واحترامهم لبعضهم البعض، والاستماع والبحث عن تطور الأفراد فى أدائهم وسلوكياتهم والعمل على تحسينهم وتطويرهم.

ويتبين من ذلك أن القائد الناجح هو الماهر فى تنظيم العمل والرقابة والسيطرة على الإجراءات وبالتالى يتحقق له تنفيذ وظيفتى التنظيم والرقابة، يلى ذلك القدرة على التخطيط السليم وتعديل أو تحسين بيئة المنظمة داخلياً وبالتالى يستطيع أن يضع الأهداف المناسبة التى يتم تحقيقها بواسطة الأفراد والمجموعات والموارد، ثم القدرة على خلق اتزان بين رغبات التنظيم وأهدافه ورغبات الأفراد والمجموعات والموارد المتاحة «وظيفة التخطيط».

الشرط الثانى:

للقائد الناجح كى يحقق هذه الأهداف هو الأسلوب الكفء والفاعل والإيجابى فى التعامل مع الأفراد والمجموعات والموارد لإحداث الالتزام والولاء، وتوجيه العاملين نحو تحقيق هذه الأهداف بفاعلية وكفاءة «وظيفة التوجيه» وبالتالى فيتوجب فيه توفر القدرة على الاتصال الفاعل والتأثير فى سلوكيات الأفراد والمجموعات، مما يؤكد أهمية دراسة أساليب القيادة وأنماطها فى التأثير على العاملين.



ومن قواعد وأسس القيادة الإدارية المكتسبة وهى غير الزعامة الفطرية

القيادة الناجحة والفاعلة تأتى نتيجة المثابرة على التعلم والتطور والتجربة الناجحة والممارسة السليمة إلى جانب ما يضعه الله تعالى فى القائد من صفات القيادة ومواهبها، ولاشك أن التاريخ شهد مواقف قيادية كثيرة ومتعددة إلا أن المواقف الإيجابية منها والراسخة هى تلك التى كان لأصحابها أدوار سامية ونتائج باهرة.

وكما يقول البعض فإن القيادة هبة ولكنها لا تظهر إلا فى الظروف المناسبة والتى تحتضن القيادة فتهيئ لها بالتالى كل ما هو مواتى لنجاحها.

ولكن ومع ذلك كله فالقائد إن لم يكن كفئا وفعالا وقادرا على التأثير فمهما كانت الظروف مواتية فإن موهبته القيادية قد لا تثمر أو لا يكون لها أى تأثير إيجابى على المجموعة.

فالقائد الناجح هو الذى يُعرف من خلال النتائج التى يحدثها فى المجموعة التى يقودها فالقيادة الناجحة إذا هى التى تؤثر فى سلوكيات الأفراد والمجموعات، لذلك كله فإن القيادى يحتاج إلى تطوير موهبته وقدرته فى إدارة المجموعة والتأثير فيها.

ومن هذا المنطلق فإن هنالك قواعد أساسية ينبغى للقائد الفعال التعامل معها لتحقيق أفضل النتائج هذه القواعد هى:

١- وضع الأهداف والبرامج العلمية: وينبغى للقائد أن تكون لديه القدرة على وضع الأهداف الممكن الوصول إليها بالموارد المتاحة قدر الإمكان مع جعل هذه الأهداف مقبولة، ومرغوباً فيها من قبل الأفراد والمجموعات فى التنظيم، ولجعلها مقبولة يجب على القائد توصيلها لهم بأساليب الإقناع والإحساس بأهميتها، ويلى ذلك وضع البرامج «الطويلة، والمتوسطة، والقصيرة المدى» لتحقيق هذه الأهداف شريطة أن تكون هذه البرامج مبسطة

٢- الأوامر وتعاليم العمل:

٣- الاتصال المقنع والفعال:

إلى أهمية تطور التنظيم وتحقيق النمو.

ومن ذلك أيضاً بعض القيم والمبادئ المشتركة كحب العمل فى المنظمة التى توفر العمل الجماعى وتحترمه، واحترام آراء الآخرين، وتشجيع وتقدير المجتهدين، والقيادى الناجح هو الذى يستطيع توظيف مثل هذه الأهداف والمبادئ لجمع العاملين معاً لخدمة أهداف المنظمة.

وبالتالى عندما يدرك الأفراد أن رئيسهم متمكن مما سبق فإنهم سيعطونه ثقتهم وسيعتمدون عليه لقيادتهم، ولاشك أن الشورى من أهم وسائل التأكيد على دور الأفراد.

٥- التوقع الصحيح لمتطلبات الأفراد وحوافزهم: إن العاملين لديهم العديد من المتطلبات والحوافز التى تدفعهم للعمل والمثابرة والقيادى الناجح هو الذى يدرك احتياجات العاملين كمجموعات وكأفراد أيضاً.

ذكر ثلاث أسس رئيسية ينبغى للرئيس إدراكها وفحصها قبل اعطاء أى أوامر عمل للأفراد أو المجموعة:

❖ إن العمل المطلوب يعود بشكل إيجابى إلى نوع الحوافز التى تعطى لمثل هذا العمل.. «هل هذا العمل يستحق هذا العناء؟».

❖ إن الجهد المطلوب المتوقع سيؤدى لإنجاز العمل.. «هل باستطاعتى مع الجهد الذى سأبذله تحقيق هذا العمل المتوقع فى الوقت المتوقع، وبالكلفة المتوقعة؟».

❖ إن الأجر والحوافز تستحق بذل هذا الجهد.. «هل الأجر والحوافز أو العائد المتوقع يستحق بذل هذا الجهد؟».

إذا فإن توقعات القيادى من متطلبات العاملين تبنى على دراسة:

- إن الجهد يوازى الحوافز.

- إن العاملين لديهم القدرة على الإنجاز «المهارات والخبرة».

- إن العمل المطلوب يستحق العناء ويعود على العاملين بالمنفعة المتوقعة.

٦- التصرفات والأدوار حسب المتطلبات: ينبغى للرئيس التصرف بدور إيجابى مع العاملين وأن يقوم بدوره كما ينبغى ووفقاً للحالات والظروف المختلفة، أى أن الرئيس

يكون إيجابى التصرف ويكيف أدواره حسب متطلبات الظروف ليستطيع كسب القوة اللازمة للإدارة من خلال ثقة المجموعة فيه ومنحهم إياه هذه القوة.

ويجب كذلك تفهم أن هذه القوة مصدرها تنفيذ الشىء الصحيح وليس عمل الصح، أى التجاوب مع مقتضيات الظروف والأدوار بشكل صحيح وليس الالتزام بالأنظمة والتعليميات التزاماً نصياً أو حرفياً وعلى سبيل المثال: توزيع وتنظيم العمل مع مجموعته بالشكل المناسب.

١- متطلبات القياديين الناجحين:

١- الطاقة التى لدى القياديين مرتفعة ولا تخبت.

٢- رفض الضغوط والأزمات: يتميز القياديون بمقاومة الأزمات والضغوط.

٣- المواصفات والقياسات: كما يتميزون بوضع قياسات جيدة والبحث باستمرار عن تحقيق أداء جيد.

٤- الصفات الإدارية: كما يتميزون بصفات إدارية مميزة كالأخاء، والعدالة، والاهتمام بأحوال العاملين.

٥- التأثير: ويتميزون بالقدرة على التأثير فى الآخرين.

٦- الاتباع: ويتميزون أيضاً بالتأثير على العاملين لاتباعهم برغبة وصدق.

٧- الاهتمامات: لديهم العديد من الاهتمامات كالاهتمام بالإدارة والعلوم السياسية والاقتصاد معاً.

٨- التعليم: قدرتهم على التعلم والتغيير عالية ورغباتهم فى المعرفة لا تنتهى.

٩- المحيط الاجتماعى: يدركون تصرفات الآخرين وأسباب هذه التصرفات من الواقع الاجتماعى الخاص بهم.

١٠- القيادة: فى الغالب يقودون المجموعة دون إحداث تعارض أو كراهية.

١١- التصرفات: لديهم القدرة على تغيير أو تعديل تصرفاتهم حسب ما تقتضيه الظروف.

١٢- موافقة الرؤساء: لديهم الثقة فى أنفسهم ولا يعتمدون على رؤسائهم بالكامل لتحقيق أهدافهم.

١٣- موافقة الزملاء: لديهم الثقة فى أنفسهم ولا يعتمدون على موافقة زملائهم الكاملة لتحقيق أهدافه.

١٤- التنظيم والتخطيط: تنظيمهم فعال وتخطيطهم جيد.

١٥- اتخاذ القرارات: لديهم قدرة عالية على تحليل الأمور وتقييم البدائل واتخاذ القرارات السليمة.

١٦- الاتصال المسموع: لديهم القدرة على التأثير فى الأفراد من خلال الاتصال الشفهى.

١٧- الاتصال المكتوب: لديهم القدرة على التأثير فى القارئ من خلال الكلمة المكتوبة.

٢- سمات القياديين الناجحين:

١- القدرة على إنجاز الأهداف.

٢- القدرة على توظيف الأنظمة والإجراءات بفعالية وكفاءة.

٣- العلاقات الإدارية الداخلية فى إداراتهم جيدة.

٤- القدرة على تطوير وتدريب الأفراد.

٥- المبادرة بالأمور لديهم عالية.

٦- هم أعضاء فاعلون ضمن مجموعة الإداريين فى التنظيم.

٧- تتوافر لديهم المعلومات والمهارات الفنية اللازمة للعمل.

٨- تتوافر لديهم المهارات الإنسانية والسلوكية «العلاقات الإنسانية».

٩- يهتمون بسلامة العاملين وانضباط موقع العمل.

١٠- لديهم القدرة على الاتصال الفعال.

١١- لديهم الرغبة في تحمل المسئوليات.

١٢- تتوافر لديهم الأمانة والصدق والثقة بالنفس وبالآخرين.

١٣- تتوافر لديهم المهارات الإدارية[١].



(1) www.yanbul.com

سيكولوجية الزعيم والزعامة

يرى البعض أن الزعيم القائد كان شخصاً مقوداً منبهراً بشخصية قيادة أو زعيم آخر حى أو شخصية أخرى تاريخية.

ويرون أيضاً أن شخصية الزعيم دائماً مقودة ومنبهرة بفكرة تؤمن بها وتسعى لتحقيقها حتى تعتقد أن العناية الالهية خلقتها من أجل تلك الفكرة أو الرسالة.

والمجتمعات باختلاف أجناسها وأعراقها على مر التاريخ البشرى تنجب زعماء لتحقيق أحلامها وطموحاتها، فدائماً تسعى الشعوب لبطل قومى وزعيم وطنى ترفعه على الأكتاف حياً وميتاً، قد تهتف باسمه أو تلعنه.

ويرى البعض ومنهم جوساف لوجون أن الشئ الذى يهيمن على روح الجماهير ليس الحاجة إلى الحرية وإنما إلى العبودية وذلك أن ظمأها للطاعة يجعلها تخضع غرائزياً لمن يعلن بأنه زعيم[1].

فأى جماعة أو دولة أو مجتمع لا يستطيع العيش والحياة بدون قائد لها أو زعيم سياسى أو قائد دينى وتلك طبيعة بشرية جبلت البشرية عليها.

إن الكثير من الجماعات لا تقدر أن تعيش بدون زعامات قومية أو دينية أو سياسية، ولو فرغت ساحتها من الزعيم، فإنها تسعى لخلق زعيمها ورمزها الخاص بها، الذى يعبر «فى رأيها ربما» عن تطلعاتها أو أحلامها «حتى بوجود خيبات الأمل، الزعيم يصبح قدراً لابد منه»، فأغلب الجماعات تعيش أو تريد أن تعيش فى ظل «النموذج التبعى»، الذى تستمد منه الكثير من أنماط حياتها.

ويشتد لدى تلك الجماعات هوس بالزعامة لا يقارع، بل يصبح على أشده، إذا كانت تمر بأزمات شديدة تهدد هويتها وكيانها ومعتقداتها، فنرى الجماعات تركن إلى زعيم ما بدون تبصر واختيار واع ودقيق، متخذة منه معبراً أو جسراً للخروج من أزمتها الوجودية أو الظروفية التى تعصف بها، لعله يعيد إليها التوازن الذى فقدته أو يمنحها الرجاء

(١) أنظر سيكولوجية الجماهير - جوستاف لوبون - ترجمة هاشم صالح.

والأمل فى مستقبل مّا.

وأما الزعيم «البطل» من المنظور النفسى «الأنا القيمية العليا» للجماعة، لهذا تلحق به كل الصفات الجيدة والخارقة ويكون محصناً من العوامل العارضة، ولا يتأثر بها مباشرة بل يشكل جسمه وعقله وروحه وأفعاله وحدة خالصة لا تدنى أو تقرن فى شىء من ظواهر الدنيا.

بل أن يشكل تاريخه، ليتخذ أبعاداً أسطورية وقيادية ونبوغاً مبكراً منذ ولادته أو ربما قبلها، على شكل أحلام ورؤى والديه وآخرين من عائلته، ومن المقربين له حول مستقبله فى تولى الزعامة وقيادة البلاد والعباد، ويمر تاريخه الشخصى والعائلى بتحريف على درجة عالية من الهلامية والتعديلات الجزافية اللا مألوفة والحكايات الأسطورية.

فالآلية النفسية التى تسير فى ركابها ظاهرة الزعامة هوامية طفلية، تخضع إلى عوامل غير عادية قد تأتى تهاجمنا فى الأحلام، حيث لا نملك القدرة على مواجهتها، لأنها تنطلق من جذور عميقة مؤطرة بتصورات طوقت حياتنا بقوتها وحضورها وزخمها مدة لا يستهان لها من الزمن، وخصوصاً فى مجتمعاتنا التى لا تزال تعيش تحت ضغوط القهر والتخلف مما يجعلها تخضع لمسارات التبعية والخضوع من أعلى إلى أسفل.

لهذا نرى الشعوب المقهورة فى الاتكال على الغير، ظل تلك الجدلية الاجتماعية والمحكوم بها منذ نشأته الأسرية وتعلم من خلالها على أنه غير قادر على مواجهة الواقع بقدرته، فسيبحث عن أبطال لمنحهم ما يريدون من امتيازات فائقة فى سبيل أن يصبحوا وكلاء له أمام الأحداث، ويتصرفوا نيابة عنه، فى حاضره ومستقبله ومصيره وقدراته، مثل الطفل الذى يركن إلى جبروت أبيه فى ساعات الضعف ليطلب حاجة يتمناها مع فارق فى نوعية الحاجة والمتطلبات ويمسك فى ذيل جلباب أمه خوفاً من الناس حوله.

فلو كانت هذه المجتمعات لديها المؤسسات التى تحميها وتدافع عن حقوقها لما احتاجت أو ركنت إلى الزعيم المنقذ والمخلص لها، الذى تمشى فى ركابه الحشود متطلعة لأقواله عله يرمى لها فتات أمانيها فى عسر دنياها ومأزق وجودها، عله يمن عليها من عليائه ويجود عليها بكرمه الفائض.

ولهذا تتجمع حول شخص الزعيم وتتمحور حوله كل أمانى المجتمع وخلاصاته، وكل

اشباعاته النفسية الوهمية ولا تنتج هذه المجتمعات إلا الزعماء المهووسين أمثال هتلر وبوش.

فالزعامات تخلقها المجتمعات لحاجات نفسية عميقة فى وجدانها، مع مؤازرة عوامل داخلية وخارجية، استراتيجيات منظورة وغير منظورة، وكذلك تمليها سياقات تاريخية محددة.

وتمر الزعامة بدور النمو والاحتضان، وتحصيل ما يمنحها التأكيد الكامل والمطلق من شرائح متنفذة فى المجتمع، وبعدها تمر بمرحلة تالية، هى الانفصال عن تلك الشرائح ذات النفوذ التى أعطتها الشرعية، وغذتها بأسباب القوة والشرعية، وامتلاك القاعدة الجماهيرية والشعبية.

وتبدأ لاحقاً بإطلاق الأوهام والتهويمات حتى تصير واقعاً محسوناً ملموساً ومؤطراً، وفكر مؤدلجا لا يدحض، وعقيدة منغلقة ومكتفية بذاتها، عندها ينقلب الزعيم على صانعيه ويصفى حساباته معهم جميعاً، كى لا تشوب شرعيته أى شائبة من قريب أو بعيد.

ومهما كانت خصائص الزعيم فى فترة حكمه إيجابية أو سلبية، فهو يمثل رمزاً بالنسبة لشعبه، سواء كانت شرعيته بإرادة أو كانت قهراً.

إلا أن هذه العلاقة والتبعية تشوبها جدلية مشوهة بين الزعيم ورعيته.

وتنتهى بكوارث لتلك الشعوب وغيرها من الشعوب الأخرى حسب نوعية الزعيم.

فالزعيم لابد أن يفشل ويكرر فشله ويتراكم عجزه مفجراً التناقضات بينه وبين جمهوره فإذا أصر على بقائه فى سدة الزعامة وأصر على منهجيته فى التفرد فى كل الأمور، فإنه سوف يتحول إلى متسلط ولابد من اتخاذ القمع وسيلة للاحتفاظ بمركزه وكل هذا مشاهد فى بعض دول العالم الثالث.

لهذا يجب أن تقف الشعوب والجماعات من زعاماتها فى حيز الوعى والمعقول أما إذا سقطت فى الغيبوبة واللاوعى فإنها تكون قد وضعت العراقيل مسبقاً أمام تقدمها وانفتاحها وضيقت من أفق حرياتها بنفسها وبصنعها.

ونلاحظ أن الدول المقهورة والمقموعة والمؤجلة أمانيها وتطلعاتها البحث عن ذاتها واعتباراتها فى شخصية الزعيم، ولكن بمرور الوقت تذوب تلك الذات لصالح ذات أشمل

هى ذات الزعيم القوية والمؤثرة، وتغدو متابعة ومستسلمة لها حتى تسمى الدول باسم زعيمها الأوحد.

وحتى أن موت الزعامات أو الغياب المفاجئ، بسبب إرباكاً وزعزعة وفوضى لا مثيل لها فى وجدان الجماعات، لأن تاريخها وبكل ما يحمله، قد اختُزِل فى تلك الزعامة.

مثل تلك الزعامة لا تخدم تطلعاتها وآمالها، بل محطمة لشعوبها كما يحطم الأب ابنه بحجة أنه يريد مصلحته وكما فعل فرعون موسى مع قومه.

وتبرز مع هذه الإشكالية، إشكالية تغيير القناعات ومدى صعوبتها وعسرها وربما تكون فى كثير من الأحيان مصدر لعنف شديد، إذ تكون الجماعة أو الشعب يمر باختبارات مشوشة ومشوبة بالتردد والارتباك لأنها لا تمل؛ القدرة والفعالية والارادة اللازمة بعد أن سلبها الزعيم الملهم إرادتها، والسبب يرجع إلى ما هو غير منطقى وغير موضوعى وغير عقلانى، والاختزال والدمج الذى مورس ضدها وأصبحت ترى بعداً واحداً هو الشخص الزعيم وأتباعه دون غيره.

والبطل «الزعيم» أنانى ومعقود على عوامل ذاتية، وهو سيد التاريخ والمجتمع الحاضر وهو المستقبل البطل يمنع الديمقراطية ويلغى الحوار ويرفض النقاش ولا يؤمن بالحرية للفرد وهو عدم المساواة فيصبح مارداً يرفض العودة إلى القمقم.





الجد والحفيد

- الجد المؤسس «جنكيزخان» أمير الغزاة وتكوين إمبراطورية مغولية.
- تفكك الإمبراطورية المغولية بعد موت مؤسسها وحدوث الخلاف بين الأحفاد علي السلطة.
- التنظيم العسكري لجيوش المغول.
- ظهور «هولاكو» حفيد «جنكيزخان».



الجد المؤسس «جنكيزخان» أمير الغزاة وتكوين إمبراطورية مغولية

«جنكيزخان» شخصية فريدة فى التاريخ البشرى ولد فى هينتى بمنغوليا حوالى عام ١١٦٢م وقيل عام ١١٦٧م ٥٤٨هـ وهو الابن الأكبر البكر «ليسوكيه» أمير لـ ١٢ قبيلة وتسمى عائلته بـ «بورجيكى».

وكان اسم «جنكيزخان» قبل أن يصبح إمبراطور المغول «تموجين».

لم تطل الحياة بأبيه الذى قتل على يد أعدائه من التتار، فقد كانت القبائل التتارية تقاتل بعضها البعض، فقتل الأب عام ١١٧٥م وترك ابنه «تموجين» البكر وعمره لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره.

وانفضت القبائل التى كانت تحت قيادة والده عنه وعن إخوته وعشيرته، ففقد الجاه والسلطان وهامت أسرة «تموجين» فى الأرض تقاسى الجوع والفقر والمطاردة من أعداء الوالد القتيل.

نجحت «أم تموجين» الذى أصبح فيما بعد «جنكيزخان» فى تجمع الأسرة المستضعفة وحثت أبناءها الأربعة على الصبر والكفاح خاصة الابن الأكبر «تموجين» الذى ظهرت عليه إمارات الزعامة والقيادة لتمتعه بجسد قوى وشخصية جبارة قاسية جعلته الأقوى بين أقرانه، واستطاع المحافظة على مناطق الرعى لأسرته، حتى تحسنت أحوالها وتوافدت عليه بعض القبائل التى توسمت فيه القيادة ودخل فى صراع مع القبائل الأخرى لتجميعهم حوله.

وكان تموجين شديد البطش من حداثته فجمع رجاله وحارب الثائرين وتغلب عليهم، وحارب تموجين بعد ذلك حروباً فاز فيها فازداد أمراؤه تعلقاً به فاحتفلوا بتهنئته احتفالاً أعظم من ذاك فى سهل على ضفاف سلنكا فاجتمع الأمراء والخانات فوقف فيهم وكان قوى العارضة فأبدع، ثم جلس على لبادة سوداء فرشوها له هناك وأصبحت تلك اللبادة أثراً مقدساً عندهم من ذلك الحين.

ثم وقف بعض الحضور وكان من أهل التقوى والنفوذ فقال: «مهما بلغ من قوتك فإنها من الله وهو سيأخذ بيدك ويشد أزرك فإذا فرطت فى سلطانك صرت أسود مثل هذه اللبادة ونبذك رجالك نبذ النواة».

ثم تقدم سبعة أمراء أنهضوه باحترام وساروا بين يديه حتى أعادوه على عرشه ونادوا باسمه ملكاً على المغول، وكان فى جملة الحضور شيخ يعتقدون فيه الكرامة والقداسة فتقدم وليس عليه كساء وقال: «يا إخوتى قد رأيت فى منامى كأن رب السماء على عرشه النارى تحدق به الأرواح وقد أخذ بمحاكمة أهل الأرض فحكم أن يكون العالم كله لمولانا تموجين وأن يسمى جنكيزخان أى الملك العام».

ثم التفت إلى تموجين وقال: «لبيك أيها الملك فإنك تدعى منذ الآن جنكيزخان بأمر الإله».

ولم يعد يعرف بعد ذلك إلا بهذا الاسم، فلما تهيأ له تأسيس دولته وتدريب جنده إلى فتح العالم فسار أولاً نحو الشرق إلى مملكة الصين وكان لإمبراطور الصين جزية من المغول يؤدونها كل سنة فلما استفحل أمر جنكيزخان أبى الدفع ومعنى ذلك الإباء إشهار الحرب.

فحمل جنكيزخان بجيشه على الصين واخترق سور الصين وأمعن فيها قتلاً ونهباً والصينيون يومئذ أسبق الأمم فى الاختراعات الحربية فاستخدموا النار اليونانية التى استعان بها اليونان على حربهم مع العرب وقذفوا على المغول كرات فيها البارود قبل أن يعرفه أهل الغرب.

عل أن ذلك لم يكن ليرد غارات تلك القبائل فمازال جنكيزخان زاحفاً حتى احتل بكين عاصمة الصين وسائر بلادها الشمالية، فازداد ذلك الفاتح رغبة وقوة فتحول بجنده الجرار نحو الغرب أى غرب بلاده وهى المملكة الخوارزمية فحمل جنكيزخان نحو الغرب وجنده يزيد على «٧٠٠,٠٠٠» مقاتل واكتسح تركستان وما وراءها وأوغل فيها قتلاً ونهباً مما تقشعر له الأبدان، فلم يكن همهم غير القتل والنهب كالوحوش الكاسرة وتمكن فى حياته من إنشاء مملكة لم يوفق لمثلها أحد من الفاتحين قبله ولا بعده إلا الإسكندر المقدونى ولا يوليوس قيصر الرومانى ولا نادر شاه الفارسى ولا نابليون بونابرت

الفرنساوى، أنشأ مملكة تمتد من البحر المحيط إلى البحر الأسود ودخل فى سلطانه ملايين من الصينيين والتنكوت والأفغان والهنود وغيرهم من الأجناس الأخرى.

تمكن جنكيزخان ببراعة سياسية وقبضة عسكرية حديدية من توحيد قبائل منغولية - تركية بدوية كانت بالسابق شديدة التنافس فيما بينها فأصبحت تحت إمرته عام ١٢٠٦.

وبسرعة تمكن من غزو ممالك الصين الشمالية وضمها إليه، ثم على الحدود الغربية حيث الدولة الخوارزمية القوية حصلت بعض الاستفزازات فيما بينهما مما حدا بالخان للاتجاه غرباً صوب آسيا الوسطى حيث احتل خوارزم ودمرها واحتل بلاد ما وراء النهر وفارس.

وبعد ذلك هاجم كييف الروسية والقوقاز وضمهم إلى ملكه، قبل مماته وزع تركته الإمبراطورية بين أبنائه وحسب الأعراف يبقى الحكم للأسرة المالكة والتى هى من سلالته فقط.

ففى عام ١٢٠٦ كان تموجين يسيطر على منغوليا ويلقب باسم جنكيزخان ومعناه الملك الذى لا يلين أو أمير الغزاة.

وفى عام ١٢٠٧ غزو الصين بدء بدولة هسيا الغربية التى تشمل أراضى ضخمة من الشمال الغربى للصين وجزءا من التبت ولم تنته إلا بعام ١٢١٠ عندما خضع ملك هسيا الغربية لحكم جنكيزخان وخلال تلك الفترة خضع الأويغور الترك بسهولة للمغول مما سهل لهم الوصول إلى المناصب العليا بالإمبراطورية.

وفى عام ١٢١١ عبر جنكيزخان بجيوشه صحراء جوبى لاحتلال مملكة جين الصينية الموجودة بشمال الصين.

وفى عام ١٢١٨ أخذ المغول زيتسو وحوض تاريم وكاشغر.

وفى نفس العام ١٢١٨ شاه خوارزم يقتل مبعوث جنكيزخان مما أدى إلى اندفاع المغول غرباً.

أما فى عام ١٢١٩ توغل المغول غرباً وعبورهم نهر سيحون وبداية غزواتهم لبلاد ما

وراء النهر.

وفى عام ١٢١٩ - ١٢٢١ وبينما الحملة على شمال الصين لاتزال مستعرة شن المغول حرباً لا هوادة لها بأواسط آسيا ودمروا الدولة الخوارزمية، الملاحظة المهمة هنا أن الحملة انطلقت بعدة اتجاهات مرة واحدة والملاحظة الأخرى أن جنكيزخان جهز بنفسه وحدات خاصة للبحث عن السلطان محمد خان الخوارزمى الذى هرب منهم وانتهى به المطاف مقتولاً بجزيرة فى بحر قزوين.

وازدادت قوة المغول بعد نصرهم الحاسم بمعركة نهر كالكا على الروس السلاف عام ١٢٢٣م.

وفى عام ١٢٢٧ مات جنكيزخان قائد المغول وعاد جميع القواد إلى مجلس الحكم قوريلتارى بالعاصمة المنغولية، وقد وصلت الإمبراطورية إلى مساحة ٢٦ ميلون كم مربع تقريباً بمعنى أكبر بأربع مرات من الإمبراطورية الرومانية أو حتى إمبراطورية الإسكندر الأكبر.

وأبناء جنكيزخان أربعة هم: جوتشى وشقطاى وأوقطاى وتولوى[١]، وكان له ابن أكبر مات قبل وفاته مسموماً يدعى جوجى[٢].

وقد تولى الحكم بعده أوقطاى ابنه ويكتب أيضاً أوكتاى وأصبح اسمه بعد توليه «قا آن» أى ملك العالم.

وذكر الجوينى[٣] أن أبناء جنكيزخان عند وفاته هم جغتاى، واوكتاى، وتولى، وكلكان، وجورجتاى، وأورجان، وأنه أوصى للملك من بعده لاوكتاى، وبالفعل بعد موت جنكيزخان

(١) اقرأ كتابنا «جنكيزخان الأعصار القادم من الشرق» الناشر دارالكتاب العربى.

(٢) ذكر المؤرخ الروسى بارتولد عن الجوزجانى ان «جوجى» قد قتله والده جنكيزخان بالسم بعد أن علم أنه قال لخاصته إن والده الخان الأعظم قد فقد عقله كى يقتل هذا الخلق ويخرب مثل هذا العدد من البلاد.. وقد نما هذا الخبر إلى أخيه جفتاى الذى نقله إلى ابيه جنكيزخان فأمر جنكيزخان بوضع السم لابنه جوجى ومات جوجى مسموماً وهو بين الثلاثين والأربعين من عمره ومات جنكيزخان بعده ببضعة أشهر فى أغسطس ١٢٢٧م وكان جوجى قد أظهر منذ شبابه البكر انتقاداً لدموية أبيه جنكيزخان.

(٣) انظر كتاب «تاريخ فاتح العالم» عطا مالك الجوينى وكان معاصراً لهولاكو وأول حاكم لبغداد بعد سقوطها فى أيدى هولاكو.

استلم أوقطاى خان «الابن الثالث» الحكم فيعتبر الحاكم الثانى بعد جنكيزخان، لكن بعد موته بدأت التصدعات الخطيرة تطفو إلى السطح مدة خمس سنوات حتى استلم جويوك خان ابن أوقطاى خان الحكم عام ١٢٤٦ ولم يدم بالحكم إلا سنتين فمات وهو بالطريق لمحاربة ابن عمه باتو خان الذى تمرد عليه ورفض شرعيته.

فعادت الوصاية على العرش مرة أخرى والمشاكل لمدة ثلاث سنوات حتى تم اختيار مونكو خان بن تولوى بن جنكيزخان وهو أخ لهولاكو من عام ١٢٥١ وحتى عام ١٢٥٩.

واستلم بعده أخوه قوبلاى خان من عام ١٢٦٠ وحتى عام ١٢٩٤ آخر الخاقانات للإمبراطورية المغولية ومؤسس سلالة يوان التى حكمت الصين، وبموته تفككت الإمبراطورية المغولية.

وقد قسم جنكيزخان بعهده المملكة إلى ٤ خانات يخضعون تحت حكمه المباشر، ثم ظهرت خانات خلال فترة الوصاية بعد وفاة أوقطاى خان ثم انقسمت بعد وفاة قوبلاى خان إلى:

❖ القبيلة الذهبية ومؤسسها باتو خان.

❖ الخانات ومؤسسها هولاكو.

❖ سلالة اليوان ومؤسسها قوبلاى خان.

❖ منغوليا ومؤسسها تولاى خان.

❖ خانات الجاكاتاى ومؤسسها جاكاتى خان ابن جنكيزخان.

استمر تمدد الإمبراطورية لجيل أو أكثر بعد موت جنكيزخان ووصلت سرعة التمدد ذروتها بحكم خلفه أوقطاى خان فالجيوش المغولية بدأت بالضغط أكثر صوب فارس بعد القضاء على الخوارزميين، وقضوا على مملكة زياو وبدأوا بالحرب مع مملكة سونج الصينية.

وبحلول عام ١٢٧٩ تم غزو كامل للصين.

وغزو باتو خان روسيا ثم حوض فولغا فى بلغاريا أواخر سنة ١٢٣٠، وقلص معظم إماراتها وجعلها مجرد إقطاعيات تابعة له، وبدأ بالضغط على شرق أوروبا، بالواقع هو

كان جاهزا لغزو غرب أوروبا خاصة بعد انتصاراته الباهرة وسحقه الجيوش البولندية والألمانية والنغارية بمعركتى لجنيكا وموهى حيث جهز هو وسباتاى خان الجيوش لحملة الشتاء لغزو النمسا وألمانيا وإنهائها بإيطاليا حسب الخطة.

لكن أخبار موت أوقطاى خان حول انتباه باتو خان عن أوروبا واتجه صوب العاصمة ومن سيتولى العرش المغولى، تلك كانت أعظم نقطة تحول بتاريخ أوروبا لأنها بالتأكيد سوف تقع تحت الحكم المنغولى لو استمر باتو خان بحملته.

وبعد الحملات الضخمة الأولى لغزو أوروبا، وسحق آلة الحرب المغولية للجيش الهنغارى وفرسان القديس يوحنا والفرسان التويتيين وقضت على الكثير من المدنيين الأبرياء وكانت مستمرة بطحن أوروبا حتى جاء موت أوقطاى خان المفاجئ عام ١٢٤١ عندما كان القائد عند سوبوتاى خان يستعد للهجوم على فيينا، هذا الفراغ المفاجئ للسلطة بدا وكأنه بداية أحداث أدت لانهيار الإمبراطورية المغولية.

والتقليد عند موت الخان أن يعود جميع الأمراء وقواد الجيوش مع معظم جيوشهم إلى العاصمة مسافة آلاف الأميال... قوبلاى خان جعل عاصمته دادو أو بكين حالياً مما صعب من سفرهم لاختيار الخان الجديد للعرش.

أرملة الزعيم توراكينا خاتون تولت الوصاية واستخدمت نفوذها لضمان انتخاب ابنها «جويوك» ـ كيوك ـ من الكورولتاى.

بالمقابل اصيب باتو خان بالإحباط الشديد لتأجيل الحملة الأوروبية لم يكن بالأساس راضيا على اختيار جويوك كخان عظيم، ولكن ضعف تأثيره على المجلس لم يؤخذ برأيه، لذلك عندما لم يستطع التقدم غرباً رفض العودة إلى العاصمة متعللاً بأن الوضع بأوروبا سيكون محفوفاً بالمخاطر له ولجيشه لو عاد وسوف لن يقبل بأى نتيجة يقرها الكورولتاى بغيابه، هذا المأزق استمر أربعة أعوام، وبالنهاية وافق على إرسال مندوب له إلى الكورولتاى ولكنه رفض اختيار جويوك كخان عظيم.

أما توراكينا خاتون وابنها جويوك خان ـ كيوك ـ لم تكن لهم رغبة بموظفى الدولة الصينيين الذى زرعهم جنكيزخان بنفسه وأبرزهم المستشار بيلو جوتساى الذى ساهم بالإدارة الناجحة لغزوات المغول، وكانوا يريدون استبداله بإدارة إسلامية من المناطق

الجديدة التى احتلوها للمساعدة بتجديد السياسة المغولية.

لم يدم جويوك - كيوك - خان بالحكم طويلاً فقد مات بعد سنتين من انتخابه عند توجهه لملاقاة باتو خان ليجبره على الخضوع لإمرته، واستلمت أرملته الوصاية على العرش إلى أن يجتمع المجلس ولسوء حظها لم تستطع أن تبقى السلطة لها.

فباتو خان بقى بجوار جيوشه ولكنه أعطى الدعم لابن عم جويوك «مونكو خان» الذى اختير حسب الأعراف خاناً عظيماً عام ١٢٥١، ومن غير قصد أعطى مونكو خان أخاه قوبلاى خان الفرصة ليكون خانا للمغول من بعده عام ١٢٦٠ عندما كلفه لحكم مقاطعة بشمال الصين.

وكذلك أرسل منكو بن تولوى الذى تولى العرش سنة ٦٤٨هـ ١٢٥٠م وسنة ٦٥١هـ ١٢٥٣م أخاه هولاكو ومعه أسرته على رأس جيش كبير إلى إيران ليحارب الإسماعيلية والعباسيين فى بغداد.

وقد حرص «منكو» على إعداد أخيه هولاكو إعداداً دقيقاً وباشر ذلك بنفسه فأمده بكثير من القوات التى مارست الطعن والنزال واقتحمت ميادين القتال، وأمده بكثير من الجند الذين مهروا فى استخدام أدوات الحرب مثل المنجنيق وقاذفات النفط ورمى السهام ووصل تعداد هذا الجيش إلى ١٢٠٠٠ جندى من خيرة محاربى المغول.

وخرج هولاكو على رأس جيشه من عاصمة المغول «قراقورم» سنة ٦٥١هـ ١٢٥٣م حتى وصل إلى إيران واستطاع أن يخضعها لسلطانه سنة ٦٥٣هـ ١٢٥٥م وفى العام التالى فتح قلعة الموت وحطم المغول ما وجدوه من الأسلحة وأدوات القتال التى كانت لدى الاسماعيلية.

وبذلك زالت دولة الاسماعيلية الباطنية بعد أن استمرت ١٧١ عاماً تثير الرعب والفزع فى بلاد العالم الإسلامى كافة ليحل محلهم المغول الذين انتقلوا إلى همذان وعسكروا فيها ليكونوا بالقرب من العاصمة العباسية تمهيداً لغزوها[1].

---

(١) أنظر الموسوعة الحرة ويكيبيدا على شبكة الإنترنت.

التنظيم العسكرى لجيوش المغول منذ عهد جنكيزخان:

كان التنظيم العسكرى المغولى بسيطا ولكنه فعال، اعتمد على تقليد قديم للسهوب وهو النظام العشرى المعروف فى الثقافة الفارسية منذ عهد الاخمينيون، وتتكون الفرق العسكرية من مجاميع وكل مجموعة تحتوى على عشرة رجال تسمى Arban أربان، 100 Yaghun ياغون، 1000 Minghan منغان، 10000 Tumen تومين، كل قائد مجموعة يخضع للقائد الذى أعلى منه كما هو التنظيم المتبع بالتنظيمات العسكرية الحديثة.

وكان المغول مهرة بنظام حصار المدن، وحذرين بتجنيد العمال المهرة والعسكر المحترفين من المدن التى غزوها، ومن خلال جيش من المهندسين الصينيين المهرة ومن باقى الممالك التى احتلوها كانوا خبراء ببناء المجانيق والكمائن الآلية التى يعتمد عليها بحصار المواقع المحصنة، وكان لها فعالية قوية بالحملات الأوروبية بقيادة سوباتاى «أفضل قادة جنكيزخان وأوقطاى خان»، وكانت تلك الآلات العسكرية التى تبنى بالأماكن التى يجب توافر المواد الأولية لها كالغابات والأشجار.

تعمل القوات المغولية بالتنسيق مع بعضها البعض بالمعركة وبما أنهم مشهورون بالرماية من خلال الخيل، والقطعات المقاتلة متساوية بالقدرة وهو الشىء الأساسى لنجاحهم، أيضاً استخدامهم المهندسين بالمعركة وذلك باستعمال المنجنيق والآلات العسكرية لكسر التحصينات وعمل الصواريخ والدخان لخلخلة تنظيمات العدو وكسر ثباتهم والنقطة المهمة لاستخدامهم الدخان هو عزل العدو وتدميره قبل وصول التعزيزات من حلفائهم.

ومن أهم مميزات الجيش المغولى منذ تأسيسه فى عصر جنكيزخان الانضباط العسكرى الشديد لقوادهم.

تكون القوات الخاضعة لإمرة الإمبراطور مدربة ومنظمة ومجهزة للحركة السريعة،

ولعمل ذلك يكون تجهيز الجنود خفيفا نسبياً بالمقارنة مع الجيوش التى واجهوها.

بالإضافة لذلك يعمل العسكر بشكل منفصل عن خطوط الإمداد لتسريع القطعات العسكرية بشكل أفضل، التفنن باستخدام البريد يجب أن يكون عالى المستوى للمحافظة على الاتصال بين قطاعات الجيش مع بعضهم البعض وبين رؤسائهم وقوادهم، هذا الانضباط نمى فيهم ويسمى بالنيرج Nerge والنيرج هو نظام منغولى قديم ومعناه التكتيك بالصيد وهو أن الحيوان أو العدو يكون محاصرا ثم تضيق دائرة الحصار ويقتل أى شىء يحاول الفرار من الحصار ويكون الصيد متميزا بتلك الثقافة عن أى ثقافة أخرى(١).

وكانت الحملات العسكرية يسبقها التخطيط الجيد والاستكشاف وجلب المعلومات الحساسة المتعلقة بمناطق العدو ووجود قواته، النجاح والتنظيم وسهولة الحركة للجيوش المغولية ساعدهم على القتال بعدة جبهات بالمرة الواحدة، الذكور الذين أعمارهم من ١٥ إلى ٦٠ عاماً القادرون على اجتياز التدريبات الصارمة كانت تؤهلهم للتجنيد بالجيش.

والميزة الأخرى للمغول هى مقدرتهم على اجتياز مساحات شاسعة وبأشد حالات البرد قسوة، خصوصاً الأنهار المتجمدة التى تعمل لهم كطرق سريعة، بالإضافة إلى هندسة الحصار وخبرتهم بمجال الأنهار كعبور قبائل الكومان المنغولية بقيادة باتو خان لنهر ساجو وقت فيضانات الربيع بـ ٣٠ ألف فارس بليلة واحدة فى معركة موهى فى أبريل ١٢٤١م، وهزيمتهم لملك هنغاريا بيلا الرابع، ونفس الشىء فى هجومهم ضد الدولة الخوارزمية المسلمة فقد استعملوا أسطولا صغيرا من المراكب لمنع الهروب خلال النهر.

والإمبراطورية المغولية حكمت بواسطة دستور لأحكام القانون ابتكرها جنيكزخان وتسمى الياسا ومعناها القانون أو الحكم، شريعة هذا القانون هو المساواة ما بين عامة الناس مع الخاصة بالواجبات، وفرض الجزاءات القاسية للمخالفين مثل القتل للسارق أو الهروب من الخدمة العسكرية، بشكل عام الانضباطية الصارمة للقوانين حفظت الإمبراطورية بشكل تام وحافظ على استمراريتها، والرحالة الأوبيون كانوا متعجبين من قوة التنظيم والصرامة بالقوانين داخل الإمبراطورية.

(١) انظر كتاب «فاتح العالم» للجوينى وهو من المعاصرين والمقربين لهولاكو وأول حاكم لبغداد بعد هولاكو.

وتحكم الإمبراطورية بواسطة برلمان غير منتخب ويكون مجلس مركزى ويسمى «قوريلتاى» حيث الزعماء يلتقون بالخان العظيم للمناقشة بالشؤون المحلية والسياسات الخارجية وأيضاً لانتخاب الإمبراطور الجديد عقب وفاة أى إمبراطور لهم.

وأظهر جنكيزخان الحرية والتسامح الدينى مع الآخرين ولم يضطهد أى شعب بسبب معتقداتهم الدينية، وهذه كانت سياسة عسكرية ناجحة كمثال على ذلك، عندما كان فى حرب مع السلطان محمد شاه خوارزم لم تتدخل أى دولة إسلامية وتشترك بالحرب ضده، وبالعكس من ذلك أنهم رأوها حرباً عادية بين دولتين وإن كان الإسلام يوجب نصرة الدولة المسلمة التى تتعرض لأى عدوان من دولة أخرى غير مسلمة، ولكن نظراً للفرقة والاختلاف بين الدول الإسلامية جعلها تقف على الحياد ازاء تلك الحرب التى دارت بين الامبراطورية المغولية والامبراطورية الخوارزمية المسلمة موقف المتفرج حتى جاءها الخطر فيما بعد فى عصر أحفاد جنكيزخان حين خرج هولاكو للقضاء على الدول الإسلامية والعربية التابعة للخلافة العباسية.

وما حدث بالأمس يحدث اليوم حين تقف الدول الإسلامية فى صفوف المتفرجين فى حين تتعرض بعض الدول الإسلامية لغزوات وهجمات تتارية من المغول الجدد الذين رفعوا شعار الصليب فى حربهم ضد الإسلام والمسلمين وقاموا بغزو أفغانستان والعراق ومن قبلها احتلوا أرض فلسطين العربية المسلمة وأقاموا عليها دولة صهيونية يهودية.

وكان أهم ما يميز جيش المغول وطريقة قتاله عن غيره من الجيوش:

١- سرعة الانتشارالرهيبة فى أرض المعركة.

٢- أعداد هائلة من الجنود المدربين تدريباً جيداً.

٣- نظام محكم وترتيب دقيق فى صفوف الجيش تجعل لكل مجموعة صغيرة قائداً يسيطر عليها فى المعركة.

٤- تحمل الظروف القاسية من حر أو برد أو صحراء أو أدغال حتى إنهم يقاتلون فى كل مكان بسبب الطبيعة التى عاشوا فيها.

٥- قيادة عسكرية بارعة استخدمت أحدث وسائل القتال وأدواته فى عصرها واستفادت بكل خبرات الشعوب الأخرى وضمها إلى جيشها.

٦- من أهم مميزاتهم وهى صفة يتصفون بها عن غيرهم أنهم بلا قلب فحروبهم كلها كانت حروب تخريب غير طبيعية فكانوا يبيدون إبادة جماعية لأهل المدن من أطفال ونساء وكهول لا يفرقون بين مدنى وعسكرى الكل عندهم سواء لا يفرقون بين ظالم ومظلوم.

٧- رفض قبول الآخر والسير على مبدأ القطب الأوحد وليس هناك مجال للتعامل مع دول أخرى وإن كان لديهم تسامح مع الأديان الأخرى حتى إن بعضهم اعتنق المسيحية وآخرون وهم الأغلبية اعتنقوا الإسلام فيما بعد إلا أنهم اتفقوا على تحكيم قانون جنكيزخان فيما بينهم.

والغريب أنهم كانوا يدعون أنهم ما جاءوا إلى هذه البلاد إلا ليقيموا الدين ولينشروا العدل وليخلصوا البلاد من الحكام المستبدين وهى نفس دعوى مغول العصر الحديث من الأمريكان والإنجليز وهى دعاوى باطلة.

٨- كانوا لا عهد لهم مطلقاً ولا أيسر عندهم من نقض العهود وإخلاف المواثيق.

وكل هذه الصفات يتصف بها الجيش المغولى الأمريكى الآن فى غزوه لبلاد المسلمين.

دور جهاز المخابرات فى الإمبراطورية المغولية:

من أسباب نجاح الإمبراطورية المغولية التى أسسها جنكيزخان وساعدت جيشه على الانتصار فى معاركه على أكبر الإمبراطوريات التى كانت تحيط به مثل الإمبراطورية الصينية والخوارزمية ثم الخلافة العباسية ودول شرق أوروبا فى زمن قياسى وجود جهاز مخابراتى بارع بحسب مقاييس عصره.

فجهاز المخابرات قديماً وحديثاً يعتمد على الحصول على معلومات هامة وحساسة عن الدول الأخرى وخاصة الأعداء منها.

وقد لعبت أجهزة المخابرات دوراً مهماً على مر العصور وعند كل الأمم والشعوب وبها ارتفعت شأن تلك الأمم منذ فجر التاريخ قبل الميلاد.

والمعلومات ومصادرها قديماً كان يتحصل على أجهزة المخابرات من الكهنة والعرافين

والسحرة والشامانين الذين يوهمون الناس بأنهم على اتصال بالآلهة والجن والنجوم ولذلك كان للكهنة فى الحضارات القديمة مثل الحضارة الفرعونية وغيرها مكانة كبيرة.

وقد سجل المؤرخون أعمال تعتبر خارقة من وجهة نظرهم قامت بها أجهزة المخابرات فى عصورها

فيذكر المؤرخ الاغريقى «هيرودوتس» أن أحد الأمراء فى العصر الاغريقى قام بإرسال رسالة سرية بطريقة غاية فى الغرابة حيث قام بقص شعر أحد العبيد لديه ثم طبع الرسالة المراد توصيلها على جلدة الرأس بطريقة الوشم.

وكان العبد ينتظر حتى ينمو شعر رأسه من جديد لتختفى الرسالة ثم ينقلها للطرف الآخر الذى يقوم بقص شعر العبد مرة أخرى ليقرأ الرسالة.

وعند الآشوريين: كان لجهاز المخابرات والتجسس أهمية كبيرة وكانت منتشرة فى جميع أنحاء الامبراطورية الآشورية وفى مدن الأعداء فى زمن «سرجون الثانى سنة ٧٢٢-٧٠٥ ق.م» وكان يطلق عليهم باسم المستطلعين أو الجنود المستكشفين أو قناصة الاستطلاع، وهؤلاء كانوا موزعين فى مناطق الأعداء وكان يرأس الاستخبارات الآشورية حاكم إحدى المقاطعات أو ممثلون عن الملك وكانوا دائماً على اتصال مع قادة الجيش لتلقى الأوامر والتعليمات وقد استخدموا فى حالة الحرب، والسلم.

وكانوا حريصين أشد الحرص والكتمان على توفير الأمن لقطاعاتهم العسكرية، وتجميع أكبر عدد من المعلومات الممكنة عن الأعداء لكى تساعدهم على تجنب المخاطر ويرسم الخطط العسكرية.

وكان المخبرون الآشوريون يحملون رسائل حساسة بين الملوك وحكامهم، وكانوا من الأشخاص الموثوق بهم إلى درجة عالية إلا أنه يجب أن يكون أميناً وشجاعاً ومخلصاً.

وكانوا مدربين على نقل الرسائل العسكرية بين قادة الشعوب وعدم تزوير الرسالة أثناء نقلها، عمد الملوك الآشوريون إلى ختم رسائلهم بالخاتم الملكى الخاص.

وفى بعض الأحيان يغلفون رسائلهم بأغلفة وطنية لكى لا يتمكن شخص من قراءتها وأحياناً كان المخبرون يحملون نص الرسالة، حيث يحفظونها وينقلونها شفوياً وذلك للحفاظ على سرية المعلومات فى حالة وقوعهم فى أيدى الأعداء.

وعند المغول «إمبراطورية جنكيز خان» برع ضباط المخابرات فى إثارة الذعر فى أعدائهم بما يسمى الحرب النفسية الآن، فلقد استخدم المغول الجاسوسية للحصول على المعلومات اللازمة لشن حملاتهم كما لجأوا إلى الشائعات وغيرها من وسائل المبالغة لتجسيم عدد قواتهم وقوة جنودهم، يمكن أن يظن أعداؤهم ما داموا ينتفضون من الخوف والرعب، وقوة خيالة المغول الضاربة هى عبارة عن جحافل لا حصر لها.

لأن عملاء المغول كانوا يهمسون بمثل هذه القصة فى الطرقات وقد استخدم جنكيزخان جواسيس العدو كوسيلة لإرهاب جنود العدو أنفسهم عندما كان يستميل جواسيس العدو إلى جانبه وكان يلقنهم الشائعات التى يشنونها بين قواتهم.

فقد اطلق خلية نحل على ملك خوارزم وجعله يعيش دوامة من الاضطرابات وجعل الجواسيس الذين بعث بهم إلى ملك الخوارزم لرؤية قوات وتعداد جيش جنكيزخان مما يصفون له، أنهم شجعان لهم مظهر المصارعين لا يستنشقون شيئاً إلا رائحة الحرب والدماء، ويبدون تشوقاً إلى القتال، لا يستطيع أى قائد السيطرة عليهم وتهدئتهم.

ومع هذه الوحشية التى يبدون فيها فإنهم يجيدون الضبط والنظام ويطيعون قائدهم طاعة عمياء ويدينون بالولاء لأميرهم ويقنعون بما يصل إليهم من طعام وكانوا يختارون الوحوش ليأكلوها ومع أنهم مسلمون فلم يكن من الصعب أن يستعيضوا لوناً من الغذاء عن لون آخر فهم لا يأكلون لحم الخنزير بل إنهم يأكلون الذئاب والدببة والكلاب عندما لا يكون هناك أى نوع من اللحوم فإن قوات جنكيزخان تبدو كالجراد من المستحيل حصرها أو إحصاؤها حتى ظن الناس أنهم يأكلون لحوم البشر!!

وهكذا لعبت المخابرات دوراً مهماً فى المعارك التى خاضها المغول فى حروبهم مع أعدائهم.



هولاكو خان واستكمال مسيرة الجد

هولاكو خان «١٢١٧ - ١٢٦٥م» هو حفيد جنكيزخان وأخو أريغ بغا وكوبلاى خان ومونكو خان وهو أول خانات فارس.

ولد هولاكو لأبيه تولوى خان «أصغر أبناء حنكيزخان» وأمه سرخقتانى بكى التى كانت من إحدى القبائل الترك التى كانت تعتنق المذهب النسطورى من الديانة النصرانية فى منغوليا.

فكانت والدته نصرانية نسطورية، وكذلك زوجته «دوقوز خاتون» وهى حفيدة طغرل خان ملك قبائل الكيرايت التركية، الذى كان ملك الصين قد لقبه بوانغ خان، وأقرب صديق له كتبغا.

كان هولاكو شديد الولع بالحضارة الفارسية وثقافتها فكان أول خان بلاد فارس، ومؤسس عهد الخانات فيها، وكان العديد من معاونيه ومستشاريه من الفرس ومن المسلمين الأتراك أيضاً.

أُرسل من قبل أخيه «مونكو خان» عام ١٢٥٥ لاكمال ثلاث مهمات فى جنوب غرب آسيا.

أولاً: لاخضاع قبيلة اللر - فى جنوب إيران، مع ما يسمى لرستان.

ثانياً: القضاء على طائفة الحشاشين.

وثالثاً: اخضاع الخلافة العباسية فى بغداد والدولة الأيوبية فى الشام ودولة المماليك البحرية فى مصر.

وأمره أخو مونكو خان أن يعامل الذين يستسلمون له برحمة وأن ينكل بمن لم يستسلموا وذلك كعادة المغول منذ عصر «جنكيزخان».

وسار هولاكو مع أكبر جيش مغولى تم تجهيزه على الإطلاق، واستطاع أن يخضع قبيلة اللر بسهولة، ومن خلال سمعته الرهيبة استطاع أن يجعل الحشاشين يستسلمون

من أسباب نجاح الإمبراطورية المغولية التى أسسها جنكيزخان وساعدت جيشه على الانتصار فى معاركه على أكبر الإمبراطوريات التى كانت تحيط به مثل الإمبراطورية الصينية والخوارزمية ثم الخلافة العباسية ودول شرق أوروبا فى زمن قياسى وجود جهاز مخابراتى بارع بحسب مقاييس عصره.

فجهاز المخابرات قديماً وحديثاً يعتمد على الحصول على معلومات هامة وحساسة عن الدول الأخرى وخاصة الأعداء منها.

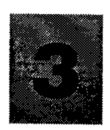
وقد لعبت أجهزة المخابرات دوراً مهماً على مر العصور وعند كل الأمم والشعوب وبها ارتفعت شأن تلك الأمم منذ فجر التاريخ قبل الميلاد.

والمعلومات ومصادرها قديماً كان يتحصل على أجهزة المخابرات من الكهنة والعرافين

الغزو المغولى للعالم الإسلامى

وتشابهه مع الغزو الأمريكى المغولى حديثاً

- جنكيزخان وغزو العالم الإسلامى.
- البداية غزو الدولة الخوارزمية المسلمة وسقوطها فى أيدى حنكيزخان.
- أسباب الغزو المغولى للدولة الخوارزمية هى نفسها أسباب الغزو التتارى الأمريكى الحديث.
- البداية للغزو المغولى للأمة الإسلامية كان احتلال أفغانستان.



جنكيزخان وغزو العالم الإسلامى

قرر جنكيزخان غزو العالم كله فكان لابد له أن يبدأ فى غزو البلاد المجاورة له وهى الدولة الخوارزمية المسلمة، ثم يتجه بعدها إلى باقى العالم الإسلامى والقارة الأوروبية، وقد فعل التتار ذلك فى عهد ملوكهم قبل الميلاد وبعده حين كانوا يخرجون على العالم كله(١).

ولكبر المسافة بين الصين والعراق لابد من وجود قواعد إمداد ثابتة للجيوش التترية فى منطقة متوسطة بين العراق والصين فكان لابد من الاستيلاء على منطقة أفغانستان وأوزبكستان وهى منطقة «القوقاز» لكونها غنية بالثروات الزراعية والاقتصادية فى هذه الأثناء.

وهذا ما فعله التتار الجدد فى القرن الواحد والعشرين حين أرادوا غزو العراق والعالم الإسلامى.

وتكتيكياً لا يستطيع جنكيزخان أن يحارب العراق وفى ظهره شعوب مسلمة قد تحاربه أو تقطع عليه خطوط الإمداد، رغم تفكك العالم الإسلامى كما هو حاله الآن.

ولهذه الأسباب قرر جنكيزخان خوض حروب متتالية مع هذه المنطقة الشرقية من الدول الإسلامية والتى تعرف بالدولة «الخوارزمية» والتى تضم فى طياتها عدة أقاليم إسلامية غاية فى الأهمية.

وكان هناك بين الدول الخوارزمية ودولة التتار المغول معاهدات واتفاقيات على عدم الاعتداء من أى من الدولتين على الأخرى.

أسباب قيام الحرب بين جنكيزخان والسلطان الخوارزمى:

حدث أمر مفاجئ بغير إعداد مسبق من جنكيزخان لا يصلح لأن يكون سبباً لهذه الحرب لكن جنكيزخان اتخذه ذريعة لدخول هذه الحرب التى ستقضى تماماً على الدولة

(١) اقرأ كتابنا «يأجوج ومأجوج من الوجود إلى الفناء» الناشر دارالكتاب العربى.

الخوارزمية.

وهذا السبب هو أن مجموعة من التجار المغول المسلمين ذهبوا إلى مدينة إسلامية تسمى «أوترار» وهى تقع فى شرق المملكة الخوارزمية على حدود دولة المغول فلما رآهم حاكم المدينة المسلم أمر بقتلهم جميعاً، وقد اختلف المؤرخون فى أسباب قيام حاكم المدينة ونائب السلطان الخوارزمى فى قتل هؤلاء التجار المغول المسلمين أيضاً رغم وجود معاهدة تجارية بين الدولتين وهذا يخالف تعاليم الإسلام.

منهم من قال إن هؤلاء ما كانوا إلا جواسيس أرسلهم جنكيزخان للتجسس على الدولة الخوارزمية أو لاستفزازها ولذلك قتلهم حاكم المدينة.

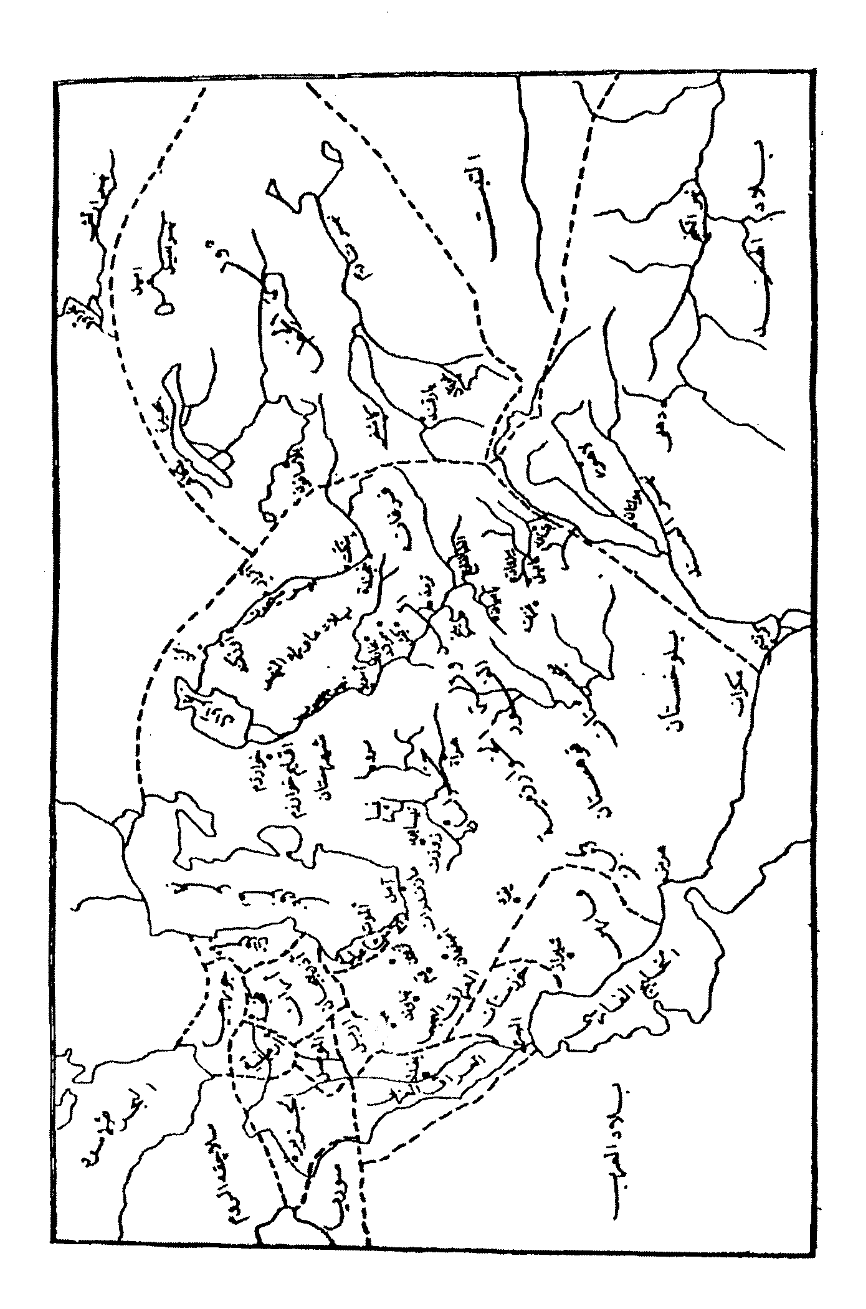
ومنهم من قال: إن هذا كان عمداً من حاكم «أوترار» كنوع من الرد على ما قام به المغول فى بلاد ما وراء النهر وهى بلاد تابعة للخوارزميين من عمليات السلب والنهب لتلك المدن.

ومنهم من قال: إن هذا كان فعلاً متعمداً من حاكم «أوترار» بغرض الاستيلاء على ما معهم من أموال وتجارة لنفسه.

ومنهم من قال: إن جنكيزخان أرسل بعضاً من رجاله إلى أرض المسلمين ليقتلوا هؤلاء التجار المغول المسلمين لايجاد مبررات لغزو بلاد الخوارزميين وهذا الاحتمال مستبعد لأن الشاه الخوارزمى لم يرد على رسالة جنكيزخان فيما بعد بالإنكار وإنما قتل رسله معلناً بذلك الحرب.

ومهما كانت الأسباب فإن الملك الخوارزمى محمد قد أخطأ فى الرد على جنكيزخان الذى طالبه بتسليم القاتل الذى كان نائب السلطان وحاكم المدينة وابن عمه فقام بقتل رسل جنكيزخان وهذا يعد إعلاناً للحرب من جهته عليه وكانت هى الشرارة الحقيقية الأولى فى حرب جنكيزخان عليه وتدمير إمبراطورية إسلامية كبيرة ومحوها من على خارطة العالم وموت السلطان الخوارزمى نفسه وهو يفر من أمام جيش المغول الذى ظل يطارده حتى مماته.

ولم يستطع ابنه جلال الدين من إعادة ملك أبيه وتحرير بلاده وكان سقوط الإمبراطورية الخوارزمية البداية لغزو المغول التتار باقى الدول الإسلامية والعربية فى القارة الآسيوية.



الدولة الخوارزمية قبل الغزو المغولى

البداية غزو الدولة الخوارزمية المسلمة وسقوطها فى أيدى جنكيزخان:

جاء جنكيزخان بجيشه الكبير لغزو بلاد الخوارزميين فخرج له السلطان الخوارزمى وذلك فى عام ٦١٦هـ وذلك بعد ثلاثة عشر عاماً فقط من قيام دولة المغول والتقى الجيشان فى موقعة رهيبة فى شرق الدولة الخوارزمية شرق نهر «سيحون» وهو ما يعرف الآن باسم نهر «سريداريا» فى دولة كازخستان المسلمة واستمرت المعركة لمدة أربعة أيام متصلة وقتل من الفريقين خلق كثيرون فاستشهد من المسلمين فى هذه الموقعة عشرون ألفاً وقتل من التتار أضعاف ذلك.

ثم تحاجز الفريقان بعدها وانسحب السلطان محمد الخوارزمى بجيشه من أرض المعركة لأنه وجد أن أعداد الجيش المغولى هائلة ولا قبل له بها فانسحب ليحصن المدن الكبرى فى مملكته وعلى رأسها العاصمة.

وانشغل فى تحضير وتجهيز الجيوش من أطراف مملكته إلا أنه ترك الجزء الشرقى من مملكته بدون حماية كافية، ولكن هذا الخطأ لم يكن بمثابة خطأ تكتيكى من محمد ابن خوارزم ولكن كان خطأ قلبى فقد اهتم بتأمين نفسه وأملاكه وأمواله وأسرته وتهاون فى تأمين شعبه فحافظ على كنوزه وكنوز آبائه ولكنه أهمل تماماً الحفاظ على مقدرات وأملاك شعبه.

ومثل هؤلاء الزعماء لا يصمدون كثيراً أمام الجيوش الكبيرة التى هدفها القتل والتدمير واحتلال البلاد الأخرى.

واستكمل جنكيزخان غزوه لمدن الإمبراطورية الخوارزمية فبدأ بمدينة بخارى وجهز جنكيزخان جيشه من جديد وأسرع فى اختراق كل إقليم كازاخستان الكبير فمساحته تبلغ حوالى «٣ مليون كم» تقريباً، فقطع كل اقليم كازاخستان دون مقاومة تذكر حتى وصل إلى مدينة «بخارى» المسلمة وهى بلدة الإمام البخارى - رحمه الله[1] - وهى تقع الآن فى دولة أوزبكستان، فحاصرها جنكيزخان فى سنة ٦١٦ ثم طلب من أهلها التسليم على أن يعطيهم الأمان، وكان السلطان الخوارزمى وقتها بعيداً عن بخارى.

(١) الإمام البخارى هو صاحب أول جامع للأحاديث النبوية الصحيحة والمسمى بصحيح البخارى والذى تلقته الأمة بالقبول ويعد أصح كتاب بعد كتاب الله عز وجل.

فتشاور أهل المدينة فيما بينهم، هل يقاتلون المغول أم يستسلمون لهم كى ينجوا بأنفسهم كما وعدهم جنكيزخان؟

وانقسم أهل البلاد إلى فريقين، فريق من المجاهدين قرر القتال وهؤلاء اعتصموا القلعة الكبيرة بالمدينة وانضم إليهم فقهاء المدينة وعلماؤها، وفريق آخر من المستسلمين، وهذا هو الفريق الأعظم والأغلب فى هذه المدينة وقرروا فعلا فتح أبواب المدينة والاعتماد على الأمان الذى وعدهم به جنكيزخان ففتحوا أبواب المدينة للتتار ودخل جنكيزخان المدينة الكبيرة وأعطى أهلها الأمان فعلاً فى أول الأمر خديعة لهم وذلك حتى يتمكن من السيطرة على المجاهدين بالقلعة الكبيرة فى داخل المدينة.

وبدأ فى حصار القلعة بل وأمر أهل المدينة من المسلمين أن يساعدوه فى ردم الخنادق حول القلعة ليسهل فتحها وبالفعل أطاعوه فى ذلك الأمر دون تردد خوفاً منه.

وهكذا حوصرت القلعة عشرة أيام ثم فتحت عنوة ولما دخلها جنكيزخان قتل كل من فى القلعة من المجاهدين ولم يبق بالمدينة مجاهدين، وهنا بدأ جنكيزخان فى خيانة عهده فسأل أهل المدينة عن كنوزها وأموالها واصطفى كل ذلك لنفسه.

ثم أحل المدينة لجنوده ففعلوا فيها ما لا يتخيله عقل.

وقال ابن كثير فى كتابه «البداية والنهاية» عن هذا المشهد: فقتلوا من أهلها خلقاً لا يعلمه إلا الله عز وجل - وأسروا الذرية والنساء وفعلوا مع النساء الفواحش بحضرة أهلهن فارتكبوا الزنا مع البنت فى حضرة أبيها ومع الزوجة فى حضرة زوجها فمن المسلمين من قاتل دون حريمه حتى قتل ومنهم من أسر فعذب بأنواع العذاب وكثر البكاء والضجيج فى البلد من النساء والأطفال والرجال ثم أشعل النار فى دور بخارى ومدارسها ومساجدها فاحترقت المدينة تماماً حتى صارت خاوية على عروشها[1].

وكان سقوط بخارى البداية لنهاية إمبراطورية إسلامية كبيرة، وبداية غزو مغولى كاسح استمر لمدة قرن من الزمان حتى وصل البلاد الشامية.

وهذا ما يريده أيضاً المغول الجدد الآن حيث قاموا فى البداية بغزو أفغانستان ثم العراق والبقية تأتى حسب ما يخططون لكن الله من ورائهم محيط.

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير أحداث عام ٦١٦هـ.

وما حدث فى مدينة «بخارى» من قتل وتدمير استباحة الحرمات تكرر فى معظم المدن التى غزاها المغول قديماً وحديثاً أيضاً.

وقال ابن الأثير: لقد بقيت عدة سنوات معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكراها فأنا أقدم إليه رجلاً وأواخر أخرى فمن ذا الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك فياليت أمى لم تلدنى ويا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً إلا أنه حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطير هذا ثم رأيت أن ترك هذا لن يجدى نفعاً[١].

وأضاف: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عقمت الأيام والليالى عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين ولو قال قائل: «إن العالم منذ خلق الله - سبحانه وتعالى - آدم إلى الآن لم يبتلى بمثلها» لكان صادقاً فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله «بختنصر» ببنى إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس.

وما البيت المقدس إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التى كانت المدينة منها أضعاف البيت المقدس وما بنو إسرائيل إلى من قتلوا فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى إسرائيل كلهم.

ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادث إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج، وأما الدجال فإنه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه أما هؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والأطفال والرجال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة فى بطون أمهاتهن - فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم»[٢].

وفى العام ٦١٧هـ قام جنكيزخان باستكمال غزوه لبلاد الخوارزميين فقام بغزو مدينة «سمرقند» وهى من مدن أوزبكستان الآن، وأخذوا معهم أسرى المسلمين ممن بقى من أهل بخارى يحاربون معهم قسراً.

وقال ابن الاثير: فساروا بهم على أقبح صورة فكل من أعيا وعجز عن المشى قتل.

---

(١) انظر الكامل فى التاريخ لابن الأثير.

(٢) المصدر السابق، وكان ابن الأثير من المعاصرين لتلك الأحداث ودونها فى كتابه الموسوعة.

وكان الهدف من اصطحاب هؤلاء الأسرى هو استخدامهم فى الحرب وهذه كانت سنة من سنن المغول فى كل تنقل لهم من مدينة إلى مدينة، حتى يكون هؤلاء الأسرى فى المقدمة فيقتلون على أيدى إخوانهم المسلمين ثم يتقدم الجنود المغول من ورائهم.

فكانوا يعطون كل عشرة أسرى علماً من أعلام التتار ليرفعوه فإذا رآهم أحد من بعيد ظن أن المجموع كله من المغول فتكثر الأعداد فى أعين أعدائهم بشكل لا يتخيل فلا يعتقدون مطلقاً أنهم يقدرون على قتالهم فيستسلمون.

وكانوا يجبرون الأسرى على أن يقاتلوا معهم ضد أعدائهم، ومن رفض القتال أو لم يظهر فيه بأس فى القتال قاموا بقتله.

وكانوا يتترسون بهم عند لقاء المسلمين فيضعون الأسرى فى أول الصفوف كالدروع ويختبئون خلفهم فإذا اطلق العدو السهام على جيش التتار دخلت السهام فى صدور الأسرى المسلمين والتتار يطلقون سهامهم من خلف صفوف الأسرى المسلمين.

وكذلك كانوا يقتلونهم على أبواب المدن لبث الرعب فى قلوب أعدائهم وإعلامهم أن هذا هو المصير الذى ينتظرهم إذا قاوموهم فيستسلمون من فورهم.

وأخيراً كانوا يبادلون بهم الأسرى فى حال أسر رجال منهم فى القتال، تلك هى سياسة المغول العسكرية فى حروبهم مع أعدائهم.

ونعود لسمرقند التى كانت مدينة من حواضر الإسلام ومن أغنى مدن المسلمين فى ذلك الوقت ولها قلاع حصينة وأسوار عالية ولهذه القيمة الاستراتيجية والاقتصادية الكبيرة وقد ترك فيها السلطان الخوارزمى خمسين ألف جندى خوارزمى لحمايتها، هذا بالإضافة إلى أهلها الذين يقدرون بمئات الآلاف.

فماذا فعل هؤلاء مع الاجتياح المغولى التترى البربرى؟!

تروى كتب التاريخ أن جنكيزخان حين وصل إلى المدينة حاصرها من كل الجهات وكان من المفترض أن يخرج إليه الجيش الخوارزمى النظامى، ولكن الرعب دب فى قلوب الجيش المسلم وتعلقوا بالحياة فأبوا أن يخرجوا للدفاع عن المدينة المسلمة.

واجتمع أهل المدينة وتباحثوا فى الأمر ففشلوا تماماً فى إقناع الجش الخوارزمى فى

الخروج للدفاع عنهم، فقرر البعض من العامة أن يخرجوا فخرج سبعون ألفا من أهل

المدينة وخرج معهم أهل العلم والفقهاء خرجوا جميعاً على أرجلهم دون خيول ولا دواب ولم يكن لديهم خبرة عسكرية تمكنهم من القتال.

فلما رأى المغول أهل «سمرقند» يخرجون إليهم فقرروا القيام بخدعة وهى الانسحاب المتدرج من حول الأسوار فى محاولة لسحب المجاهدين بعيداً عن مدينتهم وكانت تلك الخدعة ن أنجح خطط المغول العسكرية.

بدأوا فى التراجع تدريجياً عن «سمرقند» وقد نصبوا الكمائن خلفهم وبالفعل نجحت خطة التتار وطمع المسلمون فيهم حتى ابتعدوا تماماً عن أسوار المدينة.

فأحاط بهم جيش المغول وبدأت عملية تصفية لأفضل رجال «سمرقند» فقتل السبعون ألف مقاتل عن آخرهم.

وبعد إفناء الجيش المسلم عاد التتار إلى حصار المدينة مرة أخرى، فأخذ الجيش الخوارزمى قراراً مخزياً وهو طلب الأمان من التتار على أن يفتحوا لهم أبواب المدينة دون مجهود، فوافق التتار على إعطاء الأمان لهم، ففتح الجيش الخوارزمى الأبواب وخرجوا مستسلمين.

فقالوا لهم: سلموا إلينا أموالكم وسلاحكم ودوابكم ونحن نسيركم إلى مأمنكم.

ففعلوا ما أمروهم به فلما أخذوا أسلحتهم ودوابهم وضعوا السيف فى الجنود الخوارزميين حتى أفنوهم عن آخرهم.

ودخل التتار المدينة وفعلوا بها مثلما فعلوا فى بخارى فقتلوا أعداداً لا تحصى من الرجال والنساء والأطفال ونهبوا كل ثروات البلد وانتهكوا حرمات النساء، وعذبوا الناس بأنواع العذاب المختلفة بحثاً عن أموالهم وسبوا أعداد هائلة من النساء والأطفال.

ومن لم يصلح للسبى لكبر سنه أو لضعف جسده قتلوه، وأحرقوا الجامع الكبير بالمدينة وتركوها خراباً، واستقر بعد ذلك جنكيزخان فى «سمرقند» لأعجابه بتلك المدينة العملاقة التى لم ير مثلها فى حياته قبل ذلك.

وهكذا ترك السلطان الخوارزمى ثانى أكبر مدن دولته تسقط بسهولة فى أيدى

المغول وفر هارباً بما لديه من مال حتى أن أسرته وقعت فى أيدى المغول بعد ذلك ومات هو وحيداً فقيراً.

فقد أرسل جنكيزخان عشرين ألفا من فرسانه يطلبون محمد بن خوارزم فقال لهم جنكيزخان اطلبوا خوارزم شاه أينما كان ولو تعلق بالسماء.

وصلت تلك الفرقة المغولية إلى منطقة قريبة من مدينة «نيسابور» فى فترة وجيزة فلم يتمكن محمد بن خوارزم من جمع الأنصار والجنود، فلما علم بقربهم منه فترك «نيسابور» واتجه إلى «مازن دران» وهى مدينة تقع فى إيران حالياً.

فلما علم التتار بذلك لم يدخلوا «نيسابور» بل جاوزوها واتجهوا خلفه مباشرة فترك «مازن دران» إلى مدينة «الرى» ثم إلى مدينة «همدان» والتتار فى أثره.

ثم عاد إلى مدينة «مازن دران» مرة أخرى ثم اتجه بعد ذلك إلى مدينة «طبرستان» وهى مدينة على ساحل بحر «الخذف» وهو ما يعرف ببحر «قزوين» حالياً فوجد سفينة ركب فيها وهربت به فى عمق البحر.

ووقف المغول على ساحل البحر ولم يجدوا ما يركبونه خلفه، فنجحت خطة محمد بن خوارزم فى فراره إلى جزيرة فى وسط بحر قزوين وهناك رضى بالبقاء فى قلعة قديمة كانت فى هذه الجزيرة.

وعاش فى فقر شديد وحياة صعبة وهو الملك الذى ملك بلاداً كبيرة وأموالاً لا تحصى، ولكن رضى بذلك لكى يفر من الموت لكن ما هى إلا أيام ومات محمد بن خوارزم شاه فى هذه الجزيرة النائية بداخل القلعة وحيداً طريداً شريداً فقيراً حتى إنهم لم يجدوا ما يكفنونه به فكفنوه فى فراشه الذى ينام عليه وكان ذلك عام ٦١٧هـ.

وانتهت حياة هذا السلطان الذى أعطى الفرصة الذهبية للمغول لغزو بلاد الإسلام بجهله بتاريخ المغول والتتار السابق وأيضاً لجهله بتعاليم الإسلام التى جاء فيها التحذير النبوى بعدم استشارة الترك الذين هم أصل المغول والتتار فقال ﷺ: «دعوا الجشة ما ودعوكم واتركوا الترك ما تركوكم»[(١)].

إضافة إلى تركه لنائبه على مدينة «أترار» بقتل التجار المغول رغم وجود معاهدة

(١) رواه أبوداود والنسائى.

واتفاق بينه وبين جنكيزخان فقام «نيال خان» حاكم «أترار» وابن عمه بقتل التجار والاستيلاء على أموالهم مما أثار غضب زعيم المغول وأتاح له الفرصة فى غزو بلاد الإسلام.

إضافة إلى أن علاقة السلطان الخوارزمى مع جيرانه المسلمين والخلافة العباسية لم تكن حسنة.

فقد كان السلطان الخوارزمى فى عداء وصراع مع الخلافة العباسية ومن قبلها مع دولة «الخطا» وأيضاً مع دولة السلاجقة المجاورة له، فما كان من كل الدول الإسلامية إلا أن تركوه يسقط وكان هذا من أكبر الأخطاء التى يقع فيها القادة والزعماء المسلمون قديماً وحديثاً حين يتركون عدوهم يفترسهم دولة بعد أخرى وكما حدث فى الأندلس فيما بعد.

وحين فشلت الفرقة المغولية فى اللحاق بالسلطان الخوارزمى قاموا بالاستيلاء على مدينة «مازن دران» بسهولة رغم صعوبة الاستيلاء عليها من الناحية العسكرية، فقد كانت الهزيمة النفسية فى نفوس أهلها نتيجة لما حدث فى «بخارى وسمرقند» أقرب من الهزيمة العسكرية.

وقام المغول بتدمير المدينة وحرقها وقتل أهلها كما فعلوا مع بخارى وسمرقند.

ثم اتجهوا إلى مدينة «الرى» وفى طريقهم إليها وجدوا والدة السلطان الخوارزمى وزوجاته ومعهم الأموال الطائلة والكنوز يحاولون الهروب، فتم أسرهم وإرسالهم إلى جنكيزخان فى سمرقند فأمر بقتل البعض وسبى حريم السلطان ووالدته.

ووصلت الفرقة المغولية فى سيرها نحو مدينة «الرى» فملكوها وفعلوا بأهلها ما فعلوا بأهل المدن الأخرى، فقتلوا نحو أربعون ألفاً من المسلمين.

ثم اتجهت الفرقة المغولية الصغيرة من مدينة «الرى» إلى غرب بحر قزوين عند إقليم «أذربيجان» المسلم.

فمر التتار فى طريقهم على مدينة «تبريز» وهى مدينة من مدن الإقليم فقرر حاكم المدينة المسلم ويدعى «أوزبك بن البهلوان» أن يصالح التتار على الأموال والثياب والدواب ولم يفكر مطلقاً فى حربهم لأنه كان لا يفيق من شرب الخمر ليلاً أو نهاراً، ورضى التتار

بذلك لأن الشتاء القارس قد دخل على تلك المنطقة وهذه المدينة فى منطقة باردة جداً.

واتجهت الفرقة المغولية إلى الساحل الغربى لبحر قزوين وبدأوا فى اجتياح الناحية الشرقية لأذربيجان متجهين ناحية الشمال، وفى طريقهم اجتاحوا كلاً من «أرمينيا» و«جورجيا».

أما مملكة أرمينيا فكان سكنها الكثير من النصارى.. ومملكة جورجيا يتجمع بها قبائل الكرج وهى قبائل نصرانية ووثنية، فحدث قتال بين التتار وبين مملكتى أرمينيا وجورجيا انتهى القتال بهزيمة المملكتين واجتياح التتار لهذه البلاد وضمها إلى الامبراطورية المغولية.



استكمال جنكيزخان غزوه لبلاد الدولة الخوارزمية

بعد أن اطمأن جنكيزخان إلى هروب محمد بن خوارزم زعيم البلاد بدأ يبسط سيطرته على المناطق المحيطة بـ «سمرقند» فوجد أن أعظم الأقاليم وأقواها فى هذه المناطق هما اقليمى «خوارزم» و«خراسان».

فإقليم «خرسان» هو إقليم شاسع به مدن كبيرة من أشهرها مدن بلخ ومرو ونيسابور وهراة وغزنة وهذا الإقليم يقع شرق دولة إيران وشمال دولة أفغانستان.

أما خوارزم فهو الإقليم الذى كان نواة الدولة الخوارزمية اشتهر بالقلاع الحصينة والمواهب القتالية وهو يقع إلى الشمال الغربى من «سمرقند» ويمر به نهر «جيحون» وهو يقع الآن فى دولتى أوزبكستان وتركمانستان.

فأراد جنكيزخان القيام بحرب معنوية تؤثر على نفسيات المسلمين قبل اجتياح هذه الأقاليم العملاقة، فقرر البدأ بعمليات إبادة وتدمير تبث الرعب فى قلوب المسلمين فى هذين الإقليمين الكبيرين فأخرج من جيشه ثلاث فرق:

فأما الفرقة الأولى: لتدمير إقليم «فرغانة» وهو يقع فى أوزبكستان حالياً يبعد حوالى ٥٠٠كم شرق «سمرقند».

والفرقة الثانية: لتدمير مدينة «ترمذ» وتبعد حوالى ١٠٠كم جنوب «سمرقند».

والفرقة الثالثة : لتدمير قلعة «قلادة» وهى من أحصن قلاع المسلمين على نهر «جيحون».

فقامت الفرق الثلاث بدورها التدميرى كما أراد جنكيزخان فاستولت على كل هذه المناطق وقامت فيها بالقتل والأسر والسبى والنهب والتخريب.

فوصلت الرسالة التترية إلى كل الشعوب المحيطة فعمت الرهبة فى أرجاء المنطقة، وعندما عادت الفرق الثلاث من مهمتها بدأ جنكيزخان يعد للمهمة التالية وهى اجتياح إقليمى «خرسان وخوارزم»وهذا ما تم بالفعل له، وكعادة المغول أخذوا المسلمين الأسرى ضمن جيوشهم لغزو باقى المدن المسلمة الأخرى قهراً.

فأهل مدينة «بلخ» التى تقع فى شمال أفغانستان حالياً أصيبوا بالرعب الشديد من المغول بعد سمعوا الأخبار السيئة وما حدث لمدينة «ترمذ» و«بلخ» فطلبوا من المغول الأمان وسلموا لهم المدينة، بل وأخذهم المغول ليعاونوهم فى غزو مدينة «مرو» المسلمة فساوا معهم مرغمين.

الاستيلاء على مدينة «مرو»:

قاد أبناء جنكيزخان جيشه ومعهم أسرى المسلمين كمحاربين لفتح مدينة «مرو» التى تقع حالياً فى دولة «تركمانستان» المسلمة على بعد حوالى ٢٥٠كم شرق مدينة «بلخ» الأفغانية وعلى أبواب «مرو» وجد المغول المسلمين قد جمعوا لهم خارج المدينة جيشاً يزيد على مائتى ألف مسلم فدارت موقعة رهيبة بين الطرفين على أبواب المدينة ودارت الدائرة على المسلمين وانطلق التتار يذبحون فى الجيش المسلم حتى قتلوا معظمه وأسروا الباقى، ولم يسلم إلا القليل ونهبوا الأموال والأسلحة والدواب من الجيش.

قال ابن الاثير: فلما وصلت التتار إليهم التقوا واقتتلوا فصبر المسلمون ولكن التتار لا يعرفون الهزيمة، فهزم المسلمون وفتح الطريق إلى المدينة ذات الأسوار العظيمة وكان بها من السكان ما يزيد على سبعمائة ألف مسلم من الرجال والنساء والأطفال.

فحاصر التتار المدينة ودب الرعب فى قلوب أهلها بعد أن فنى جيشهم أمام أعينهم.

ولم يفتح أهل «مرو» الأبواب للتتار لمدة أربعة أيام ولكن فى اليوم الخامس أرسل قائد التتار رسالة إلى قائد مدينة «مرو» يقول فيها: «لا تهلك نفسك وأهل البلد واخرج إلينا نجعلك أمير هذه البلد ونرحل عنها».

فصدق أمير المدينة ما قاله القائد التترى وخرج إليه فاستقبله القائد التترى استقبالاً حافلاً واحترمه وقربه، ثم قال له أخرج لنا أصحابك والمقربين ورؤساء القوم

حتى ننظر من يصلح لخدمتنا فنعطيه العطايا ونقطع له الإقطاعيات ويكون معنا.

فأرسل الأمير المخدوع إلى معاونيه وكبار وزرائه وجنده لحضور الاجتماع المهم مع ابن جنكيزخان، فلما تمكن منهم التتار قبضوا عليهم جميعاً وقيدوهم بالحبال ثم طلبوا منهم أن يكتبوا قائمتين طويلتين.. القائمة الأولى: تضم أسماء كبار التجار وأصحاب الأموال فى المدينة.. والقائمة الثانية: أسماء أصحاب الحرف والصناع المهرة.

ثم أمر ابن جنكيزخان أن يأتى التتار بأهل المدينة أجمعين، فخرج كل أهل المدينة حتى لم يعد بالمدينة أحد قط، ثم جاءوا بكرسى من ذهب وجلس عليه ابن جنكيزخان وبدأ يصدر الأوامر بإخراج أصحاب الحرف والصناع المهرة وإرسالهم إلى منغوليا للاستفادة من خبراتهم الصناعية هناك.

وإخراج أصحاب الأموال وتعذيبهم حتى يخبروا عن أموالهم ففعلوا ذلك ومنهم من كان يموت من شدة الضرب ولا يجد ما يكفى لفداء نفسه.

وجاءوا بأمير البلاد وكبار القادة ورؤساء القوم فيقتلون جميعاً أمام عامة أهل المدينة.

ثم دخلوا المدينة وفتشوا البيوت بحثاً عن المتاع والذهب والفضة، حتى أنهم نبشوا قبر السلطان «سنجر» أحد سلاطين خوارزم القدامى واستمر هذا البحث لمدة ثلاثة أيام.

ثم أمر ابن جنكيزخان أن يقتل أهل البلد أجمعين فأخذوا يقتلون كل أهل «مرو» فقالوا إن المدينة عصت علينا وقاومت ومن قاوم فهذا مصيره.

ويقول ابن الأثير فى ذكر ذلك: وأمر ابن جنكيزخان بعد أن قتلوا جميعاً أن يقوم التتار بإحصاء القتلى فكانوا نحو من سبعمائة ألف قتيل ففنيت مدينة «مرو» عن آخرها واختفى ذكرها من التاريخ مثل المدن السابقة.

الاستيلاء على مدينة «نيسابور»:

ثم جاوز مدينة «مرو» إلى مدينة «نيسابور» وهى مدينة كبيرة من مدن إقليم خرسان(١) فاتجه الجيش المغولى بعد أن تركوا خلفهم مدينة «مرو» وقد خربت تماماً

فحاصروها خمسة أيام ومع أنه كان يوجد بالمدينة جمع كبير من الجنود المسلمين إلا أن أخبار «مرو» وصلت إليهم فدب الرعب والهلع فى أوساط المسلمين فما استطاعوا أن يقاوموا فدخلها المغول وأخرجوا كل أهلها إلى الصحراء وجاء من أخبر ابن جنكيزخان أن بعضاً من سكان «مرو» قد سلم من القتل لأنهم ضربوا بالسيوف ضربات غير قاتلة فظن التتار أنهم قد ماتوا فتركوهم فهربوا، لذلك فى «نيسابور» أمر ابن جنكيزخان بقتل كل من رجال المدينة بلا استثناء وأن تقطع رؤوسهم لكى يتأكدوا من قتلهم، ثم قاموا بسبى كل نساء المدينة وأقاموا بالمدينة خمسة عشر يوماً يبحثون فى الديار بحثاً عن الأموال والنفائس ثم تركوها كما يقول ابن الاثير: «أثراً بعد عين».

الاستيلاء على مدينة «هراة»:

ثم اتجهوا إلى «هراة» فى شمال أفغانستان فتوجه إليه ابن جنكيزخان بقواته المهولة ولم تسلم «هراة» من المصير الذى واجهته «مرو» و«نيسابور» فقتل كل من فيها من الرجال وسبى كل النساء وخرجت المدينة كلها وأحرقت عن آخرها لكن أمير هذه المدينة وكان يدعى «ملك خان» استطاع الهروب بفرقة من جيشه فى اتجاه «غزنة» فى أفغانستان بعيداً عن أرض القتال.

بسقوط «هراة» يكون إقليم خرسان بكامله قد سقط فى أيدى التتار ولم يبقوا فيه على مدينة واحدة كل هذه الأحداث تمت فى عام ٦١٧هـ.

الاستيلاء على مدينة «خوارزم» عام ٦١٧هـ:

مدينة «خوارزم» مركز الخوارزميين وبها تجمع كبير من المسلمين وحصونها من أشد حصون المسلمين بأساً وقوة[٢] وتقع مباشرة على نهر «جيحون» وكانت تمثل للمسلمين أهمية استراتيجية واقتصادية كبيرة.

ولأهميتها الكبيرة وجه إليها جنكيزخان أعظم جيوشه وأكبرها، فقام هذا الجيش بحصار المدينة خمسة أشهر كاملة ولم يتم له الفتح فطلبوا المدد من جنكيزخان فأمدهم بجند كثير وزحفوا على المدينة زحفاً متتابعاً وضغطوا عليها من جميع الجهات حتى

(١) وتقع الآن فى الشمال الغربى لجمهورية إيران.

(٢) تقع حالياً على الحدود بين أوزبكستان وتركمانستان.

استطاعوا أن يحدثوا ثغرة فى الأسوار ودخلوا المدينة ودار قتال رهيب بين التتار والمسلمين داخل المدينة وفنى من الفريقين خلق كثير إلا أن السيطرة الميدانية كانت للمغول ثم تدفقت على المدينة جموع كثيرة من التتار فحلت الهزيمة الساحقة بالمسملنى.

وبدأ المسلمون فى الهروب والاختفاء فى السراديب والخنادق والديار، فقام المغول بهدم سد ضخم كان مبنياً على نهر «جيحون» ليمنع المياه من المدينة ثم أطلقوا طوفان من المياه الغزيرة على «خوارزم» فأغرقت المدينة بكاملها حتى إن الماء دخل السراديب والخنادق والديار وتهدمت ديار المدينة بفعل الطوفان الهائل، ولم يسلم من خوارزم أحد.

وأصبحت المدينة العظيمة خراباً وتركها التتار وقد اختفت تماماً من على وجه الأرض وأصبح مكانها ماء نهر «جيحون».

وهذا كما قال ابن الأثير: ما لم يسمع به فى قديم الزمان وحديثه اللهم إلا ما حدث مع قوم نوح عليه السلام(١).

بتدمير إقليمى خراسان وخوارزم يكون التتار قد سيطروا على المناطق الشمالية والوسطى من دولة الإمبراطورية الخوارزمية ووصلوا فى تقدمهم إلى الغرب على مقربة كبيرة من نهاية هذه الدولة على حدود العراق وهو مقر الخلافة الإسلامية، ولم يبق إلا المدن الجنوبية للدولة الخوارزمية التى كان يسيطر عليها السلطان جلال الدين بن السلطان الراحل محمد الخوارزمى وقد تجمع حوله من فر من هجوم المغول، وكانت مدن الدولة الخوارزمية الجنوبية يشمل وسط وجنوب أفغانستان وباكستان وكان يفصل بينه وبين الهند نهر السند.

وكان جلال اندين يتخذ من مدينة «غزنة» مقراً له(٢) وهى مدينة حصينة تقع وسط جبال «باروجاميزوس» الأفغانية.

قتال السلطان جلال الدين والجيش المغولى والانتصار عليه فى موقعة «غزنة»:

خطط جلال الدين فى الدفاع عن وسط أفغانستان وجنوبها فهذا ما تبقى له من دولة أبيه.

---

(١) أنظر الكامل فى التاريخ - مصدر سابق.

(٢) وهى حالياً تقع فى دولة أفغانستان على بعد ١٥٠كم من العاصمة كابول.

فوجه جنكيزخان إلى «غزنة» وهى عاصمة ملك جلال الدين جيشاً كثيفاً من التتار، وبدأ جلال الدين بعد أن أصبح ملكاً على البلاد وبعد أن وصلته أخبار ما حدث فى شمال ووسط مملكة أبيه وما حدث لأبيه وكيف مات منعزلاً فقيراً فى جزيرة نائية.

فجمع جيشاً كبيراً من بلاده وانضم إليه أحد ملوك الأتراك المسلمين كان يدعى سيف الدين بغراق وكان شجاعاً مقداماً صاحب رأى ومكيدة وحرب وكان معه ثلاثون ألف جندى ثم انضم إليه أيضاً ستون ألفاً من الجنود الخوارزمية الذين فروا من التتار أثناء غزوهم المدن الخوارزمية ثم انضم إليه أيضاً ملك خان وأمير هراة الذى فر منها بفرقة من جيشه فبلغ جيش جلال الدين عدداً كبيراً.

فخرج بهذا الجيش إلى منطقة بجوار غزنة تدعى «بلق» وهى منطقة ذات طبيعة جبلية وعرة تقع وسط الجبال العالية الضخمة وانتظر جيش المغول هناك فى ذلك المكان الحصين، وبعد قليل دار بين الجيشين معركة من أشرس المعارك فى هذه المنطقة وقاتل المسلمون قتال المستميت فهذه أطراف المملكة الخوارزمية فلو هزموا فى هذه الموقعة فليس بعدها أملاك، فكان لحمية المسلمين ولصعوبة الأرض والطبيعة الجبلية وكثرة أعداد المسلمين وشجاعة الفرقة التركية بقيادة سيف الدين بغراق والقيادة الميدانية لجلال الدين أثراً واضحاً فى ثبات المسلمين أمام جحافل المغول التتر.

فاستمرت المعركة ثلاثة أيام، ثم أنزل الله - عز وجل - نصره على المسلمين وانهزم المغول التتار هزيمة منكرة للمرة الأولى أمام المسلمين وكثر فيهم القتلى والأسرى وفر الباقون منهم إلى ملكهم جنكيزخان وكان فى ذلك الوقت قد ترك سمرقند وتمركز فى منطقة الطالقان فى شمال شرق أفغانستان.

وارتفعت معنويات المسلمين بعد هذه المعركة فقد كان قد وقر فى قلوب الكثيرين قبل المعركة أن التتار لا يهزمون، ولكن ها هو اتحاد الجيوش الإسلامية فى غزنة يؤتى ثماره فاتحدت فى هذه الموقعة جيوش جلال الدين مع بقايا جيوش أبيه مع الفرقة التركية بقيادة سيف الدين بغراق مع ملك خان أمير هراة واختاروا مكاناً مناسباً وأخذوا بالأسباب المتاحة فكان النصر.

وعندما اطمأن جلال الدين إلى جيشه أرسل رسالة إلى جنكيزخان فى «الطالقان»

يدعوه فيه إلى قتال جديد وهذه هى أول مرة يشعر فيها جنكيزخان بالقلق فجهز جيشاً أكبر وأرسله مع أحد أبنائه لقتال جلال الدين وتجهز الجيش المسلم للموقعة الثانية مع التتار، والتقى الجيشان فى مدينة «كابل» الأفغانية وهى مدينة حصينة تحاط من كل جهاتها تقريباً بالجبال، فشمالها جبال هندوكوش الشاهقة وغربها جبال باروبا ميزوس وجنوبها وشرقها جبال سليمان فدارت موقعة كابل الكبيرة.

وكان القتال عنيفاً أشد ضراوة من موقعة غزنة وثبت المسلمون وحققوا نصراً ثانياً على المغول بل وأنقذوا عشرات الآلاف من المسلمين الأسرى من أيدى التتار، وفرح المسلمون بهذا النصر.



التكالب على الغنائم يحول النصر إلى هزيمة

بعد النصر الذى حققته الوحدة بين المسلمين ضد التتار المغول، ظهرت النوايا الخفية، وتنازع القادة على الغنائم التى استولى عليها من المغول التتار ووقع المسلمون فى الفتنة فاختلفوا على تقسيم الغنية، فقام سيف الدين بغراق وقام ملك خان أمير هراة قام كل منهما نصيبه فى الغنيمة وحدث الاختلاف وارتفعت الأصوات ثم ارتفعت السيوف ليقاتل المسلمون على تقسيم الغنية، وكان الخلاف بسبب جواد كان فى الغنائم فاقتتل الأميران عليه.

وكان ممن قتل أخ لسيف الدين بغراق فغضب غضباً شديداً وقرر الانسحاب من جيش جلال الدين ومعه ثلاثون ألف مقاتل، فحدث ارتباك كبير فى جيش المسلمين وحاول جلال الدين أن يصلح الأمور بينهما فأسرع إلى سيف الدين بغراق ليرجوه أن يعود إلى صف المسلمين والمسلمون فى حاجة إلى كل جندى وفى حاجة إلى كل طاقة، لكن سيف الدين بغراق أصر على الانسحاب وانسحب بالفعل وانكسر جيش المسلمين انكساراً كبيراً فانكسر انكساراً مادياً ومعنوياً ولم يفلح المسلمون فى استثمار النصر الغالى الذى حققوه فى «غزنة» و«كابل».

وبينما هم كذلك جاء جنكيزخان بنفسه على رأس جيوشه ليرى ذلك المسلم الذى انتصر عليه مرتين فى «غزنة» و«كابل» فدب الرعب والهلع فى جيش المسلمين فقد قلت أعداد المسلمين وتحطمت معنوياتهم.

ورأى جلال الدين أن جيشه أصبح ضعيفاً فأخذ جيشه وبدأ يتجه جنوباً للهروب من جيش جنكيزخان أو على الأقل تجنب الحرب لكن جنكيزخان كان مصراً على الحرب، وفعل جلال الدين مثل ما فعل أبوه من قبل فبدأ يتنقل من مدينة إلى مدينة ومن بلد إلى بلد حتى وصل إلى حدود باكستان فاخترقها حتى وصل إلى نهر «السند» الذى يفصل بين

باكستان والهند.

وهناك قرر العبور فى نهر «السند» والدخول إلى أرض الهند مع أن علاقته بأهل الهند علاقة سيئة لكنه رأى أنهم أرحم عليه من جنكيزخان ولكن عند نهر السند لم يجد السفينة التى يعبر بها مثلما وجدها أبوه على بحر قزوين فانتظر حتى فوجىء بعد قليل بجيش جنكيزخان من خلفه فلم يكن هناك بد من القتال فنهر السند من خلفهم والسفن على مسافة بعيدة، فدارت موقعة رهيبة بكل معانى الكلمة فكل المشاهدين لهذه الموقعة قال إن كل ما مضى من الحروب كان لعباً بالنسبة إلى هذا القتال واستمرت الموقعة الرهيبة ثلاثة أيام متصلة واستمر القتل فى الفريقين.

وكان ممن قتل فى صفوف المسلمين الأمير «ملك خان» أمير هراه، وفى اليوم الرابع انفصلت الجيوش لكثرة القتل وبدأ كل طرف يعيد حساباته.

وبينما هم فى هذه الهدنة المؤقتة جاءت السفن إلى نهر السند فلم يضع جلال الدين أى وقت فى التفكير فأخذ القرار السريع فى الهروب وقفز الزعيم المسلم إلى السفينة ومعه خاصته ومقربوه وعبروا نهر السند إلى بلاد الهند وتركوا المغول على الناحية الغربية للنهر.

بعد ذلك انقلب جنكيزخان على بلاد المسلمين يصب عليها عظيم غضبه نتيجة الهزيمتين اللتين لحقتا بجيوشه من قبل ويفعل بها ما اعتاد التتار أن يفعلوه وأكثر.

وكانت أشد المدن معاناة مدينة «غزنة» وهى المدينة التى هزم عندها قبل ذلك جيش جنكيزخان فقتل كل رجالها بلا استثناء وسبى كل الحريم وأحرق كل الديار وتركها كما يقول ابن الاثير: خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس.

وكان ممن أمسك به جنكيزخان من أهل المدينة أولاد جلال الدين بن خوارزم فأمر جنكيزخان بذبحهم جميعاً وهكذا ذاق جلال الدين من نفس المرار الذى ذاقها الملايين من شعبه وهكذا تم لجنكيزخان احتلال الأراضى الأفغانية وبداية لسقوط الأمة الإسلامية فيما بعد وكأن التاريخ يعيد نفسه حيث بدأ الأمريكان والبريطانيون بغزو أفغانستان ومنها إلى احتلال الأمة الإسلامية عسكرياً.

الاستيلاء على مراغة:

كان ذلك فى بداية عام ٦١٨هـ وحين دخل المغول مدينة مراغة المسلمة التى تقع فى إقليم اذربيجان وكانت امرأة مسلمة تحكم هذه المدينة، حاصر التتار مراغة ونصبوا حولها المنجنيق وبدأ القتال من التتار للمسلمين بواسطة الأسرى المسلمين الذين بدأوا بفتح مراغة، وبدأ الأسرى المسلمين يقتلون إخوانهم المسلمين فى مراغة طمعاً فى قليل من الحياة ودخل التتار المغول المدينةالمسلمة فى ٤ صفر سنة ٦١٨هـ ووضعوا السيف فى أهلها فقتل منهم كما يقول ابن الأثير ما يخرج عن الحد والإحصاء.

ونهبوا كل ما صلح نهبه وكل ما استطاعوا أن يحملوه والذى لم يستطيعوا حمله كان يجمعونه ويحرقونه فكانوا يأتون بالحرير الثمين كأمثال التلال فيحرقونه بالنار.

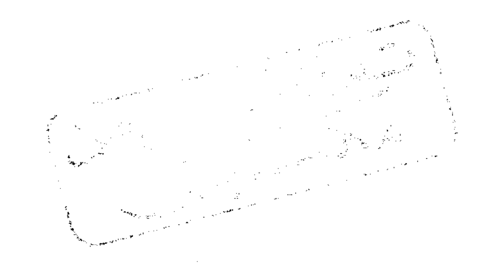
ويقول ابن الاثير: إن المرأة من التتار كانت تدخل الدار فتقتل جماعة من أهل الدار رجالاً ونساء وأطفالاً ما يتحرك لها أحد.

وذكر أيضاً أنه قد سمع بنفسه من بعض أهل مراغة أن رجلاً من المغول دخل درباً به مائة رجل مسلم فمازال يقتلهم واحداً تلو الآخر حتى أفناهم جميعاً ولم يرفع إليه رجل واحد يده فوضعت الذلة على الناس لا يدفعون عن أنفسهم قليلا ولا كثيرا.



العالم قبل ظهور التتار المغول

- الوضع العالمى قبل ظهور المغول التتار.
- أحوال العالم الإسلامى قبل ظهور التتار المغول.
- ما ذكره ابن الأثير عن الغزو التتارى لبلاد الإسلام وأسباب الغزو.



4

الوضع العالمى قبل ظهور المغول التتار

قبل ظهور المغول التتار حل العالم كانت هناك قوتان مؤثرتان هما: قوة المسلمين، وقوة الصليبيين.

فأما قوة المسلمين فكانت مساحة الأرض التى يحكمونها فى ذلك الوقت كانت تقترب من نصف مساحات الأراضى المعمورة فى العالم، وحدودها كانت تبدأ من غرب الصين وتمتد عبر آسيا وأفريقيا لتصل إلى غرب أوروبا فى بلاد الأندلس.

وكان يسود العالم الإسلامى فى تلك الأثناء رغم كبر مساحته وكثرة عدد المسلمين وكثرة موارده الفقر والتدهور الكبير فى الحالة السياسية لمعظم الأقطار الإسلامية، والغريب أن هذا التدهور كان بعد سنوات قليلة من أواخر القرن السادس الهجرى حيث كانت أمة المسلمين قوية منتصرة متوحدة.

وكان العالم الإسلامى فى ذلك الوقت عبارة عن دول متناحرة فيما بينها رغم وجود الخلافة الإسلامية للعباسيين التى نشأت بعد سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢م وكانت عاصمتها بغداد.

وأصبحت الخلافة العباسية بحلول القرن السابع الهجرى ضعيفة جداً حتى أصبحت لا تسيطر حقيقية إلا على وسط وجنوب العراق فقط.

فأصبحت الخلافة فى ذلك الزمان صورة خلافة فهى حقيقة لم تصبح خلافة لأن كل الأقطار الإسلامية أصبح لها حكام منفصلون عن الخلافة انفصالاً تاماً.

فأما مصر والشام والحجاز واليمن وكانت هذه الأقطار تحت حكم الأيوبيين ورثة صلاح الدين الأيوبى.

وأما فى بلاد المغرب والأندلس كانت هذه البلاد تحت حكم دولة الموحدين والتى كانت فى هذه الأثناء قد أصبحت ضعيفة وفى أواخر عهدها.

وأما فى دولة خوارزم كانت تحكم تقريباً كل الشرق الإسلامى فهى دولة مترامية

الأطراف تمتد حدودها من غرب الصين شرقاً إلى أجزاء كبيرة من إيران غرباً، وكانت هذه الدولة على خلاف طويل وعقيم مع الخلافة العباسية.

وأما فى بلاد الهند وكانت فى ذلك الوقت تقع تحت حكم الغوريين المسلمين وكانت أيضاً على خلاف مع الخوارزميين.

وأما فى بلاد غرب فارس كان هذا الجزء من فارس «إيران حالياً» تحت حكم الطائفة الإسماعيلية الشيعية ويعرفون أيضاً باسم الحشاشون ويطلق عليهم المغول اسم الملاحدة.

وهى طائفة من طوائف الباطنية وكانت شديدة الخبث فهى من أخبث الطوائف على الاطلاق، ولهم مخالفات عديدة فى العقيدة جعلت كثيراً من العلماء يخرجونهم من الإسلام تماماً، فكانوا يخلطون الدين بالفلسفة وهم أصلاً من أبناء المجوس وأظهروا الإسلام وأبطنوا المجوسية.

وتأولوا آيات القرآن على أهوائهم وأنكروا كثيراً من فرائض الإسلام، ومن أهم مطالبهم الملك والسلطان لذلك كان يهتمون بأمور السلاح والقتال وبناء القلاع والحصون.

وأما فى بلاد منطقة الأناضول «تركيا حالياً» وكانت تحت حكم السلاجقة الروم وأصولهم ترجع إلى الأتراك المسلمين.

وقد انتشرت فى بلاد الإسلام كلها المؤامرات وتعددت فيها الحروب بين المسلمين وإخوانهم فى الدين وكثرت المعاصى والذنوب، وعم الترف والركون إلى الدنيا وهانت الكبائر تماماً على قلوب الناس حتى كثر سماع أن هذا ظلم هذا وأن هذا قتل هذا وأن هذا سفك دم هذا، وقد علم يقينا أن من كان على هذه الحالة لابد من استبداله وأصبح العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ينتظر وقوع كارثة تقضى على كل هؤلاء الضعفاء فى كل هذه الأقطار ليأتى بعد ذلك جيل من المسلمين يغير الوضع - بمشيئة الله - ويعيد للإسلام هيبته وللخلافة قوتها ومجدها وكانت هذه هى حالة الأمة الإسلامية فى نهاية القرن السادس الهجرى وبداية القرن السابع.

وهكذا كان الحال فى العصر الحالى أيضاً، حيث الضعف الذى أصاب الأمة الإسلامية وتداعى الأمم الأخرى عليهم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها رغم أنهم أكثر من

ثلث العالم ورقعة الأراضى التى يحكمونها أيضاً كذلك.

إلا أنهم لا يحاربون إلا أنفسهم لأتفه الأسباب وينتظرون من يخلصهم كما حدث فى زمان صلاح الدين الأيوبى[1].

يقول ابن الأثير - رحمه الله - فى كتابه الكامل فى التاريخ: ذكر خروج التتار إلى بلاد الإسلام: لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها فأنا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك.

فياليت أمى لم تلدنى، وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً.

إلا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها، وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعاً فنقول:

هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عقمت الأيام والليالى عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها.

ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببنى إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التى كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس.

وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا، فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى إسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادث إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج، وأما الدجال فإنه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه.

وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم لهذه الحادثة التى استطار شررها، وعم ضررها، وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح.

فإن قوماً خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون

(١) اقرأ كتابنا «صلاح الدين المنقذ المنتظر» الناشر دارالكتاب العربي.

ثم منهم إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما فيملكونها ويفعلون بأهلها ما نذكره، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكاً وتخريباً وقتلاً ونهباً.

ثم يتجاوزونها إلى الرى وهمذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق.

ثم بلاد أذربيجان وأرانيه ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها.

ولم ينج إلا الشريد النادر فى أقل من سنة، هذا ما لم يسمع بمثله، ثم لما فرغوا من أذربيجان وأرانيه ساروا إلى دربند شروان فملكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة التى بها ملكهم، وعبروا عندهم إلى بلد اللازن واللكز ومن ذلك الصقع من الأمم المختلفة فأوسعوهم قتلاً ونهباً وتخريباً.

ثم قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عدداً فقتلوا كل من وقف لهم فهرب الباقون إلى الغياض ورؤوس الجبال وفارقوا بلادهم واستولى هؤلاء التتر عليها، فعلوا هذا فى أسرع زمان لم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير.

ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة وأعمالهم وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء وأشد.

هذا ما لم يطرق الأسماع مثله، فإن الإسكندر الذى اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها فى هذه السرعة إنما ملكها فى نحو عشر سنين، ولم يقتل أحداً إنما رضى من الناس بالطاعة.

وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمورة من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلاً وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة فى نحو سنة، ولم يبت أحد من البلاد التى لم يطرقوها إلا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم إليهم.

ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم فإنهم معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير.

وأما دوابهم التى يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق النبات، لا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شىء من خارج.

وأما ديانتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرمون شيئاً فإنهم يأكلون

جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها.

ولا يعرفون نكاحاً بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال، فإذا جاء الولد لا يعرف أباه.

ولقد بلى الإسلام والمسلمون فى هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم، منها هؤلاء التتر قبحهم الله، أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال التى يستعظمها كل من سمع بها، نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين نصراً من عنده، فإن الناصر والمعين والذاب عن الإسلام معدوم «وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال».

فإن هؤلاء التتر إنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع.

وسبب عدمه أن خوارزم شاه محمداً كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم وبقى هو وحده سلطان البلاد جميعها[1] فلما انهزم منهم لم يبق فى البلاد من يمنعهم ولا من يحميها «ليقضى الله أمراً كان مفعولاً».

وقال ابن الأثير أيضاً عن أسباب خروج التتار على العالم الإسلامى المجاور لهم: فى سنة ٦١٧م ظهر التتر إلى بلاد الإسلام، وهم نوع كثير من الترك، ومساكنهم جبال طمغاج من نحو الصين، وبينهم وبين بلاد الإسلام ما يزيد على ستة أشهر، وكان السبب فى ظهورهم أن ملكهم ويسمى بجنكيزخان المعروف بتموجين كان قد فارق بلاده وسار إلى نواحى تركستان وسير جماعة من التجار والأتراك ومعهم شىء كثير من النقرة والقندر وغيرهما إلى بلاد ما وراء النهر سمرقند وبخارا ليشتروا له ثياباً للكسوة.

فوصلوا إلى مدينة من بلاد الترك تسمى أوترار وهى آخر ولاية خوارزم شاه يعلمه بوصولهم ويذكر له ما معهم من الأموال.

فبعث إليه خوارزم شاه يأمر بقتلهم وأخذ ما معهم من الأموال وإنفاذه إليه، فقتلهم وسير ما معهم وكان شيئاً كثيراً.

فلما وصل إلى السلطان خوارزم شاه فرقه على تجار بخارا وسمرقند وأخذ ثمنه

---

(١) يقصد السلطان الخوارزمى محمد الذى فتح الباب للمغول التتار لدخول العالم الإسلامى بقتله للتجار المغول فأعطى جنكيزخان الحجة فى تدميره للعالم الإسلامى كما ذكرنا وكما ذكر أيضاً ابن الأثير وغيره.

منهم، فلما قتل نائب خوارزم شاه أصحاب جنكيزخان أرسل جواسيس إلى جنكيزخان لينظر ما هو وكم مقدار ما معه من اليزك وما يريد أن يعمل.

فمضى الجواسيس وسلكوا المفازة والجبال التى على طريقهم حتى وصلوا إليه، فعادوا بعد مدة طويلة وأخبروه بكثرة عددهم، وأنهم يخرجون عن الإحصاء، وأنهم من أصبر خلق الله على القتال، لا يعرفون هزيمة، وأنهم يعملون ما يحتاجون إليه من السلاح بأيديهم.

فندم خوارزم شاه على قتل أصحابهم وأخذ أموالهم.

فبينما الأتراك كذلك إذ ورد رسول من هذا اللعين جنكيزخان معه جماعة يتهدد خوارزم شاه ويقول: تقتلون أصحابى وتأخذون أموالهم، استعدوا للحرب، فإنى واصل إليكم بجمع لا قبل لكم به.

فلما سمعها خوارزم شاه أمر بقتل رسوله فقتل وأمر بحلق لحى الجماعة الذين كانوا معه، وأعادهم إلى صاحبهم جنكيزخان يخبرونه بما فعل بالرسول ويقولون له: إن خوارزم شاه يقول لك: أنا سائر إليك ولو أنك فى آخر الدنيا حتى أنتقم وأفعل بك كما فعلت بأصحابك.

وتجهز خوارزم شاه وسار بعد الرسول مبادراً ليسبق خبره ويكبسهم فمضى وقطع مسيرة أربعة أشهر فوصل إلى بيوتهم فلم ير فيها إلا النساء والصبيان والأطفال فأوقع بهم وغنم الجميع وسبى النساء والذرية.

وكان سبب غيبة الكفار عن بيوتهم أنهم ساروا إلى محاربة ملك من ملوك الترك يقال له كشلوخان فقاتلوه وهزموه وغنموا أمواله وعادوا فلقيهم فى الطريق الخبر بما فعل خوارزم شاه بمخلفيهم، فجدوا السير، فأدركوه قبل أن يخرج عن بيوتهم وتصافوا للحرب واقتتلوا قتالاً لم يسمع بمثله فبقوا فى الحرب ثلاثة أيام بلياليها فقتل من الطائفتين مالا يعد ولم ينهزم أحد منهم، واستنفد الطائفتان وسعهم فى الصبر والقتال.

هذا القتال جميعه مع ابن جنكيزخان، ولم يحضر أبوه الوقعة ولم يشعر بها، فأحصى من قتل من المسلمين فى هذه الواقعة فكانوا عشرين ألفاً، وأما من الكفار فلا يحصى من قتل منهم.

فلما كان الليلة الرابعة افترقوا، ورجع المسلمون إلى بخارى فاستعد للحصار لعلمه بعجزه ولأن طائفة من عسكره لم يقدر السلطان محمد خوارزم شاه على أن يظفر بهم فكيف إذا جاءوا جميعهم مع ملكهم.

فأمر أهل بخارى وسمرقند بالاستعداد للحصار وجمع الذخائر للامتناع وجعل فى بخارى عشرين ألف فارس من العسكر يحمونها وفى سمرقند خمسين ألفاً وقال لهم: احفظوا البلد حتى أعود إلى خوارزم وخراسان وأجمع العساكر واستنجد بالمسلمين وأعود إليكم.

فلما فرغ من ذلك رحل عائداً إلى خراسان فعبر جيحون ونزل بالقرب من بلخ فعسكر هناك، وأما الكفار فإنهم رحلوا بعد أن استعدوا يطلبون ما وراء النهر فوصلوا إلى بخارى بعد خمسة أشهر من وصول خوارزم شاه وحصروها وقاتلوها ثلاثة أيام قتالاً شديداً متتابعاً.

فلم يكن للعسكر الخوارزمى بهم قوة، ففارقوا البلد عائدين إلى خراسان.

فلما أصبح أهل البلد وليس عندهم من العسكر أحد ضعفت نفوسهم فأرسلوا القاضى وهو بدرالدين قاضيخان ليطلب الأمان للناس فأعطوهم الأمان، وكان قد بقى من العسكر طائفة لم يمكنهم الهرب مع أصحابهم فاعتصموا بالقلعة.

فلما أجابهم جنكيزخان إلى الأمان فتحت أبواب المدينة يوم الثلاثاء رابع ذى الحجة من سنة ست عشرة وستمائة فدخل الكفار بخارى ولم يتعرضوا إلى أحد بل قالوا لهم: كل ما هو للسلطان عندكم من ذخيرة أو غيره أخرجوا إلينا وساعدونا على قتال من بالقلعة.

وأظهروا عندهم العدل وحسن السيرة، ودخل جنكيزخان بنفسه، وأحاط بالقلعة ونادى فى البلد بأن لا يتخلف أحد، ومن تخلف قتل، فحضروا جميعهم فأمرهم بطم الخندق فطموه بالأخشاب والتراب وغير ذلك، حتى أن الكفار كانوا يأخذون المنابر وربعات القرآن فيلقونها فى الخندق.

ثم تابعوا الزحف إلى القلعة وبها نحو أربعمائة فارس من المسلمين فبذلوا جهدهم ومنعوا القلعة اثنى عشر يوماً يقاتلون جمع الكفار وأهل البلد فقتل بعضهم، ولم يزالوا كذلك حتى زحفوا إليهم، ووصل النقابون إلى سور القلعة فنقبوه، واشتد حينئذ القتال وقد

تعب من بالقلعة ونصبوا، وجاءهم ما لا قبل لهم به فقهرهم الكفار، ودخلوا القلعة، وقاتلهم المسلمون الذين فيها حتى قتلوا عن آخرهم.

ودخل الكفار البلد فنبهوه وقتلوا من وجدوا فيه، وأحاط بالمسلمين، فأمر أصحابه أن يقتسموهم فاقتسموهم، وكان يوماً عظيماً من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان، وتفرقوا أيدى سبأ، وتمزقوا كل ممزق، واقتسموا النساء أيضاً.

وأصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس، وارتكبوا من النساء العظيم، والناس ينظرون ويبكون، ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئاً مما نزل بهم، فمنعهم من لم يرض بذلك واختار الموت على ذلك فقاتل حتى قتل، ومن استسلم أخذ أسيراً، وألقوا النار فى البلد والمدارس والمساجد وعذبوا الناس بأنواع العذاب، ثم رحلوا نحو سمرقند.

وقد تحققوا عجز خوارزم شاة عنهم، وهم بمكانة بين ترمذ وبلخ، واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى أسارى فساروا بهم مشاة على أقبح صورة، فكل من أعيا وعجز عن المشى قتل، فلما قاربوا سمرقند خرج إليهم شجعان أهله وأهل الجلد والقوة رجالة، ولم يخرج معهم من العسكر الخوارزمى أحد لما فى قلوبهم من خوف هؤلاء الملاعين.

فقاتلهم الرجالة بظاهر البلد فلم يزل التتر يتأخرون وأهل البلد يتبعونهم ويطمعون فيهم، وكان الكفار قد كمنوا لهم كميناً، فلما جاوزوا الكمين خرجوا عليهم وحالوا بينهم وبين البلد.

ورجع الباقون الذين أنشبوا القتال أولاً فبقوا فى الوسط وأخذهم السيف من كل جانب، فلم يسلم منهم أحد، قتلوا عن آخرهم شهداء رضى الله عنهم، وكانوا سبعين ألفاً على ما قيل.

فلما رأى الباقون من الجند والعامة ذلك ضعفت نفوسهم، وأيقنوا بالهلاك فقال الجند وكانوا أتراكاً: نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا فطلبوا الأمان فأجابوهم إلى ذلك، ففتحوا أبواب البلد، ولم يقدر العامة على منعهم، وخرجوا إلى الكفار بأهلهم وأموالهم فقال لهم الكفار: ادفعوا إلينا سلاحكم وأموالكم ودوابكم ونحن نسيركم إلى مأمنكم، ففعلوا ذلك.

فلما أخذوا أسلحتهم ودوابهم وضعوا السيف فيهم وقتلوهم عن آخرهم، وأخذوا أموالهم ودوابهم ونساءهم، فلما كان اليوم الرابع نادوا فى البلد أن يخرج أهله جميعهم ومن تأخر قتلوه، فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان، ففعلوا مع أهل بخارى من النهب والقتل والسبى والفساد، ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه، وأحرقوا الجامع، وتركوا باقى البلد على حاله، وافتضوا الأبكار، وعذبوا الناس بأنواع العذاب فى طلب المال وقتلوا من لم يصلح للسبى.

وكان ذلك فى محرم سنة سبع عشرة وستمائة، وكان خوارزم شاه بمنزلته كلما اجتمع إليه عسكر سيره إلى سمرقند فيرجعون ولا يقدمون على الوصول إليها[1].

وما ذكره ابن الأثير ذكره معظم المؤرخين والمعاصرين لتلك الأحداث.



(١) انظر الكامل فى التاريخ لابن الأثير.

الأوضاع السياسية
والعسكرية قبل ظهور «هولاكو خان»

- الأوضاع السياسية والعسكرية بعد وفاة جنكيزخان.
- بداية الاحتكاك بالخلافة العباسية قبل ظهور «هولاكو» فى عهد أوكتاى خان بن جنكيزخان.
- استيلاء المغول على معظم الأمم الموجودة على الأرض قبل غزوهم لبلاد الإسلام العربية.



الأوضاع السياسية والعسكرية بعد وفاة جنكيزخان وقبل ظهور هولاكو

بعد وفاة جنكيزخان عام ١٢٢٧م ٦٢٤هـ بدأت جموع المغول التتار للعودة إلى ديارهم كعادة التتار بعد موت زعيمهم وخانهم الأكبر.

قام مجلس القوكارياى المغولى بالاجتماع عام ١٢٢٩م ٦٢٦هـ والسبب فى تأخر هذا الاجتماع هو الانتظار لعودة أعضاء المجلس وهم قادة المغول من أطراف الأرض وتم اختيار أوكتاى ابن جنكيزخان زعيماً للمغول ليكمل مسيرة والده.

وقام أوكتاى خان بالحج إلى قبر أبيه وأقام حفلة تكريم لذكراه قدم فيها أربعين فتاة من نسل الأمراء على روح والده.

وتم الاستعداد للخروج والزحف على العالم الإسلامى والعالم، وقام أوكتاى بتجهيز الجيش المغولى وأسند قيادته إلى القائد جرماجون تويان وقوام هذا الجيش أكثر من خمسين ألفاً من المقاتلين الأشداء المهرة.

وكانت مهمة هذا الجيش مطاردة فلول السلطان جلال الدين الخوارزمى المتواجد فيما وراء النهر وتم إمداد هذا الجيش فى خوارزم بنحو مائة ألف من الجنود المغول.

وأصبح السلطان جلال الدين الخوارزمى مطارداً وهرب منهم إلى «تبريز» عاصمة أذربيجان ثم إلى بشكين ثم إلى قبان ثم إلى أورمية وأشنو وعزم الأمر إلى اللجوء لديار بكر والجزيرة واللجوء إلى الخليفة العباسى والمغول فى أثره.

فاتجه نحو «آمد» فى أعالى نهر دجلة وقد يأس من مواجهة التتار وانغمس فى الملذات والملاهى وهذا ما ذكره ابن الأثير فى كتابه «الكامل فى التاريخ» وغيره حيث ذكروا أن أركان الدولة الخوارزمية المسلمة والأعيان غرقوا مع السلطان فى شرب الخمور والاستماع إلى المغنيات ومعاشرة الجوارى.

واستطاع المغول الوصول إلى السلطان وهو فى تلك الحالة من الشرب والسكر إلا أن

القائد الخوارزمى أورخان أنقذه فى اللحظات الأخيرة وانتهى أمره بأن قتله أحد الأكراد بعد أن أصبح وحيداً لا يملك شيئاً من حطام الدنيا وكان ذلك فى شوال عام ٦٢٨هـ.

وبعد الانتهاء من أمر السلطان جلال الدين الخوارزمى قام «أوكتاى خان» بتقسيم الجيش المغولى إلى ثلاثة أقسام لكل جيش مهمة تم تحديدها، فقام الجيش الأول بالسير تجاه مدينة «آمد» ومدن «أزرت» و«حين فارين» ثم إلى مدينة «أسعرد» فتصدى لهم أهلها من المسلمين وقاتلوهم حتى فشل الجيش المغولى فى تحقيق النصر عليهم، وقاموا باستمالتهم وبذلوا لهم الوعود حتى إذا استسلموا لهم، وللأسف الشديد وثق الأهالى بوعود المغول كما وثق البعض من بنى جلدتنا بوعود اليهود والأمريكان فلما فتحت أبواب المدينة قام الجيش المغولى وقتلوا الأهالى ودمروا المدن.

وسار الجيش إلى مدينة «طنزة» فدخلوها قسراً بعد قتال عنيف مع أهلها واستمر الجيش في تقدمه نحو وادى القريشية فتصدى لهم أهلها ومنعوهم من دخول الوادى وأجبروا المغول على التراجع دون تحقيق النصر عليهم.

واتجه الجيش المغولى إلى «ماردين» فنهبوها وفر أهلها إلى قلعة المدينة.

ووصل الجيش إلى «نصيبين» الجزيرة فلم يستطيعوا دخولها لإغلاق أبوابها واستحكامها عليهم، ثم وصلوا إلى «سنجار» وقاموا بنهبها وقتلوا الكثير من أهلها ثم عاد الجيش إلى حيث بدأوا انتظاراً لتعليمات أخرى من أوكتاى خان.

وأما الجيش الثانى المغولى فصار إلى قرية «المؤنسة» بالقرب من «نصيبين» فقتلوا أهلها ونهبوا البلدة وخربوها كعادتهم.

وأما الجيش الثالث فقصد «نصيبين الروم» على نهر الفرات، فقتلوا أهلها ونهبوا ما فيها ثم اتجهوا إلى «بدليس» فأحرقوها وقتلوا أهلها الذين تصدوا لهم وفر من استطاع منهم إلى الجبال، ثم سار الجيش إلى «باكرى» فقاتلهم أهلها ودارت بينهم معركة انتهت بهزيمة أهل المدينة وقتلهم على أيدى المغول التتار بقسوة ووحشة.

ثم قصد الجيش المغولى مدينة «أرجيش» فدخلوها قسراً وقتلوا من وجد من أهلها مثل بقية المدن الأخرى.

وكانت تلك العمليات الحربية بمثابة مقدمة نفسية لما هو آت من غزو العالم العربى

الإسلامى الذى أصبح قاب قوسين أو أدنى منهم وقد دب الهلع والفزع والرعب فى نفوس الناس من تيار المغول التترى الجارف حتى ظنوا أنهم ليسوا من جنس البشر بسبب ما ارتكبوه من فظائع لم يعرفها التاريخ الإنسانى على مر العصور.

وتجمعت الجيوش المغولية فى عام ٦٢٩هـ وتحركت صوب «اذربيجان» قاصدة إقليم «آربل» فنهبوا القرى الداخلة فى حدود الإقليم وخرج لهم حاكم «أربل» مظفر الدين فى جيش سارية نحوهم إلا أنه وجدهم قد غادروا الإقليم إلى «أذربيجان» وكفى الله المؤمنين شر القتال.

وتوجه الجيش المغولى نحو مدينة «تبريز» عاصمة أذربيجان فدخلوها دون قتال بعد أن أعطاهم القائد المغولى الأمان فأطاعوه واستسلموا وقدموا له المال والهدايا.

ووصل زحف الجيش المغولى التترى أرض العراق «عراق العرب» معقل الخلافة العباسية عام ٦٣٤هـ ١٢٣٦م.

وزحفت فرقة من الجيش المغولى إلى مدينة سمراء، فأخرج لهم الخليفة العباسى جيشاً بقيادة مجاهد الدين الدويدار، وجرت معركة بين المغول وذلك الجيش بالقرب من «تكريت» على نهر دجلة وفى هذه المعركة هزم المسلمون التتار.

وبعد فترة عاد المغول مرة أخرى فى جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل للانتقام من جيش الخلافة العباسية وقصدوا بغداد فتصدى لهم جيش الخلافة إلا أن المغول نصبوا لهم كميناً وقتلوا الكثير من الجيش المسلم ثم عادوا من حيث جاءوا، واكتفى المغول بهذا النصر السريع الخاطف حتى إن الخليفة العباسى نسى أمرهم للأسف الشديد.

وكانت تلك أول مواجهة حقيقية بين الجيش المغولى وجيش الخلافة العباسية وكان المغول وقتها يخشون نقمة الخلافة العباسية والمسلمين العرب.

وفى تلك الفترة من حكم «اوكتاى خان» - أوقطتاى - عام ٦٣٢هـ ١٢٣٥م سقطت معظم دول أوروبا الشرقية فى أيدى التتار المغول قبل المعركة مع جيش الخلافة العباسى حيث الجيش المغولى الذى زحف شمال العالم الإسلامى ودخلوا دون مقاومة مدينة «كنجة» فى إقليم «آران» حيث قتلوا غالبية أهلها ودمروا المدينة ثم هاجموا فى العام التالى «جورجيا» وقد قاومت ملكة جورجيا «روسودان» جيش المغول.

فلما حقق المغول انتصاراً على ملكة جورجيا قاموا باستعمال أفظع أساليب البطش والقتل والتخريب كعادتهم فى مثل تلك الظروف حتى إن الملكة الجورجية هربت من أمامهم بنفسها، ثم سقطت كل المدن الجورجية فى أيديهم.

ثم امتد زحفهم نحو أرمينيا الكبرى واستولوا عليها وخربوا عاصمتها تماماً.

وقام أوكتاى خان وأخواه جغتاى وتولوى فى حملة كبيرة نحو بلاد الصين لاستعادة المدن التى قد فتحوها فى عصر أبيهم جنكيزخان.

فاستولى أوكتاى خان على مدينة «هو تشونغ» واجتاز النهر الأصفر فى عام ١٢٣٢م.

وأما أخوه تولوى قد توجه صوب الجنوب الغربى للصين واستولى على «هانان» فى نفس العام والتقى بجيش أخيه الخان الأعظم «اوكتاى» عند «كيون تشو» وسط «هونان» حيث استكمل القائد المغولى «سوبو تاى» بفتح وغزو مدينة «كاى فونغ فو» العاصمة الشمالية للصين.

واستطاع القائد المغولى تحقيق أهداف حملته العسكرية بنجاح رغم أن الإمبراطور الصينى الشمالى «نن كياسو» كان لديه جيش مكون من مائة ألف جندى إلا أن الرعب الذى بثه التتار المغول فى نفوس الناس قد بلغ مبلغه فى الجيش الصينى حتى إنه انهزم وقام الإمبراطور الصينى بعد هزيمته بجمع أبنائه ونسائه فى بيت من الخشب وأمر بإشعال النار فيهم فاحترقوا جميعاً حتى لا يقعوا أسرى فى أيدى المغول وهرب هو نحو الجنوب.

وفى هذه الحملة على الصين توفى «تولوى» بن جنكيزخان بعد أن أصابه المرض المفاجىء عدة أيام عام ١٢٣٢م.

وامتد سلطان المغول التتار على بلاد إمبراطورية الصين الشمالية، ولم يستكملوا غزو بلاد إمبراطورية الصين الجنوبية حيث إن الأسرة الحاكمة هناك قد ساعدوهم فى غزوهم لإخوانهم فى الشمال.

إلا أن امبراطور الصين الجنوبية «لى تسونغ» اختلف مع المغول حول إقليم «هونان» وقام بمهاجمة الجيش المغولى فنتج عنه انتصار استطاع من خلاله الاستيلاء على «فونج» و«لوبانج» مما جعل المغول يقومون بالرد على الإمبراطور الصينى الجنوبى وقاموا بحملة

عسكرية للانتقام منه، لكن الحروب مع إمبراطورية الصين الجنوبية استمرت نحو أربعين عاماً من عام ١٢٣٥م حتى ١٢٧٩م توفى أوكتاى خان فى المراحل الأولى منها ولم ينجح المغول فى تدمير أسرة «سونج» الحاكمة لإمبراطورية جنوب الصين إلا عام ١٢٧٩م فى عهد «قوبيلاى خان» بن أوكتاى بن جنكيزخان.

وكانت وفاة أوكتاى خان فى شهر ديسمبر عام ١٢٤١م.

ونشب الصراع على السلطة بعد وفاته بين أحفاد جنكيزخان لمدة عشر سنوات وكانت القيادة فيها موزعة بين أبناء أوكتاى وجغتاى ثم تلت تلك السنوات من الصراع فترة هدوء نسبى تم اختيار «كيوك خان» ابن اوكتاى زعيماً للمغول التتار.

وتوفى «كيوك خان» بعد عامين من توليه الحكم، وخلفه أخوه «منكو خان» بن تولوى.

وفى عهد «منكو خان» عاد المغول التتار إلى تتأججهم وغزوهم للعالم مرة أخرى وذلك بعد عامين من توليه الحكم استطاع خلال السنوات الأولى من تثبيت دعائم ملكه وإصلاح ما خلفته سنوات الصراع على الحكم ثم أرسل الجيوش المغولية لاستكمال ما توقف عنده أبوه.

فأسند إلى أخيه الأوسط «قوبيلاى» قيادة جيش لإتمام ما تم من فتوحات فى الصين الجنوبية والقضاء على إمبراطورية «سونج» وقام بأداء تلك المهمة بنجاح ثم أعاد إخضاع ما تم فتحه سابقاً من ممالك الخطا وقراجانك وتنكوت والتبت ثم قام بمهاجمة الهند الصينية وجاوة واليابان ومناطق من الشرق الأقصى.

وأسند «منكو خان» قيادة حملة عسكرية أخرى لشقيقه الأصغر «هولاكو» للقضاء على حصون وقلاع الإسماعيلية الحشاشين وقد أطلقوا عليهم اسم الملاحدة، ثم الزحف نحو الخلافة العباسية فى بغداد وبلاد الشام ومصر وقد أولى «منكو خان» تلك الحملة اهتمامه فأمد أخاه «هولاكو» بكثير من الأمراء المغول والقادة وخيرة جنود المغول والمنجانيق وقاذفات النفط.

وسوف نذكر بإذن الله تعالى ماذا فعل «هولاكو» مع الإسماعيلية الحشاشين ثم ما فعله مع الخلافة العباسية حتى وصل إلى حدود الشام مع الديار المصرية.

وخلاصة القول فى تلك المرحلة التى سبقت «هولاكو» أى منذ وفاة «جنكيزخان» حتى

عصر «منكوخان» وقبل غزوهم لبلاد الإسلام والخلافة العباسية قد تولى زعامة المغول التتار أولاً: أوكتاى خان عام ٦٢٦هـ ١٢٢٩م حتى وفاته عام ١٢٤١م.

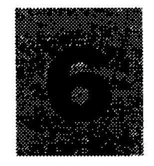
ثانياً: وبعد صراع دام عشر سنوات على السلطة بين «أوكتاى وجفتاى» تولى بعدها كيوك بن «أوكتاى» الحكم وزعامة المغول لمدة عامين «١٢٤٦ - ١٢٤٨م».

ثالثاً: بعد وفاة «كيوك خان» تولى «منكو خان» بن تولوى بن جنكيزخان الحكم وزعامة المغول عام ١٢٤٨م وفى عهده أرسل هولاكو لغزو بلاد المسلمين والقضاء على الخلافة العباسية حتى وصلت جيوش المغول إلى بلاد الشام كما سيأتى ذكر ذلك فى حينه إن شاء الله.

وخلال تلك الفترة من تولى أوكتاى حتى منكو خان استطاع المغول الاستيلاء على معظم بلاد الكرة الأرضية وقضوا على ممالك الأرض واستولوا عليها كما ذكرنا من الإمبراطورية الصينية الشمالية والجنوبية والخوارزمية وبلاد شرق أوروبا ولم يبق أمامهم إلا بلاد الخلافة العباسية وبلاد الشام فقاموا بغزوها وكانت ممهدة للسقوط نتيجة ضعفها الشديد.

وتنازع الحكام المسلمون فيما بينهم حتى إن الخليفة العباسى قد استعان بالمغول فى محاربته للسلطان الخوارزمى قبل سقوط دولة الخوارزميين، وكانت بلاد الشام تعج بالخلافات والصراعات والنزاعات على الحكم فلما جاء التتار المغول كانت الظروف السياسية والعسكرية مؤهلة لهم لتحقيق انتصارات على تلك الأمة الإسلامية.





- طائفة الإسماعيلية «الحشاشون» وقلعة «الموت».

البداية والنشأة وأنواع الطائفة

الاسماعيلية من الفرق الباطنية الأصل، فظاهرها التشيع لآل البيت أما حقيقتها فهى هدم ومحاربة الإسلام وهى عدة فرق ظهرت على مر العصور وحكمت مناطق كثيرة فى العالم منها إيران والبحرين ومصر وشمال أفريقيا والشام وأساس التسمية انتسابها إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين.

وتشارك الطائفة الإسماعيلية مع الشيعة الاثنا عشرية بمفهوم الأئمة المنحدرين من نسل النبى ﷺ وابنته فاطمة عليها السلام وعلى بن أبى طالب رضي الله عنه.

ولكنها انشقت عن جمهور الشيعة الإمامية عند الإمام السادس جعفر الصادق ومن سيخلفه من أبنائه إسماعيل الكبير أم موسى الكاظم الأصغر.

فرأت الاسماعيلية أن الإمامة للابن الأكبر ورأت الغالبية من الشيعة أن الأحق هو موسى الكاظم ومن هنا جاء الافتراق بينهم.

فالاسماعيليون والشيعة الإمامية يتفقون على إمامة ستة من آل البيت هم:

١- على بن أبى طالب كرم الله وجهه.

٢- الحسن بن على رضي الله عنه.

٣- الحسين بن على رضي الله عنه.

٤- على زين العابدين رضي الله عنه.

٥- محمد الباقر رضي الله عنه.

٦- جعفر الصادق رضي الله عنه.

ويرى الإسماعيلية أن الإمام السادس جعفر الصادق أعلن أن ابنه اسماعيل توفى وأقام له جنازة وهمية ويرون أنه إمام مستور وان ابنه محمد بن اسماعيل هو الامام من

بعده أى السابع ويرون أن الامام اسماعيل هو المهدى المنتظر وأن الأئمة من ولدهم الموافى

أحمد والتقى محمد والزكى عبدالله والأخير هو الإمام العاشر وهؤلاء الأربعة مستورون لم يتدخلوا فى الحياة السياسية حتى ظهر الإمام الحادى عشر عبيدالله المهدى مؤسس الإسماعيلية الفاطمية التى حكمت شمال أفريقيا بما فيها مصر.

وانقسمت طائفة الإسماعيلية إلى سبعة أنواع هى:

الاسماعيلية القرامطة وكان ظهورهم فى البحرين والشام بعد أن شقوا عصا الطاعة على الإمام الإسماعيلى ومنهم عبدالله بن ميمون القداح وحمدان بن قرمط بن الأشعث ومنهم الحسن بن بهرام أبوسعيد الجنابى مؤسس دولة القرامطة فى البحرين وهم الذين اعتدوا على حرمة البيت الحرام وقتلوا الحجيج فى موسم الحج وألقوا جثثهم فى بئر زمزم واقتلعوا الحجر الأسود وأخذوه إلى بلادهم وظل عندهم أكثر من عشرين عاماً فى عهد الخلافة العباسية ولم تفلح محاولة الخليفة فى استرجاعه حتى أعادوه.

الإسماعيلية الفاطمية التى ظهرت فى اليمن على يد الحسن بن حوشب عام ٢٢٦هـ ثم انتقلت إلى شمال أفريقيا على يد عبيدالله المهدى وأسس دولة فاطمية شيعية فى تونس واستولى على «رقادة» سنة ٢٩٧هـ ثم توسعت فاحتلت الشمال الأفريقى حتى استطاع أحد حكامهم وهو المعزلدين الله من احتلال مصر عام ٣٥٨هـ وانتقل إليها عام ٣٦٢هـ وانتهت تلك الدولة على يد الناصر صلاح الدين الأيوبى(١).

وخرج من الإسماعيلية الفاطمية فرعان هم: الإسماعيلية النزارية الشرقية والإسماعيلية المستعلية الغربية بعد وفاة الخليفة الفاطمى المستنصر بالله المتوفى عام ٤٨٧هـ.

والسبب فى ذلك أن الخليفة الفاطمى المستنصر بالله قد نص على أن يليه فى الخلافة ابنه نزار لأنه الابن الأكبر، لكن الوزير الأفضل بن بدر الجمالى أمر بالقبض على ولى العهد نزار وأودعه السجن حتى مات بعد أن سد عليه السجن وولى المستعلى بن المستنصر بالله.

واستمرت الإسماعيلية الفاطمية المستعلية بحكم مصر والحجاز حتى خلافة العاضد

(١) اقرأ كتابنا «صلاح الدين المنقذ المنتظر» الناشر دارالكتاب العربى.

وزالت على يدى صلاح الدين الأيوبى.

أما أنصار نزار بن المستنصر بالله فقد حكموا بالشام وفارس وبلاد الشرق وهم الإسماعيلية الحشاشون ومؤسس هذه الطائفة هو الحسن بن الصباح الذين كان حاضراً بمصر وشهد انقسام الفاطميين وعدم تولى نزار الخلافة بعد أبيه.

وأسس الحسن بن الصباح طائفة الاسماعيلية الحشاشون فى بلاد فارس بعد الاستيلاء على قلعة «الموت» عام ٤٨٣هـ وكان هو أول دعاة هذه الطائفة.

وهناك الاسماعيلية النزارية فى الشام وكانت لهم قلاع وحصون ومن قادتهم راشد الدين سنان الملقب بشيخ الجبل وهو يشبه فى قيادته الحسن بن الصباح وكانوا يؤمنون بعقيدة التناسخ وقد حاربهم صلاح الدين الأيوبى وقضى على شوكتهم الظاهر بيبرس وكانوا مشهورين بعمليات الاغتيال السياسى ومتعاونين مع الصليبيين أثناء تواجدهم فى بلاد الشام.

والإسماعيلية البهرة وهم من الإسماعيلية المستعلية وهم إسماعيلية الهند واليمن يعملون بالتجارة واختلطوا بالهندوس وعرفوا باسم البهرة وهو لفظ هندى قديم بمعنى التاجر.

وأئمتهم بعد الإمام الطيب مستورين غير معروفين منذ أن دخل الإمام الطيب الستر عام ٥٢٥هـ والأئمة من نسله حتى الآن وقد انقسمت البهرة إلى فرقتين هى البهرة الداوودية والبهرة السليمانية، والأولى مركزهم الهند وباكستان والثانية مركزهم فى اليمن.

وهناك الإسماعيلية الأغاخانية وقد ظهرت هذه الفرقة فى إيران فى القرن التاسع عشر الميلادى ومن دعادتهم حسن على شاه وهو الأغاخان الأول وكان عميلاً للإنجليز ونفى إلى أفغانستان ثم بومباى وخلع عليه الإنجليز لقب «الأغاخان» وتوفى عام ١٨٨١م ومازالوا متواجدين هناك حتى الآن وهم من الأغنياء.

وهناك الاسماعيلية الواقفة التى وقفت الامامة عندهم عند محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وهو أول الأئمة المستورين وقالوا بخروجه بعد غيبته آخر الزمان.

وكل طوائف الاسماعيلية الباطنية كما قال علماء أهل السنة من الطوائف الخارجة عن الإسلام المحاربة له.

فهم يضيفون على الإمام صفات ترفعه إلى مرتبة الالوهية ويخصونه بعلم الباطن

وأنه معصوم، ويؤمنون بالتقية وأن العقيدة تدور حول شخصية الإمام ويؤمنون بتناسخ الأرواح.

ويعتقدون أن الله لم يخلق العالم خلقاً مباشراً بل عن طريق النقل الكلى الذى هو محل لجميع الصفات الالهية ويسمونه الحجاب ويؤمنون بالإباحية فكل أمر لديهم مباح واتخذوا وسيلة الاغتيال المنظم وسيلة للوصول إلى أهدافهم السياسية واشتهروا بذلك[١].



(١) أنظر «الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة» - الندوة العالمية للشباب الإسلامى.

الإسماعيلية «الحشاشون» البداية والنهاية

وهم الذين حاربهم «هولاكو» وقضى على دولتهم كما سيأتى ذكر ذلك وهى إحدى طوائف الاسماعيلية الفاطمية النزارية انشقت من الفاطمية بمصر بعد وفاة الخليفة الفاطمى المستنصر بالله وثم مقتل ابنه نزار كما ذكرنا وأسسها الحسن بن الصباح المولود بالرى عام ٤٣٠هـ وكان شيعياً من أتباع الطريقة الاسماعيلية الفاطمية ثم سافر إلى مصر فى إمامة المستنصر بالله عام ٤٧١هـ ١٠٧٨م ثم رحل إلى بلاد فارس يدعو لإمامة نزار بن المستنصر الذى قتله الوزير فضل بن بدر الجمالى وادعى أن الإمامة انتقلت إلى ذرية نزار ورغم عدم وجود ذرية له، فادعى أن جارية لنزار كانت حاملاً وتم تهريبها من مصر إلى قلعة «الموت» التى استولى عليها الحسن بن الصباح لتكون عاصمة دولته ووضعت المحظية حملها وبقى فى طى الكتمان والسرية.

وتوفى الحسن الصباح عام ٥١٨هـ ١١٢٤م ولم يترك ذرية من نسله بعد أن قتل أولاده الذكور فى حياته.

وتولى الأئمة من بعده فى حكم قلاع الحشاشين فكان أولهم كيابزرك آمين ودخل فى معارك وحروب مع جيرانه من الأتراك السلاجقة، وامتدت فترة حكمه حتى عام ٥٣٢هـ ١١٣٨م وتولى أبناؤه وأحفاده حكم قلاع الحشاشين حتى نهاية دولتهم على يد هولاكو خان عام ١٢٥٦م ٦٥٤هـ.

ووصلت دعوة الاسماعيلية «الحشاشون» إلى الشام وامتلكوا القلاع والحصون وقاموا بالتعاون مع أعداء المسلمين من الصليبيين حتى إنهم حاولوا قتل صلاح الدين الأيوبى أكثر من مرة وكان زوال دولتهم على يد الظاهر بيبرس ورغم ذلك فلهم تواجد فى إيران والهند والشام وأواسط روسيا السوفيتية(١).

ومن قلاعهم فى الشام قلعة بايناس وحصن قدموس وحصن مصياف والكهف

(١) المصدر السابق.

والحوابى والمنيقة والقليعة.

ومن أشهر قادتهم فى الشام سنان بن سليمان المعروف برشيد الدين شيخ الجبل وهو القائل بعقيدة التناسخ وادعى علمه بالغيب وهو إمام الطائفة بالشام.

وأهم وسائل الإسماعيلية «الحشاشون» الاغتيال المنظم عن طريق تدريب الأطفال على الطاعة العمياء والايمان بكل ما يلقى إليهم حتى إذا اشتد ساعدهم يدربونهم على القتل بالخناجر، وقتل ما يريدون من الزعماء والوزراء والخلفاء المعارضين لهم ثم يقتل الفدائى نفسه إذا لم يستطع الهرب حتى لا يبوح بالأسرار.

ويؤمن الفدائى أنه سيدخل الجنة إن فعل ذلك وبهؤلاء الفدائيين المدربين قتلوا الوزراء والخلفاء وأشاعوا الرعب فى العالم الإسلامى، وكان مؤسس تلك السياسة مؤسس الطائفة الحسن الصباح.

وسبب تسميتهم بـ «الحشاشين» كثرة شربهم الحشيش المعروف والذين كانوا يزرعونه فى قلاعهم وحصونهم.

وتقول بعض المصادر التاريخية إن الرحالة الإيطالى «ماركو بولو» ١٢٥٤ - ١٣٢٤م هو أول من أطلق تلك التسمية عليهم حين زار قلعتهم «قلعة الموت» التى تبعد ١٠٠كم عن مدينة طهران وذكر أن الطائفة كانوا يقومون بعمليات انتحارية و،اغتيالات تحت تأثير تعاطيهم الحشيش.

ويرى البعض أن القصة ملفقة لاسم زعيم قلعة الموت حسن الصباح الملقب بشيخ الجبل وما قام به من عمليات اغتيالات وإن كلمة اغتيال مرادفها فى اللغة الانجليزية Assassin (أى حشاشين).

وقد استولى حسن الصباح زعيم الطائفة على قلعة «الموت» التى تقع جنوب غرب بحر قزوين والجبال المتاخمة له ومنها قام بشن غارات على شمال إيران ودولة السلاجقة ثم قام بحملات انتحارية لاغتيال القادة والزعماء من أهل السنة والمعارضين لمذهبه.

وحكامهم فى قلعة الموت هم:

١- حسن الصباح «شيخ الجبل» المولود فى عام ١٠٣٧م وتولى حكم الطائفة والقلعة

من عام ١٠٩٤ حتى عام ١١١٤م.

٢- بزرك أمير تولى الحكم من عام ١١٢٤م حتى عام ١١٣٨م.

٣- محمد بن بزرك أمير من عام ١١٣٨ حتى عام ١١٦٢.

٤- الحسن الثانى بن محمد بزرك من عام ١١٦٢ حتى عام ١١٦٦ وقد أعلن فى رمضان عام ٥٥٩هـ قيام القيامة، وأنهى الشريعة وأحكامها وأسقط التكاليف وأباح كل شىء وادعى أنه من نسل وذرية نزار بن المستنصر بالله.

٥- محمد الثانى بن الحسن الثانى من عام ١١٦٦م ٥٦١هـ حتى عام ٦٠٧هـ ١٢١٠م.

٦- جلال الدين الحسن الثالث بن محمد الثانى من ٦٠٧هـ ١٢١٠م حتى ١٢٢١م وقد أعلن كفره بما قاله آباؤه فى القيامة ولعنهم وكفرهم وأحرق كتبهم وجاهر بإسلامه وصادق الخليفة العباسى والزعماء المسلمين من أهل السنة وعرف أتباعه بالمسلمين الجدد.

٧- محمد الثالث بن الحسن الثالث ويعرف باسم علاءالدين محمود وتولى الحكم من عام ١١٢١م حتى عام ١٢٢٥م وقد عاد الناس من أهل الطائفة إلى ارتكاب المحرمات وقد اصيب بلوثة عقلية وقد تولى الحكم بعد أبيه وعمره تسع سنوات وكان الوصى عليه وزير أبيه.

وقد تآمر ابنه ركن الدين على قتله بواسطة حاجبه حسن المازندانى بسبب سوء معاملته له ولخلعه من ولاية العهد وقد نصب ركن الدين شيخاً للحشاشين بعده[1].

٨- آخر حكام قلعة الموت ركن الدين خورشاه تولى الحكم من عام ١٢٥٥م حتى قضى هولاكو على دولته عام ١٢٥٨م بعد أن سلم القلعة ثم قتله هولاكو بعد أن أعطاه الأمان غيلة عام ١٢٥٨م بناء على أمر ملك المغول منكوخان.

وبعده انقسمت الطائفة وظهرت منها الطائفة الأغاخانية، وذلك بعد أن استطاع ركن الدين خورشاه من تهريب ابنه شمس الدين محمد من بطش هولاكو الذى هرب إلى جهة مجهولة فى جنوب القوقاز واستقر بقرية انجودا على الطريق بين أصفهان وهمدان وبقى فيها إلى أن مات فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى.

(١) انظر «جامع التواريخ» رشيدالدين فضل الهمذانى.

كان وسيلة الحشاشين الاغتيال المنظم، وذلك عن طريق تدريب الأطفال على الطاعة العمياء والايمان بكل ما يلقى إليهم.

وعندما يشتد ساعدهم يدربونهم على الأسلحة ولم يتركوا فى منطقتهم مكاناً مشرفاً إلا أقاموا عليه حصناً، ولم يتركوا قلعة إلا ووضعوا نصب أعينهم احتلالها.

وقد امتلكوا عدداً من القلاع ووجهوا سهامهم تجاه المسلمين وقيادتهم وحاولوا اغتيال صلاح الدين الأيوبى عدة مرات.

وينقل ابن الجوزى صورة عنهم لشدة طاعتهم لأميرهم وتنفيذ أوامره فيقول: قال «أى الأمير» لجماعة من أصحابه أمام رسول ملك شاه السلجوقى إليه: أريد أن أنفذكم إلى مولاكم فى قضاء حاجة فمن ينهض لها؟

فاشرأب كل واحد منهم لذلك وظن رسول السلطان أنها رسالة يحملها إياهم فأومأ إلى شاب منهم فقال له: أقتل نفسك.

فجذب سكينه وضرب بها غلصمته فخر ميتاً.

وقال للآخر: أرم نفسك من القلعة.

فألقى نفسه فتمزق.

ثم التفت الأمير إلى رسول السلطان فقال: أخبره أن عندى من هؤلاء عشرين ألفاً هذا حد طاعتهم لى وهذا هو الجواب[1].

وهكذا أسفر خلع وقتل نزار كما سبق ذكره عن حركة أرهبت وأفزعت وطالت الفاطميين بالقاهرة والعباسيين ببغداد والسلاجقة بإيران يقودها الحشاشون الذين اتبعوا طريق القتل وسفك الدماء لكل من يخالفهم.

وكانت أول عملية اغتيال مارسها النزاريون «الحشاشون» هى قتل وزير السلاجقة نظام الملك سنة ٤٨٥هـ.

وقال صاحب حلب أبوالفداء: لما كان عاشر رمضان من هذه السنة بعد الإفطار وهم بالقرب من نهاوند وقد انصرف نظام الملك إلى خيمة حرمه وثب عليه صبى ديلمى فى

(١) انظر المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم - لابن الجوزى.

صورة مستعط، وضرب نظام الملك بسكين فقضى عليه، وأدرك أصحاب نظام الملك ذلك الصبى فقتلوه.. وكان قتله بتدبير من السلطان ملكشاه[1].

وقد دلت الوقائع على تعاون الحشاشين مع أعداء المسلمين وبخاصة الصليبيين، ومن تلك الوقائع:

١- عدم وقوع صليبى واحد من الغزاة أسيراً فى أيديهم أو مقتولاً بسلاح أحدهم.

٢- قاتلهم حاكم الموصل السلجوقى الذى حضر إلى دمشق لمساعدة إخوانه المسلمين فى رد هجمات الصليبيين.

٣-قيامهم بتسليم قلعة بانياس ولجوء قائدها إسماعيل إلى الصليبيين حيث مات عندهم.

٤- اشتراك كتيبة من الإسماعيليين مع الصليبيين فى أنطاكية بعد أن فتح نورالدين زنكى حلب.

وقد انطلقت دعوتهم من كرمان ويزد إلى أواسط إيران وأصفهان ثم خوزستان ثم هضبة الديلم، واستقرت فى قلعة الموت وشرقاً وصلوا مازندران ثم قزوين واحتلوا منطقة ردوبار وكوهستان.

واحتلوا كثيراً من القلاع وامتدوا إلى نهر جيحون، وامتلكوا القلاع والحصون على طول البلاد وعرضها.

وقد كان زوالهم فى إيران على يد هولاكو المغولى سنة ١٢٥٨م وفى سوريا على يد الظاهر بيبرس قائد المماليك سنة ٦٧٢هـ.

ولهم اتباع إلى الآن فى بعض البلاد الإسلامية والعربيه وفى أجزاء من أواسط ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى فى السابق.

ولاتزال أفكار بعض الجماعات التكفيريين تساير نفس أفكار جماعة أو طائفة الحشاشين الإسماعيلية وتمارس إرهابها الذى لا دين له ولا وطن.

---

(١) انظر المختصر فى أخبار البشر.

هولاكو وغزو قلاع الإسماعيلية «الحشاشين»

- الخطة السياسية المغولية قبل الغزو العسكرى لبغداد والبلاد العربية والإسلامية.
- تحطيم قلاع الملاحدة «الحشاشين» على أيدى «هولاكو».



الخطة السياسية المغولية قبل الغزو العسكرى

منذ أن تولى «منكو خان» أمر ملك المغول التتار وهو يخطط لاستكمال غزو البلاد الإسلامية عامة والقضاء على الخلافة العباسية خاصة، وكانت البداية القضاء على طائفة الإسماعيلية التى اطلقوا عليها اسم الملاحدة وكانت لهم قلاع كثيرة كما ذكرنا أهما قلعة «الموت» الشهيرة.

ومن أجل تحقيق هذا الهدف المنشود أرسل أخاه «هولاكو» وهو شخصية دموية تعشق سفك الدماء مثل جده جنكيزخان تماماً لأداء تلك المهمة.

وجمع منكوخان لهولاكو خيرة قادة المغول والجنود وقبيل تحرك الجيش بقيادة هولاكو أرسل المرشدين من رجال المخابرات لاختبار الطريق الذى سيمر به الجيش من قراقورم عاصمة بلاد المغول حتى شاطئ «جيحون» وأصدر تعليماته إلى جميع المزارع والمراعى على امتداد هذا الطريق بتسهيل مأمورية الجنود وإقامة الجسور على الأنهار.

وقبل تحرك هولاكو وجيشه فى ربيع عام ٦٥١هـ ١٢٥٣م أقام حفلة كبيرة لوداعه والجيش الذى سيقوده وقدم له النصيحة شارحاً له أهداف تلك الحملة قائلا له:

إنك الآن على رأس جيش كبير وقوات لا حصر لها، وينبغى أن تسير من فوران إلى إيران، وأن تحافظ على تقاليد جنكيزخان وقوانينه فى كل شىء، وحض كل من يطيع أوامرك ويتجنب نواهيك فى الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصى بلاد مصر بلطفك وبأنواع عطفك وإنعامك.

وأما من يعصيك فأغرقه فى الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل ما يتعلق به.

وابدأ بإقليم قهستان فى خراسان فخرب القلاع والحصون فإذا فرغت من هذه المهمة فتوجه إلى العراق وأزل من طريقك اللور والأكراد الذين يقطعون الطرق على سالكيها.

وإذا بادر الخليفة في بغداد بتقديم فروض الطاعة فلا تتعرض له مطلقاً أما إذا تكبر وعصى فألحقه بالآخرين(1).

وهكذا حدد «منكو خان» لأخيه «هولاكو» مهمته لغزو غرب آسيا وهى بلاد إيران أى عراق العجم وعراق العرب وبلاد الشام ومصر وبلاد سلاجقة الروم وجعله نائباً عنه فى البلاد التى يغزوها ويستولى عليها.

وتعد تلك الحملة من أضخم الحملات بعد حملة جنكيزخان الذى قادها لغزو بلاد الصين والدولة الخوارزمية.

وقد أمضى هولاكو صيف عام ٦٥٢هـ فى تركستان ثم توجه إلى سمرقند عام ٦٥٣هـ ثم قصد ولاية قهستان عام ٦٥٤هـ حيث قلعة «الموت» معقل الحشاشين.

وكان غزو وتدمير قلاع الملاحدة «الحشاشين» تأميناً للمرحلة التالية وهى غزو بلاد العراق والشام ومصر، فقد كان الحشاشون يمتازون بالقوة والصبر فى القتال فأراد منكوخان القضاء عليهم حتى يسهل على هولاكو غزو البلاد الإسلامية الأخرى.

ومما شجعه على القيام بتلك الحملة قدوم ملك أرمينيا المسيحية خاضعاً لمنكوخان حتى لا يغزو بلاده فصادقه منكوخان وأمنه على نفسه وأهله.

ولذلك كان من رغبة منكوخان أيضاً أن يعقد تحالفات مع أمراء الممالك الصليبية فى الشام، وكان لهم أكثر من مملكة فى أنطاكية وطرابلس وصيدا وحيفا وعكا، وذلك لشغل المسلمين فى منطقة الشام فلا يدافعون عن الخلافة العباسية إذا هوجمت.

ولتشجيع هؤلاء الأمراء فقد أوصل لهم منكوخان طلب التحالف مع «صديقه» الجديد ملك أرمينيا، والذى بدأ يقوم بدور السفير التترى فى هذه المنطقة.

ولزيادة التشجيع فإن منكوخان وعد الأمراء الصليبيين فى الشام بأن يعطيهم بيت المقدس «هدية» لهم فى حال اتفاقهم معه(2).

ومع كل هذا التشجيع إلا أن أمراء الممالك الصليبية بالشام ترددوا كثيراً فى قبول

(1) انظر جامع التواريخ - مصدر سابق.

(2) وكان بيت المقدس فى أيدى المسلمين وقتها بعد أن حرره الملك الصالح الأيوبى مرة ثانية عام ٦٤٣هـ بعد تحرير صلاح الدين الأيوبى.

هذه الاتفاقيات، باستثناء أمير أنطاكية «بوهمند» الذى استحسن هذا الأمر، وانضم فعلاً إلى ملك التتار.

أما لماذا لم يستحسن بقية الأمراء الصليبيين فى الشام هذه الفكرة فذلك لأنهم يعلمون أن التتار لا عهد لهم، وقد يبيعونهم دون ثمن، أو يضحون بهم فى مقابل أى شىء، أو ربما دون مقابل.

وأيضاً لأنهم فى قلب العالم الإسلامى وخطورة المسلمين عليهم كخطورة التتار، بل لعلها خطورة أقرب.. ومن ثم لم يتحمس هؤلاء الأمراء للتحالف المعلن مع التتار، وإن كانوا لم يرفضوا الأمر صراحة، وتعاملوا مع الطلب بالطريقة السياسية النفاقية المعروفة، مع شىء من الابتسامة وبعض كلمات التبجيل، واختاروا أن يقفوا على الحياد بصورة مؤقتة إلى أن ترجح إحدى الكفتين: التتارية أو الإسلامية.

وقد أرادوا أن يهلك الطرفان بعضهم بعضاً.

وسعى منكوخان أيضاً إلى عقد بعض الاتفاقيات مع نصارى الشام والعراق، وهؤلاء ليسوا من الأمراء أو الملوك، ولكنهم من النصارى الذين يعيشون فى كنف الإمارات الإسلامية فى الشام، أو فى الخلافة العباسية فى العراق، وهذه لم تكن اتفاقيات رسمية ولا معلنة، وإنما كانت اتفاقات سرية مع بعض رؤوس النصارى، ومع بعض القساوسة، وذلك لتسهيل مهمة دخول التتار إلى هذه البلاد، ولنقل الأخبار من وإلى التتار.

وقد نجح منكوخان فعلاً فى الوصول إلى عدد كبير من هؤلاء النصارى، وعلى رأسهم بطريرك بغداد شخصياً وكان اسمه «ماكيكا» وكان عاملاً مساعداً مهماً فى سقوط بغداد فى أيدى المغول.

وكذلك عقد منكوخان معاهدات مع مملكة الكرج النصرانية «توجد فى جورجيا الآن»، ومع أن تاريخ التتار مع مملكة الكرج كان تاريخاً أسود، إلا أن تاريخ الكرج مع المسلمين لم يكن أقل سواداً، ومن ثم فضل نصارى الكرج التعاون مع عدوهم الجديد التتار ضد عدوهم القديم المسلمين، وذلك لأن التتار لهم القوة الأعلى، ويغلب على الظن جداً أن ينتصروا.

ثم كانت المعاهدات التى عقدت مع بعض أمراء المسلمين لتسهيل ضرب بلاد المسلمين.

ولم يعقد منكوخان هذه المعاهدات بنفسه، لأنه استهان جداً بهؤلاء الأمراء، فقد كان كل واحد منهم لا يملك سوى بضعة كيلومترات، ومع ذلك يسمى نفسه أميراً، بل ويلقب نفسه بالألقاب الفاخرة مثل المعظم والأشرف والعزيز والسعيد وغير ذلك، كما هو الحال فى العالم العربى الإسلامى.

فقد وكل منكوخان أخاه هولاكو فى عقد هذه الاتفاقيات فجاء أمراء المسلمين الضعفاء يسارعون فى طلب ود المغول.

فقد جاء إلى هولاكو بدرالدين لؤلؤ أمير الموصل ليتحالف معه.

وجاء سلطانا السلاجقة وهما كيكاوس الثانى وقلج أرسلان الرابع ليتحالفا أيضاً مع هولاكو وكان فى مكان حساس جداً فهما فى شمال العراق «تركيا الآن».

وتحالفهما يؤدى إلى حصار العراق من الشمال، وقد كان أسلوب كيكاوس الثانى فى الخضوع إلى المغول مخزياً جداً إلى الدرجة التى صدمت التتار أنفسهم.

ورضخ أيضاً الناصر يوسف أمير حلب ودمشق ومع كونه حفيد الناصر صلاح الدين الأيوبى قاهر الصليبيين وكان مهيناً إلى الدرجة التى أرسل ابنه «العزيز» لا ليقدم إلى هولاكو فروض الطاعة فقط، بل ليبقى معه فى جيشه كأحد أمرائه يقاتل المسلمين المقاومين لجيش المغول.

وكذلك جاء الأشرف الأيوبى أمير حمص ليقدم ولاءه لهولاكو حين قدم الشام.

لقد كانت تلك الاتفاقيات هزيمة منكرة لقادة العالم الإسلامى أكبر من الهزيمة العسكرية وسقوط بغداد.

تحطيم قلاع الملاحدة «الحشاشين» على أيدى هولاكو:

تحرك جيش المغول بقيادة السفاح هولاكو عام ٦٥١هـ ١٢٥٣م نحو قلاع الحشاشين أو كما اطلقوا عليهم الملاحدة وقد احتفى به وبجنوده أمراء المناطق التى يمر بها، فيقدمون له الطعام والشراب والمؤن اللازمة لاستمرار تلك الحملة حتى وصل بعد عامين إلى سمرقند.

وفى مراعى سمرقند أقام مسعود بيك حاكم بلاد ما وراء النهر وتركستان خيمة

لهولاكو أقام فيها ما يقرب من أربعين يوماً لا يفيق من شرب الخمور.

ثم وصل إلى «كش» وهناك وفد عليه كبار قادة المغول فى تلك المنطقة يقدمون فروض الولاء والطاعة له ويقدمون له الهدايا.

ومن هناك أرسل الملوك والسلاطين فى إيران وإلى الخليفة العباسى فى بغداد فقال لهم:

بناء على أمر الخان قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وإزعاج تلك الطائفة فإذا أسرعتم وساهمتم فى تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم وسنحمد لكم مواقفكم.

أما إذا تهاونتم فى امتثال الأوامر فإننا حين نفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة فإننا لا نقبل عذركم ونتوجه إليكم فيجرى على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم(١).

وكان هذا الإنذار شديد اللهجة سيء الأدب مع الملوك والخلفاء المسلمين من قائد وثنى كافر سفاح همجى، له الأثر فى نفوس البعض من الحكام المسلمين حيث سارع السلاطين والملوك فى مملكة إيران وغيرها من الممالك المجاورة للخلافة العباسية إلى تقديم فروض الولاء والطاعة حيث يقيم هولاكو.

فأقبل من بلاد الروم السلطان عزالدين والسلطان ركن الدين. ومن بلاد فارس سعد ابن الأتابك ومظفرالدين ومن العراق وخراسان وأذربيجان وجورجيا جاءوا كلهم يحملون الهدايا لهولاكو خاضعين له.

أما الخليفة العباسى المستعصم بالله فى بغداد فقد أصابه الرعب والهلع حين قرأ الرسالة، وأراد مهادنة هولاكو وإرسال جيش يعاونه فى غزو قلاع الملاحدة إلا أن مستشاريه ووزراءه أشاروا عليه ألا يفعل ذلك خشية أن يقوم هولاكو بغزو بغداد وقد أفرغت من الجنود.

ولم يرسل الخليفة العباسى أى جنود من قبله للقتال مع هولاكو واعتذر له.

وكان الوزير ابن العلقمى وهو وزير الخليفة قد أشار عليه من قبل بتسريح جيش الخلافة والاكتفاء بمصانعة التتار فوافقه الخليفة وفعل ما أشار به عليه فأصبحت بغداد

(١) المصدر السابق.

بلا جيش، فى حين أن الوزير الخائن ابن العلقمى قد كاتب المغول وهولاكو وأطمعهم فيما بعد بغزو العراق والقضاء على الخلافة العباسية وسهل عليهم ذلك على أن يكون نائبهم فى بغداد(١).

عبرت قوات هولاكو عام ٦٥٣هـ نهر جيحون وعسكرت فى مرعى شبورقان بالقرب من مدينة «بلخ» وقضى فيها فصل الشتاء حيث حائت الثلوج التى تساقطت عليهم من الاستمرار فى طريقهم إلى قلاع الملاحدة.

وفى عام ٦٥٤هـ تحرك الجيش المغولى إلى ولاية قهمستان فاستولوا على أجزاء منها ثم توجهت فرقة مغولية نحو قلعة «كرده كوه» الحصينة فى حدودها، ثم حاصروا قلعة «مهرين».

وهكذا بدأ الحصار المغولى لقلاع الإسماعيلية الحشاشين.

وكان قائد هولاكو «كيتو بوقا نويان» يقوم بإدارة تلك الحرب، فأمر بإرسال القائد «هركتاى» على رأس فرقة مغولية لتخريب ولايتى طارم ورودبار حتى تكون عظة وعبرة للمحاصرين فى قلاع الحشاشين ففعلوا.

وقام كيتو بوقا ومعه بعض جنود المغول بإجراء مذبحة فى المنصورية وإله بشهين دمروا فيها تلك المدن وذبحوا أهلها فى ثمانية عشر يوماً.

وقامت حامية قلعة «كردكوة» بالإغارة على معسكر المغول حول قلعتهم وقتلوا منهم مائة مغولى فيهم أحد القواد المغول ويدعى بورى فاستشاط كيتو بوقا غضباً وقام بشن هجوم عنيف على كافة القلاع والحصون فى ولاية قهستان لإدخال الرعب فى نفوس الملاحدة الحشاشين ورغم ذلك صمدت حامية قلعة «كردكوة» ضد الحصار المغولى حتى قلت المياه لديهم ونفد الطعام وتفشى الوباء فيهم مات بسببه الكثير وأصبحت القلعة على

---

(١) كان الخليفة العباسى المستعصم بالله قد تولى الخلافة بعد وفاة أبيه المستنصر بالله عام ٦٤٠هـ وكان متدينا متمسكاً بالسنة مثل أبيه وجده ولكنه لم يكن مثلهما فى التيقظ والحزم وعلو الهمة، وركن إلى وزيره الخائن ابن العلقمى فلعب به وحرض التتار عليه.

وكان الخليفة السابق المستنصر بالله قد أكثر من الجند فجاء ابنه كى يسرح هذا الجيش فلقى مصيره على أيدى هولاكو وكان آخر الخلفاء العباسيين وقتيل التتار عام ٦٥٦هـ.

وشك السقوط فأرسل شيخ الطائفة الإسماعيلية علاءالدين بقوة قوامها مائة وعشرة من الفدائيين الملاحدة لنصرتهم.

وتمكن هؤلاء الفدائيون من الوصول إلى المحاصرين فى القلعة بعد اختراق صفوف المغول ومعهم بعض الأدوية المعالجة للوباء الذى تفشى فى المحاصرين[1].

واستمر حصار المغول لتلك القلعة الحصينة واستحال عليهم دخولها مع استبسال المدافعين عنها ولذلك قرر هولاكو اتباع سياسة المهادنة واللين والخداع فأرسل رسالة إلى قائد قلعة «سرنخت» ويطلق عليه «المحتشم» ناصرالدين أبوالفتح عبدالرحيم للدخول فى طاعته مع وعود خلابة إذا فعل ذلك!!

ومن العجيب أن المحتشم ناصرالدين وكان رجلاً عجوزاً ضعيف البدن قد امتثل لوعود هولاكو وقصده ومعه الهدايا وقدم له فروض الولاء والطاعة وقبل الأرض بين يديه فقال له هولاكو:

إنك نزلت من القلعة وقبلت الخضوع لإنقاذ حياة زوجتك وأبنائك، فلماذا لم ينزل معك سكان القلعة وتحثهم على التسليم.

فقال له ناصرالدين:

إن لهم ملكاً يدعى خورشاه[1] يأتمرون بأمره.

وهكذا نجحت خطة هولاكو السياسية الجديدة مع قادة الحشاشين الملاحدة، وتقدم إلى حدود زاوه وخوان فى خراسان، وفى تلك الأثناء أصابه المرض، فترك قيادة الجيش إلى «كيتو بوقا» و«ايلكا» كى يقضى فترة استشفاء فى مدينة «طوس» ثم المنصورية ثم إعادة تعميرها بعد هدمها وأقام فى مراعى «رادكان» حتى تحسنت صحته.

واستكمل هولاكو سياسة المهادنة فأرسل وفداً يضم كلا من بكتيمور فورجى وظهيرالدين سبلار البيتكجى وشاه أمير بعد استقر فى مدينة طبوشان إلى زعيم وملك الإسماعيلية الحشاشين ركن الدين خورشاه لحثه على الاستسلام والطاعة له.

---

(١) وكان هذا الدواء هو نبات الحناء حيث يتم نقعه في الماء ويشربه المريض فكان له تأثير عجيب في إحداث الشفاء السريع.

وقد كان زعيم الإسماعيلية الحشاشين أكثر خبثاً من هولاكو فراوغه وماطله فى الرد الحاسم عليه، فقام هولاكو بإرسال جيش من المغول للإغارة على القلاع وضرب معظمها إلا قلعتا «ميمون» و«الموت» فبث الرعب فى قلب ركن الدين خورشاه الذى كان متحصناً فى قلعة «الموت».

ومع اشتداد الحصار على قلعة «الموت» أرسل هولاكو رسالة ثانية إلى ركن الدين يحثه على الطاعة والتسليم وهدده فيها أشد التهديد، ورأى بعض مستشارى ركن الدين أن القلعة سوف تسقط فى أيدى المغول فأشاروا عليه بالتسليم لهولاكو وتأمين حياته وحياة أسرته فاستجاب لهم، فأكرم رسل هولاكو وأرسل أخاه الأصغر شاهنشاه مع طائفة من أعيان الاسماعيلية إظهاراً للخضوع والطاعة لهولاكو.

فأكرم هولاكو رسل ركن الدين وأرسل معهم رسالة يحثه على إظهار خضوعه له بتخريب القلاع والمثول بنفسه بين يديه.

فرد عليه ركن الدين بقوله:

- إذا كان أبى قد أظهر التمرد والعصيان فإنى أظهر الخضوع والطاعة.

وقام ركن الدين بتخريب أجزاء من القلاع وحطم أبراجها وهدم أسوارها وحصونها، وأرسل إلى هولاكو يطلب مهلة عام يغادر بعدها قلعة «الموت».

وكان ركن الدين يريد مماطلة هولاكو وكسب الوقت لصالحه لكن هولاكو أفسد عليه خطته فأمر جيوشه بالتجمع من كل البلاد المجاورة وشكل جيشاً كبيراً ضخماً من حيث تعداد الجنود لإخافة ركن الدين وأرسل إليه قائلاً:

لقد عقدنا العزم أنه إذا ما جاء خورشاه بنفسه لاستقبالنا، فإننا سنعفو عنه رغم جرائمه العديدة.

وأرسل ركن الدين وزيره كيقباد الذى تعهد لهولاكو بتخريب جميع قلاعهم والتمس منه أن يرجئ رحيل ركن الدين لمدة عام.

وأرسل ركن الدين إلى محتشم قلعة كردكوه وقهستان يأمرهما بالطاعة لهولاكو ظلت

(١) يقصد زعيم طائفة الاسماعيلية الحشاشين ركن الدين خورشاه الذى تولى بعد مقتل أبيه علاء الدين، انظر جامع التواريخ.. مصدر سابق.

المناورات والمحاورات بين هولاكو وركن الدين الذى ظل يماطل فى النزول من قلعته لهولاكو حتى عام ٦٥٤هـ وعلى وجه السرعة قام هولاكو بالتوجه إلى «فران» وحاصر قلعة شاه فى طريقه واستولى عليها فى يومين، وأرسل إلى ركن الدين يحثه على الإسراع فى التسليم والنزول إليه لأنه يدرك عدم استطاعته بما أوتى من قوة إسقاط قلعة «الموت» التى يتحصن فيها ركن الدين فقد كانت قلعة حصينة منيعة عالية فوق الجبال، والموت هى ناحية جبلية تابعة لمنطقة قزوين فى الشمال الشرقى تقع بين سلسلة جبال البرز، ويمر فيها نهر شاهرود.

وأرسل ركن الدين خورشاه ابنه الصغير البالغ من العمر ثمانية أعوام ومعه طائفة من كبار الأعيان الإسماعيلية فأكرم هولاكو وقادتهم وأذن لابن ركن الدين بالعودة وقال للرسل:

إذا لم يستطع ركن الدين أن يحضر سريعاً فإن عليه أن يرسل أخاه الآخر حتى يعود شاهنشاه الذى بقى ملازماً لنا فترة طويلة[١].

وكان ذلك فى شهر رمضان ٦٥٤هـ فأطاع ركن الدين هولاكو وأرسل إليه أخاه الأصغر شروانشاه وأصيل الذين وثلاثمائة من كبار القوم فقابلوا هولاكو فى ضواحى «الرى» فى شهر شوال من نفس العام.

وعاد الوفد إلى ركن الدين بقلعة «الموت» ومعهم رسالة منه نصها:

«نظراً لما أظهره ركن الدين من الطاعة والخضوع فقد عفوت عما ارتكبه أبوه وأتباعه من جرائم وأخطاء، وحيث إنه لم يصدر أى جرم من ركن الدين نفسه خلال المدة التى حل فيها مكان أبيه، فإنه إذا خرب القلاع فسوف يأمن بأسنا من جميع الوجوه».

وقد ذكر الجوينى فى كتابه «تاريخ فاتح العالم» وكان ممن صحب هولاكو فى تلك الحروب فقال: ومع أن الملك - يقصد هولاكو - حاذق وواثق من قوته واقتداره فإنه كان يسعى إلى عدم تحميل جيشه المشقة فأرسل وفده إلى ركن الدين يعلمه بوصوله إليه ويستميله إليه هو وقومه وقال له:

«إن كان الوسواس حتى هذه اللحظة يقلقك وإن كان تفكيرك قاصراً لصغر سنك

---

(١) المصدر السابق.

وغفلتك فقدر ما حولك قبل أن تشتد عليك الوطأة، كالنمل: «لا يحطمنكم سليمان وجنوده» بقوم كالنمل.

أما إذا أردت أن تبدل حكم الآية: «ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده» بالقول: «اخرجوا من أماكنكم» أو أنك أردت الحفاظ على وصية الصباحى: «عليكم بالقلاع» بدلاً من: عليكم بالانقلاع عنها، فأعلم أنك ستضيع فى القلعة، وبسبب سوء تدبيرك وكذلك ستبلغ مرحلة الهلاك وتستعيض عن ساحل النجاة بالبلية.

فقد ولت المواعيد والوعود التى كنت تسعى بها إلى الإبقاء على روحك وقومك.

بل إننا بمهتنا العالية قد نفض الطرق ونعفو عنك على علاتك[1].

واستمر هولاكو فى حصار قلعة «الموت» وينتظر استسلام ركن الدين ونزوله من القلعة الحصينة حتى إن بعض أمراء المغول أشاروا على هولاكو بفك الحصار مؤقتاً فى السنة المقبلة وقالوا:

إننا فى وقت الشتاء وحيواناتنا نحيلة عجفاء، والعلف معدوم ويجب المبادرة بنقل العلف من ناحية بلاد الأرمن أو حدود كرمان فمن الأفضل أن نعود إلى قواعدنا.

لكن القائدين العسكريين بوقاتيمور وكيتوموقا أشارا بمواصلة الحصار مهما كانت النتائج فمال هولاكو إلى رأيهما وأرسل رسالة شديدة اللهجة إلى ركن الدين للنزول من القلعة والاستسلام خلال خمسة أيام وإلا عليه أن يستعد للموت هو ومن معه.

ومرت المهلة التى حددها هولاكو ولم يستسلم ركن الدين، فأمر هولاكو مهندسين بدراسة مداخل ومخارج القلعة حتى يتبين له مناطق الضعف والقوة ويأمر بقذفها بالمناجيق والحجارة.

وبالفعل شن هولاكو هجوماً على مناطق الضعف فى القلعة وقذفها بالحجارة والنبال فتساقط المدافعون عنها صرعى واستمر الحال أربعة أيام.

وعلى إثر هذا الهجوم بالمجانيق كانت تمثل سلاح المدفعية البعيدة المدى فى زماننا استشار ركن الدين من معه فأشاروا عليه بالاستسلام.

(١) تاريخ فاتح العالم - عطا ملك الجوينى، وهو من وزراء هولاكو وأسرته من أصل فارسى مسلمة كانت تعمل فى بلاط جنكيزخان وأولاده أى أنهم كانوا مسلمين.

وبالفعل استسلم ركن الدين ومن معه ونزل من القلعة وتوجه إلى هولاكو وكان ذلك فى شهر ذى القعدة عام ٦٥٤هـ، فقابله هولاكو ورحب به وأكرمه ووعده بالعفو، وأرسل من قبله من يتسلم القلعة والإتيان بما فى كنوزها من أموال وكنوز وكان ركن الدين وقتها يسكن قلعة ميمون.

وقام المغول بدخول القلعة وهدم أبنيتها وأسوارها وأبراجها، ورغم استسلام ركن الدين ومن معه إلا أن بعض جنوده من الفدائيين تصدوا بفدائية للمغول وصعدوا أعلى قبة نصر ركن الدين فقام الجنود المغول برميهم بالحجارة عبر المنجانيق ثلاثة أيام حتى قتلوهم وأبادوهم عن آخرهم وانتهى أمرهم.

وأرسل ركن الدين مع المغول رسولا من عنده إلى قلعة «الموت» بحث المدافعين عنها على الاستسلام لكن قائد القلعة رفض الأمر وأصر على المقاومة.

فأمر هولاكو بشن الهجوم على قلعة «الموت» دون جدوى لحصانتها وقوة تحصينها ووجودها فى أعلى الجبال.

فلجأ هولاكو إلى حيلة المهادنة فأرسل إليهم يؤمنون على حياتهم حتى نزل قائد القلعة وسلمها لهم.

فقام المغول باستسلامها وتحطيمها ثم دخلها هولاكو وجنوده وقد انبهروا بما رأوه من تحصينات القلعة التى استعصت على الكثير من الملوك الذين حاصروها قبل ذلك.

وقد حاصر السلطان ابن ملكشاه بن أبى أرسلان هذه القلعة «الموت» فى عهد الحسن الصباح مدة إحدى عشرة سنة مع قلة عدد سكان القلعة وقلة عدتها ولم يستطع دخولها.

وحتى هولاكو لم يستطع دخول القلعة إلا حين استسلم أهلها وقائدها له أما إذا استمر حصارها ورميها بالمنجانيق وغيره من أسلحة ذلك العصر لما استطاع أن يدخلها لمكانها أعلى الجبال الشاهقة وكان استسلام قائد القلعة بعد استسلام زعيمه ركن الدين.

وقد ذكر الجوينى وصفاً للقلعة حين دخلها مع هولاكو فقال:

لقد كان البناء الداخلى للقلعة أكثر مما يتصوره العقل.

فقد بنيت بناء محكماً من داخلها وخارجها. ومن مراقبها ومعارجها، وحصصت جدرانها ورصصت بناياتها حتى قيل إن الحديد لم يكن ليؤثر فيها وقد شرعوا بتهديمها.

ولم يحفر قيد سن واحد فيها، فقد نقروا الأحواض ليملأوا بها الخمور والخل والعسل وكثيراً من المائعات والجامدات.

وفى أثناء نهب الخزائن وجمعها غطس أحدهم فى حوض العسل ولم يبلغ قاعه[1]!!

وقام المغول التتار كعادتهم بأعمال التخريب والهدم والتدمير للقلعة بصعوبة بالغة حتى إنهم اضطروا إلى حرق سقوف الأبنية ثم هدمها حتى صارت القلعة كومة من الحجارة وأثراً بعد عين.

وتوالى سقوط باقى قلاع الحشاشين الإسماعيلية أو الملاحدة كما كان يسميهم المغول إلا قلعة «لمبسر» التى خلت تقاوم الحصار الذى ضربه المغول عليها لمدة عام حتى انتشر بينهم وباء قضى عليهم وأهلكهم ونزل ما بقى منهم وسلموا أنفسهم للجيش المغولى الذى حاصرهم بقيادة «طايربوقا».

وأما ركن الدين فقد وهبه «هولاكو» فتاة مغولية ليتزوج بها واختار له مدينة قزوين بالإقامة بها مع حاشيته وكان الإبقاء عليه حياء حتى يتم استسلام باقى القلاع التابعة لطائفته فى إيران وأيضاً فى بلاد الشام.

وطلب ركن الدين من هولاكو إرساله إلى منكو خان لمقابلته وتقديم فروض الولاء والطاعة له فوافق وأرسله مع حراسه المغول واشترط عليه إقناع أتباعه فى قلعة «كردكوة» بالاستسلام فوافق وفى الطريق إلى «منكو خان» فى العاصمة المغولية مر ركن الدين على القلعة وأشار إلى أتباعه بالاستسلام للمغول.

وحين وصل ركب ركن الدين إلى بخارى وعلم منكوخان بقدومه إليه أرسل رسالة شديدة اللهجة إلى أخيه هولاكو يأمر بقتل ركن الدين وحاشيته وكل طائفة الإسماعيلية «الحشاشين» وجاء فى رسالته:

«لماذا تحضرونه وتشقون بذلك عبئاً على الدابة التى يركبها، عجلوا بالخلاص من الداعية، وأريقوا دماء تلك الطائفة».

(١) تاريخ فاتح العالم – للجوينى مصدر سابق.

وبالفعل صدرت الأوامر من هولاكو بقتل ركن الدين وكل أسرته وكل من لاذ به وكذلك قتل وذبح من استسلم من أفراد الطائفة للمغول حتى بلغ من ذبح منهم أكثر من اثنى عشر ألفاً!!

قال الجوينى فى كتابه: وهكذا تطهر العالم الملوث بخبثهم، وعاش الناس بأمن وهدوء بلا خلاف أو عناء وهم يلجون بالثناء على الملك السعيد - يقصد منكوخان - الذى أشاد لهم هذا الخبر بإفناء هذه الفئة، وكذلك كان هذا العمل مرهم جراحات المسلمين وتدارك خللها الدينى.

والذين سيأتون بعدنا سيدركون مدى أذى هذه الجماعة ومدى ما كانوا يغرسونه من الفوضى ويبثونه من الرعب منذ أول ظهورهم حتى آخرهم وكيف كان الناس فى ضيق ليلاً ونهاراً وخوفاً من أفعالهم وهكذا انتهى أمرهم ذلك ذكرى للذاكرين وكذلك يفعل الله بالظالمين(١).

وكان نهاية أمر الملاحدة الإسماعيلية فى شهر ربيع الأول عام ٦٥٥هـ.

وتوجه هولاكو صوب الخلافة العباسية لاستكمال مسيرته التدميرية للعالم الإسلامى العربى كما سيأتى ذكره إن شاء الله.

وكان القضاء على طائفة الملاحدة مقدمة لسقوط بغداد فى العام التالى بسهولة أكثر من سقوط قلاع الملاحدة.

فقد أراد هولاكو تأمين الخطوط الخلفية حين يتقدم لغزو بلاد الإسلام من العراق إلى الشام ومصر حسب الخطة التى وضعها منكوخان له.

ورغم ما أحدثه الملاحدة الإسماعيلية من قتل وإشاعة الفوضى فى ديار الإسلام إلا أن ما فعله المغول التتار فى بلاد المسلمين أشنع وأفظع تقشعر منه الأبدان، وقد ذكرنا به هولاكو العصر الحالى بوش الابن حين قام بغزو العراق عام ٢٠٠٣م وحتى الآن.

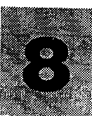
---

(١) تاريخ فاتح العالم للجوينى - الذى كان يعمل لصالح المغول رغم أنه كان على دين الإسلام إلا أنه كان خائناً لدينه وأهله وكان شره على الإسلام مثل شر الاسماعيلية.

التخطيط

لغزو العراق

- بداية نهاية الخلافة العباسية منذ أن استعان خلفاؤها بالسلاطين الأتراك
- الخطة المتكاملة للغزو المغولي للعراق عام ٦٥٦هـ تطابق الخطة التي وضعها التتار الجدد عام ٢٠٠٣م



بداية نهاية الخلافة العباسية حين استعانوا بالسلاطين الأتراك فى حكم البلاد

فى عهد الخليفة المقتدر «٢٩٥ - ٣٢٠هـ» أشرفت الدولة العباسية على الانحلال والموت بظهور سلطان المستقلين فى أطراف الخلافة والثغور.

وهذه الدويلات التى أعلنت سلطانها فى أجزاء الخلافة الإسلامية، ليعلم ما وصلت إليه الحال من خلل وتفسخ وانحدار.

لقد قامت فى فارس دولة بنى بويه، وبسط الاخشيديون سلطانهم على مصر وسوريا، وأعلن الفاطميون سيادتهم فى أفريقيا والمغرب، وساد الأمويون فى أسبانيا، واستقل بنو ساسان فى خراسان وما وراء النهر، والقرامطة بمنطقة البحرين وما حولها من ثغور وبلاد.

واستقر الديلم فى جرجان وطبرستان.

وأعلن أحد أمراء العراق واسمه البريدى حكمه على البصرة وواسط.

وقامت دولة الحمدانيين فى الموصل وديار بنى ربيعة وقسم كبير من أراضى العراق.

وكانت الدولة الإسلامية تغلى غلياناً فى جحيم الاضطرابات والدسائس، كل منهم يحارب الآخر حرباً لا هوادة فيها، ويحفر مقبرة الخلافة بهذا التفكك الذى أطمع البيزنطيين أن يعيدوا الكَرَّة على بلاد الإسلام، فدخلوا كيلكيا وسوريا على يد القائد البيزنطى نقفور، الذى اشتبك فى معارك دامية مع سيف الدولة على أبواب حلب.

وكانت الخلافة الإسلامية تواجه خطرين: خطر الانقسامات الداخلية، وخطر هجمات الروم الخارجية، وشاءت الأقدار أن تتقد نيران هذه الاضطرابات، وقد عقمت الأرض عن أن تلد منقذا يقضى على هذه المطامع، وظلت الأمور بين أيدى خلفاء ضعاف أقصى أمنياتهم من الحياة بعض هذه الأموال التى يدرها العمال عليهم، لينعموا مرفهين برغد الحياة حتى جاء الترك فتلاعبوا بهم وأصبح منصب الخليفة رمزياً بالحكم ولا

يملك ويمكن قتله فى أى وقت.

وهؤلاء السلاجقة الذين امتد نفوذهم حتى وصلوا إلى بغداد أتراك ينتسبون إلى جدهم سلجوق، وينتمون إلى قبيلة تركية كبيرة تسمى «الغز».

وقد نزلوا على نهر «سيحون» واتصلوا بخدمة التركمان فى بلاد ما وراء النهر، وراح جدهم سلجوق يتقدم فى خدمة ملك الترك حتى وصل إلى قيادة الجيش، وكان بارع الحديث كريماً فاستمال الناس إليه، وجمعهم حوله، فانقادوا له وأطاعوه.

وخافت زوجة ملك الترك على زوجها منه، فأغرته بقتله، وعرف سلجوق ما يدبر له فى الخفاء، فجمع من حوله وسار بهم حتى مدينة «جند» وأقام هناك فى جوار المسلمين ببلاد تركستان.

ولما جاور سلجوق المسلمين وتعرف على أخلاق الإسلام أعلن إسلامه على مذهب أهل السنة، واعتنق الغز الإسلام معه.

وعندئذ بدأ فى غزو «كفار الترك» وكان ملكهم يأخذ إتاوة من المسلمين فى تلك الديار، فقطعها سلجوق وطرد نوابه، وكان لسلجوق من الأولاد أربعة هم: أرسلان، وميكائيل، وموسى، ويونس.

ولقد أعد سلجوق أبناءه وأحفاده للغزو والفتح، فلقد استطاع أحد أحفاده وهو «طغرل» أن يستولى على إقليم مرو خراسان سنة ٤٢٩هـ فى الشمال الشرقى من فارس، ثم استولى على نيسابور عام ٤٣٢هـ وعلى حران وطبرستان عام ٤٣٣هـ وعلى خوارزم عام ٤٣٤هـ واصبهان عام ٤٣٨هـ ١٠٤٧م.

واستمر «طغرل» يتقدم فى بلاد فارس والعراق، وفى سنة ٤٤٧هـ ١٠٥٥م وقف طغرل على رأس جماعة من جنده الأتراك أمام أبواب بغداد، كما وقف «بنو بويه» قبله، فسلمت له المدينة دون مقاومة، واستقبل الخليفة طغرل زعيم السلاجقة كما استقبل أحمد أبا شجاع من قبل، وراح الخليفة العباسى «القائم» يعترف بطغرل سلطاناً ويمنحه لقب «ملك المشرق والمغرب».

وتدفقت القبائل التركية على العراق بعد انتصار طغرل، ولقد سخر السلاجقة مركزهم - إلى جانب الخلافة العباسية - لخدمة الإسلام، فراحوا يعملون على توسيع

سلطانه، ولم يكن هدفهم تقوية مركز الخليفة العباسى، وإنما عمدوا إلى نشر المذهب السنى الذى دانت به الخلافة العباسية، ومحاربة الشيعة الفاطميين، أملاً فى إعادة وحدة الأمة ومواصلة نشر الإسلام فى أرمينيا وآسيا الصغرى.

ويحسب لهم أنهم احترموا منصب الخلافة، وأجَلُّوا الخلفاء واحترموهم، فلم يسيئوا إليهم، ولم يعتدوا عليهم كما كان الأتراك فى العصور السابقة.

وتولى «ألب أرسلان» ابن أخى طغرل القيادة العليا للجيوش السلجوقية سنة ٤٥٦هـ ١٠٦٣م وجعل جيشه ثلاث شعب: شعبة سارت إلى الشام، وشعبة ثانية إلى بلاد العرب، وكلتاهما تابعة للدولة الفاطمية الشيعية.

أما الشعبة الثالثة فقد كان هو رأسها واتجه بها نحو «أرمينيا الصغرى» و«آسيا الصغرى» وهى «بلاد الروم» كما كان يسميها المؤرخون المسلمون.

واستولت الجيوش السلجوقية على «حلب» سنة ٤٦٣هـ ١٠٧٠م واستعادت «مكة» و«المدينة» بعد ذلك بقليل، بينما انتصر «ألب أرسلان» على الإمبراطور البيزنطى «رومانوس ديوجينيس» عام ٤٦٤هـ ١٠٧١م فى موقعة «ملاذكرد» فى الشمال الشرقى من بحيرة «فان» وأباد معظم الجيش البيزنطى حتى باتت آسيا الصغرى تحت سيطرته.

فانتشرت جيوشه فيها إلى قرب «البسفور» و«الدردنيل» ومن هذه الفتوح تأسست دولة سلاجقة الروم فيما بعد.

ويموت ألب أرسلان عام ٤٦٥هـ ١٠٧٢م مقتولاً، وقد قال وهو على فراش الموت: «ما كنت قط فى وجه قصدته ولا عدو أردته إلا توكلت على الله فى أمرى، وطلبت منه نصرى، وأما فى هذه النوبة فإنى أشرفت من تل عال فرأيت عسكرى فى أجمل حال، فقلت أين من له قدرة مصارعتى وقدرة معارضتى وأنى أصل بهذا العسكر إلى آخر الصين فخرجت علىَّ منيتى من الكمين».

وهكذا اتسعت رقعة الدولة السلجوقية عاماً بعد عام، وعلى الرغم من أن السلطة الفعلية فى بغداد كانت لهم، فإنهم لم ينتقلوا من «أصفهان» إلى «بغداد» ويتخذوها عاصمة لهم إلا سنة ٤٨٤هـ ١٠٩١م وكان ذلك فى عصر ملكشاه السلجوقى.

وفى عهد ملكشاه بلغت الدولة السلجوقية أقصى عظمتها، فبنى ملكشاه المساجد،

وأنشأ الخانات «الفنادق» على طرق القوافل لنزول المسافرين، ومهد طرق الحجاج إلى مكة، وزودها بالحرس.

وأمر بتجميل بغداد وتنظيمها، وإقامة شبكة لتصريف مياه الحمامات إلى غير نهر دجلة.

وكان يساعده فى إدارة المملكة وزيره «نظام الملك» الذى ألف كتاباً فى «فن الحكم» يعرف باسم «سياسة نامة» وراح يشجع الشخصيات المشهورة فى العلوم والآداب، فتمتع «عمر الخيام» بعطفه، وهو العالم الكبير، وأنشأ المجامع العلمية فى بغداد، وأشهرها المدرسة النظامية التى تم بناؤها سنة ٤٦٠هـ ١٠٦٧م، وحسب هذه المدرسة التى أنشأها نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقى أن من تلاميذها السعدى مؤلف «بستان السعدى» وعمادالدين الأصفهانى وبهاءالدين بن شداد «الذى كتب سيرة صلاح الدين»، وهما اللذان خدما صلاح الدين والدولة الأيوبية فى مصر، وعبدالله بن تومرت الذى أسس دولة الموحدين فى أفريقيا والمغرب.

ومن أساتذتها أبوإسحاق الشيرازى مؤلف كتابى «المهذب» و«التنبيه» فى الفقه الشافعى، والغزالى العالم الكبير المتصوف.

وإذا كانت عظمة السلاجقة قد استندت إلى ما قاموا به من أعمال، وإلى شخصية سلاطينها، فإن الدولة قد أخذت فى التفكك بعد وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥هـ ١٠٩٢م.

ولم تظهر بعد ذلك من البيت السلجوقى شخصية قوية تملأ فراغ ملكشاه، وراح أبناء البيت السلجوقى يقتسمون تلك المملكة الواسعة الأطراف، ويستقل كل منهم بنصيبه منها.

وفى ظل هذا التفكك ساد الضعف، واضطربت الأحوال لكثرة الحروب الداخلية إلى أن زال نفوذها سنة ٥٩٠هـ ١١٩٤م وهكذا الأيام تذهب دولة لتأتى أخرى، فقد حلت محل دولة السلاجقة دولة «الأتابكة» بالعراق وفارس.

كما حلت دولة الأتراك العثمانيين محل السلاجقة الروم بآسيا الصغرى سنة ٧٠٠هـ ١٣٠٠م.

كلما ذكرنا «سلاجقة العراق وكردستان» الذين حكموا من سنة ٥١١هـ ١١١٨م إلى سنة ٥٩٠هـ ١١٩٤م لا يمكن أن ننسى السلاجقة العظام الذين كانوا يحكمون فارس

والأهواز والرى وخراسان والجبل من سنة ٤٢٩هـ ١٠٣٨م وحتى عام ٥٥٢هـ ١٠٦٠م من أسرة خوارزم شاه.

وهكذا أصبحت الدول الإسلامية التابعة إسمياً للخلافة العباسية ممهدة للغزو المغولى التترى ولاسيما بعد سقوط دولة الخوارزميين والإسماعيلية «الحشاشين» الملاحدة، وانتهاء دولة السلاجقة فى إيران، وسيطرة السلاطين الأتراك على الدولة العباسية كما ذكرنا.

ولهذا جاء هولاكو فوجد دولة الخلافة فى بغداد من وزراء للخليفة متعاونين معه فى احتلال عاصمة ودرة الخلافة وتدميرها تماماً.

وما حدث بالأمس يحدث اليوم أيضاً فى بغداد حين أدت الخيانة والعمالة إلى احتلال العراق وسقوط بغداد وتدمير مدن العراق وقتل أبنائه كل يوم على أيدى التتار المغول الجدد فى القرن الواحد والعشرين.



الخطة المتكاملة للغزو المغولى للعراق عام ٦٥٦هـ تطابق الخطة التى وضعها التتار الجدد عام ٢٠٠٣م

كانت الخطة التى وضعها زعيم المغول منكوخان لأخيه جنكيزخان أساسها غزو العراق العربى والعراق العجمى ثم احتلال بلاد الشام ثم مصر، خطة متكاملة قامت على محاور عدة منها السياسى والعسكرى والنفسى وكان الأساس هو إنهاء الخلافة العباسية الرمزية فى بغداد بعد إنهاء مظاهر السيادة الإسلامية فى عراق العجم والدولة الخوارزمية.

وكانت الظروف مهيئة تماماً لنجاح خطة منكوخان التى نفذها هولاكو.

ففى الوقت التى سقطت قلاع الملاحدة أرسل هولاكو قائده بايجوا للبدء فى غزو بلاد العراق إلا أنه فشل فى تحقيق ذلك.

وكان اللقاء بين هولاكو وقائد فى همدان عام ٦٥٥هـ وصاح هولاكو:

لقد ذهبت فى نفس الوقت الذى ذهب «جرماغون» فماذا فعلت عندما حللت محله فى إيران وكم جيش قهرت، وما العدد الذى أخضعته؟ أنك لم تفعل شيئاً سوى أنك رحت تخوف القوات المغولية بالمبالغة فيما عليه الخليفة من قوة وعظمة(١).

وأجاب القائد المغولى وهو يرتعد خوفاً من «هولاكو»:

إننى لم أقصر وإنما بذلت كل ما فى وسعى، وأخضعت الأقاليم الممتدة ما بين الرى حتى حدود الشام ما عدا بغداد فإنها بسبب كثرة سكانها وجيشها وما لديهم من الأسلحة والطرق الصعبة التى يجب سلوكها قبل الوصول إليها.

كل هذا أدى إلى عدم تحقيق النصر وغزو بغداد(٢).

وأمر هولاكو قائده «بايجو» بالسير نحو دولة السلاجقة والروم فى آسيا الصغرى

(١) جامع التواريخ - مصدر سابق.

(٢) المصدر السابق بتصرف يسير.

لإخضاعها والقضاء عليها تمهيداً لغزو بغداد والعراق العربى كله.

وقام «بايجو» بما كلف به واستطاع هزيمة جيش سلطان السلاجقة الروم كيخسرو ابن علاءالدين فى معركة كبيرة فى «كوشة داغ» واستولى على بلادهم وقام بتخريب مدنهم وقتل من استطاع منهم.

وفى نفس الوقت كان هولاكو يستكمل خطته لغزو بغداد دارالخلافة العباسية بعد أن استفاد من ملاحظات قائده «بايجو» وجد جيش إسلامى يحمى دارالخلافة الإسلامية فاتصل بالوزير مؤيدالدين بن العلقمى الوزير الأول للخليفة العباسى المستنصر بالله والذى كان يكره الخليفة حيث إنه كان متشيعاً وقد حدثت فتنة بين أهل الشيعة والسنة فى بغداد كان من ورائها جواسيس المغول الذين سبقوا الغزو المغولى بسنوات لهذا السبب نجحوا فى مهامهم من إحداث الفتنة بين طوائف المسلمين، وقد فعل التتار الجدد أيضاً ذلك حين قاموا بغزو العراق مؤخراً مع أن الكل مسلمون.

وقد ذكر ابن كثير - رحمه الله - أحداث تلك الفتنة فى كتابه «البداية والنهاية» فقال عن أحداث عام ٦٥٥هـ: وفيها كانت فتنة عظيمة ببغداد بين الشيعة وأهل السنة، فنهب الكرخ ودور الشيعة حتى دور قرابات الوزير ابن العلقمى، وكان ذلك من أقوى الأسباب فى موالاته للتتار.

وقد أراد ابن العلقمى من خيانته لدينه ووطنه وتحالفه مع هولاكو أن يجعل شيعته فى سدة الحكم وقد وعده هولاكو بذلك.

وكانت خطة هولاكو تقضى بإضعاف جيش الخلافة وهذا ما قام به ابن العلقمى حين أشار على الخليفة بتسريح معظم الجنود والاكتفاء بالتصالح مع المغول وكانت تلك الخطة قبل الغزو المغولى.

وقد تم له ما أراد وأصبحت بغداد بلا جيش يدافع عنها.

وقد عمد هولاكو إلى أن يطلب من الوزير الفاسد مؤيدالدين بن العلقمى أن يقنع الخليفة العباسى المستعصم بالله أن يخفض من ميزانية الجيش، وأن يقلل من أعداد الجنود، وأن لا يصرف أذهان الدولة إلى قضايا التسليح والحرب.

بل يحول الجيش إلى الأعمال المدنية من زراعة وصناعة وغيرها، وقد قام الوزير

العميل بما طلب منه، والغريب أن الخليفة العباسى استجاب لتلك الأفكار وذلك كما أشار عليه الوزير حتى لا يثير حفيظة التتار، وليثبت لهم أنه رجل سلام ولا يريد الحروب.

وقام الخليفة فعلاً بخفض ميزانية التسليح، وقام أيضاً بتقليل عدد الجنود، حتى أصبح الجيش العباسى المسلم الذى كان يبلغ عدده مائة ألف فارس فى آخر أيام المستنصر بالله والد المستعصم بالله وذلك فى سنة ٦٤٠هـ، أصبح هذا الجيش لا يزيد على عشرة آلاف فارس فقط فى سنة ٦٥٤هـ.

وهذا يعنى هبوط مروع فى الإمكانات العسكرية للخلافة وأصبح الجنود فى حالة مزرية من الفقر والضياع، حتى إنهم كانوا يسألون الناس فى الأسواق.

وكذلك أهملت التدريبات العسكرية، وفقد قواد الجيش أى مكانة لهم، ولم يعد يذكر من بينهم من له القدرة على التخطيط والإدارة والقيادة، ونسى المسلمون فنون القتال والنزال، وغابت عن أذهانهم معانى الجهاد وأصبح الجو العام فى بغداد مهيئا لقبول الغزو المغولى.

وهكذا اشترك الوزير الخائن والخليفة المرتعب الضعيف الشخصية كما وصفه السيوطى فى كتابه «تاريخ الخلفاء» رغم تدينه إلا أنه كان ينقصه الحكمة فى اتخاذ القرارات المهمة.

وقام هولاكو بتجهيز الطرق المؤدية لبغداد فأصبحت كل الطرق الواصلة بين الصين والعراق قادرة على استيعاب الأعداد الهائلة من الجيوش التترية، وصنعت العربات اللازمة لنقل المعدات الثقيلة، وفرغت السهول والطرق من المواشى لترك الأعشاب لخيول التتار.

وسيطر التتار على كل المحاور المهمة فى المساحات الشاسعة التى تقع بين الصين والعراق، وبذلك تحققت مهمة تأمين الجيوش التترية أثناء سيرها واختراقها لهذه الأراضى.

إضافة إلى المعلومات الكافية عن أرض العراق وتحصينات بغداد، وأعداد الجنود العباسيين وحالتهم العسكرية، وتوفرت لدى هولاكو أيضاً المعلومات عن عناصر القوة والضعف فى الخلافة العباسية، وعن الأسماء التى لها دور فى تغيير مسار الأحداث، وكذلك جمع المعلومات عن حالة الناس النفسية، وعن طموحاتهم ورغباتهم.

كانت كل هذه المعلومات توفرت له عن طريق عيونه الكثيرة، ومخابراته الماهرة، واتصالاته مع بعض الرموز الهامة فى البلاد الإسلامية، والتى وصلت أحياناً إلى الاتصالات مع الأمراء والوزراء.

والأمر المخزى أنه تم الاتفاق مع معظم أمراء الممالك الإسلامية المحيطة بشمال وغرب العراق «تركيا وسوريا» على أن يعطوا الولاء الكامل، والمساعدة غير المشروطة لهولاكو، وذلك فى حال حربه مع الخلافة العباسية، وللأسف فمعظم هؤلاء الأمراء كانوا من الأكراد من أحفاد صلاح الدين الأيوبى - رحمه الله - كما ذكرنا من قبل.

وبعد أن تأكد هولاكو من انهيار الروح المعنوية عند المسلمين فى العراق وما حولها، واستوى فى ذلك الحكام والمحكومون، أعطى الإشارة لجيشه بالتقدم نحو بغداد وحصارها.

وقد تمت كل هذه الأمور واكتملت لهولاكو فى سنة ٦٥٤هـ.

وهكذا وبعد خمس سنوات من الإعداد أدرك هولاكو أن المناخ العام أصبح ملائماً للهجوم المباشر على الخلافة العباسية واسقاط بغداد، فبدأ عملية حشد هائلة للجنود التتار، ليجمع بذلك أكبر جيوش التتار على الإطلاق منذ قامت دولة جنكيزخان، بحيث كان الجنود المكلفون بحصار بغداد فقط أكثر من مائتى ألف جندى.

هذا بخلاف الأعداد الهائلة من الجنود المنتشرة فى شمال العراق وشرقه، والقوات المكلفة بحماية الطرق وتأمين الإمداد والتموين، هذا غير الفرق المساعدة للجيش سواء فرق الإمداد والتموين، أو فرق الاستطلاع والمراقبة.

تكوين جيش الغزو من قوات مشتركة:

كان الجيش التترى الأصلى يتمركز منذ سنوات فى منطقة فارس وأذربيجان شرق العراق قبل التقدم نحو بغداد.

فاستدعى هولاكو فرقة من جيش التتار المتمركزة فى حوض نهر الفولجا الروسى، والتى كانت تحت قيادة القائد التترى «باتو» ولكن باتو لم يأت بنفسه وانما أرسل ثلاثة من أبناء أخيه، وكان «باتو» وعائلته قد كونوا دولة مستقرة فى منطقة حوض نهر الفولجا،

وأطلقوا على أنفسهم اسم «القبيلة الذهبية» ومع استقلالهم النسبى فى إدارة أمورهم إلا أنهم كانوا فى النهاية يتبعون زعيم التتار «منكوخان».

أرسل هولاكو فى طلب فرقة من جيش المغول المكلف بفتح أوروبا، والذى كان يتمركز على أطراف الأناضول «شمال تركيا» فجاءت الفرقة وعلى رأسها القائد المغولى الكبير «بيجو» وقد جاءت هذه الفرقة مخترقة الأناضول وشمال العراق ومتجهة إلى بغداد، ولم تلق أى نوع من المقاومة أثناء عبروها ذلك الطريق الطويل.

لأن حكام هذه المنطقة المسلمة كانوا قد أفرغوا المجال الأرضى لقوات التتار، فسارت فى أمان وسط إمارات الاناضول والموصل وحلب وحمص وهكذا كان التعاون مع المغول من القادة المسلمين.

وأرسل هولاكو إلى ملك أرمينيا يطلب المساعدة فجاءه «هيثوم» ملك أرمينيا بنفسه على رأس فرقة من جيشه، وكان ملك أرمينيا كما ذكرنا قد قدم فروض الولاء والطاعة للمغول.

وكذلك طلب هولاكو أيضاً من ملك الكرج أن يرسل فرقة للمساعدة فاستجاب له.

واستدعى هولاكو ألفا من الرماة الصينيين المهرة الذين اشتهروا بتسديد السهام المحملة بالنيران، واختار هولاكو على رأس جيوشه أفضل قواده «كتبغا نوين» وكان قائداً بارعاً فى القيادة والخطط وكان نصرانيّاً، وبذلك يستطيع التعامل مع الأعداد الكبيرة النصرانية المشاركة فى الجيش.

وهكذا ضم الجيش المغولى بين صفوفه ثلاثة من أمهر القادة العسكريين فى التاريخ وهم هولاكو وكتبغا وبيجو ولم يتكرر ذلك إلا فى العصر الحديث حين تم غزو العراق بواسطة التتار الجدد.

راسل هولاكو أمير أنطاكية «بوهمند» ولكن تعذر عليه أن يخترق الشام كله للذهاب إلى العراق، ولكنه كان على استعداد تام للحرب، فإذا سقطت العراق شارك فى إسقاط الشام.

والأدهى من ذلك أرسل الناصر يوسف أمير دمشق ابنه العزيز ليكون فى جيش هولاكو.

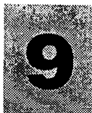
وأرسل أمير الموصل بدرالدين لؤلؤ فرقة مساعدة لجيش التتار، وهاتان الفرقتان وإن كانتا صغيرتين إلا أنهما كانتا تحملان معانى كثيرة، فقد أصبح فى جيش التتار مسلمون يشتركون مع التتار فى حرب المسلمين بل قد يشارك فى الغزو عراقيون متحالفون مع التتار، عراقيون باعوا كل شىء فى مقابل كرسى صغير أو إمارة تافهة أو دراهم معدودات، وقد تكرر هذا حين قامت أمريكا بغزو العراق بقوات مشتركة من المسلمين والنصارى واليهود والملاحدة، فالتاريخ يعيد نفسه ولكننا لا نتذكر.

وكما قال أعداؤنا عنا إن العرب لا يقرءون وإذا قرءوا لا يستوعبون عظات التاريخ.



الحرب النفسية والمخابراتية تسبق الغزو

- استخدام المغول وسائل الإعلام المتاحة فى عصرهم قبل غزوهم للعراق
- تشابه الحرب النفسية الأمريكية قبل غزو العراق وما فعله التتار المغول



الحرب النفسية والمخابراتية قبل الغزو

تلعب الحرب النفسية والمخابراتية فى الحروب قديماً وحديثاً دوراً مهماً فى انتصار الجيوش وهزيمتها.

وكان التتار المغول من الذين يقومون بحرب نفسية قبل غزوهم أى بلد إضافة إلى أن جواسيسهم كانوا يتقدمون جيوشهم وغالباً ما يكون هؤلاء الجواسيس من أهل البلد.

وهذا ما فعله هولاكو قبل غزوه للعراق واحتلاله لبغداد حين استمال إليه بعض رجالات الدولة وعلى رأسهم الوزير الخائن ابن العلقمى وغيره الكثير الذين كانوا من بطانة الخليفة وأعوان هولاكو.

فانتشرت الجواسيس فى بغداد تبث حرباً نفسية لا هوادة فيها وتنقل الأخبار إلى المغول ولذلك ضحك هولاكو حين أرسل إنذارا إلى الخليفة العباسى يتهدده ويتوعده إذا لم يطعه ويستسلم له.

لم يكن يعلم أن العالم من حوله من المسلمين والنصارى قد تحالفوا مع القوة العظمى الجديدة من التتار وظن أن لديه جيشاً يستطيع التصدى للجيش المغولى الذى صار على أبواب بغداد.

لقد اتفق المؤرخون أن الخليفة العباسى كان لين الجانب ضعيف الوطأة والبطش قليل الخبرة سيىء الرأى والتدبير وأحاط نفسه ببطانة السوء.

لقد كان أعداء الإسلام يخططون والخليفة العباسى ومن حوله فى غيهم يعمهون ويلعبون.

فقد قام هولاكو ومنكوخان بعقد الاتفاقيات مع الملوك النصارى ملوك أرمينيا والكرج وأنطاكية، وحيدوا إلى حد كبير جانب حكام الإمارات الصليبية بالشام، وأقاموا تحالفات سرية مع نصارى الشام والعراق.

وكذلك تحالفوا مع بعض أمراء المسلمين ومع الوزير ابن العلقمى.

ولاشك أن هذه الجهود الدبلوماسية كان لها دور ملموس فى إنجاح الخطة المغولية لإسقاط الخلافة الإسلامية، التى لم تتحمل أول ضربة من مطارق هولاكو عليها.

أما عن المسلمين بصفة عامة فكانوا يراقبون الموقف عن بعد وكأنه لا يعنيهم، أو وهم يشعرون بإحباط قاتل يمنع أى متحمس من القيام أو الحركة لنجدة الخليفة والخلافة حتى وجدوا جيوش على أبواب مدنهم.

بالإضافة إلى إعداد الطرق وتهيئة الوسائل اللازمة لضمان الإمداد والتموين للحملة التترية، وبالإضافة إلى الجهود الدبلوماسية الهائلة التى قام بها التتار لإنجاح خطتهم فى إسقاط الخلافة الإسلامية، فإن هولاكو لجأ أيضاً إلى سلاح رهيب وهو الحرب النفسية على المسلمين.

فأمر هولاكو بالقيام ببعض الحملات الإرهابية فى المناطق المحيطة بالعراق والتى لم يكن لها غرض إلا بث الرعب، وإحياء ذكرى الحملات التتارية الرهيبة التى تمت فى السابق فى عهود «جنكيزخان» و«أوكيتاى» فالحملة التترية الأولى والتى كانت فى عهد جنكيزخان مر عليها أكثر من ثلاثين سنة، وهناك أجيال من المسلمين لم تر هذه الأحداث أصلاً، وإنما سمعت بها فقط من آبائها وأجدادها.. وليس من سمع كمن شاهد.

أراد هولاكو أن يقوم ببعض النشاط العسكرى التدميرى والإرهابى بغرض إعلام المسلمين أن حروب التتار مازالت لا تقاوم.

وفى سنة ٦٥٠هـ قامت فرقة مغولية بمهاجمة مناطق الجزيرة وسروج وسنجار، وهى مناطق فى شمال العراق، فقتلوا ونهبوا وسبوا، ومما فعلوه فى هذه الهجمة أنهم استولوا على أموال ضخمة كانت فى قافلة تجارية، وقد بلغت هذه الأموال أكثر من ستمائة ألف دينار، واستغلوا هذه الأموال فى حروبهم التى خاضوها فيما بعد على العراق.

وكانت نوعاً من تجهيز الجيش المغولى بالمال والعتاد، وفوق ذلك كانت هذه الحملات تقوم بدور الاستطلاع والمراقبة والدراسة لطرق العراق وجغرافيتها.

إضافة إلى بث الرعب فى قلوب المسلمين، فكانت هذه الضربات السريعة بمثابة حروب الاستنزاف، فأضعفت من قوة الخلافة والمسلمين كثيراً، وهيأت المناخ للحرب الكبيرة القادمة.

واستخدم المغول وسائل الإعلام المتاحة فى عصرهم وكان يقودها بعض من أتباع التتار فى بلاد المسلمين يتحدثون فيها عن قدرات التتار الهائلة، واستعداداتهم الخرافية، ويوسعون الفجوة جداً بين إمكانات التتار وإمكانات المسلمين.

وتسربت هذه الأفكار عن طريق الجواسيس فى زمانهم وفى وسائل الإعلام التى كان يمثلها الشعراء والأدباء والقصاصون والمؤرخون، وقد ظهر فى كتاباتهم ما يجعل المسلمين يحبطون تماماً من قتال التتار ومما أشاعوه عن التتار أن أخبار الأمم تصل إليهم ولا تصل أخبارهم إلى الأمم، وهذا دليل على قوة المخابرات التترية، وحسن التمويه والتخفى عندهم، بالإضافة إلى ضعف المخابرات الإسلامية وقالوا للناس إن التتار إذا أرادوا غزو بلد كتموا أمرهم، ونهضوا دفعة واحدة فلا يعلم بهم أهل بلد حتى يدخلوه فدب الرعب فى قلوب الناس.

وقالوا إن التتار خيولهم تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق النبات، ولا تحتاج إلى الشعير فصدق الناس ذلك وظنوا أن التتار لا يحتاجون إلى الإمداد والتموين والمؤن فإنهم يتحركون بالأغنام والبقر والخيول ولا يحتاجون مدداً وأدخلوا فى نفوس الناس أن التتار يأكلون جميع اللحوم بما فيها لحوم البشر، ولاشك أن مثل هذه الكتابات كانت ترعب العوام.. وأحياناً تؤثر فى نفوس الخواص.

ومن أخطر ما فعله المغول التتار قديماً وحديثاً أيضاً كتابة الرسائل التهددية الخطيرة، وإرسالها إلى ملوك وأمراء المسلمين، وكان من حماقة هؤلاء الأمراء أنهم يكشفون مثل هذه الرسائل على الناس، فتحدث الرهبة من التتار، وكان التتار من الذكاء بحيث إنهم كانوا يستخدمون بعض الوصوليين والمنافقين من الأدباء المسلمين ليكتبوا لهم هذه الرسائل، وليصوغوها بالطريقة التى يفهمها المسلمون فى ذلك الزمان.

وهذا ولاشك يصل إلى قلوب الناس أكثر من الكلام المترجم الذى قد يفهم بأكثر من صورة، كما أن التتار حاولوا فى رسائلهم أن يخدعوا الناس بأنهم من المسلمين، وليسوا من الكفار، وأنهم يؤمنون بكتاب الله القرآن، وأن جذورهم إسلامية، وأنهم ما جاءوا إلى هذه البلاد إلا ليرفعوا ظلم ولاة المسلمين عن كاهل الشعوب البسيطة المسكينة وأنهم ما جاءوا إلا لتحرير بلادهم ومع أن بطش التتار وظلمهم قد انتشر واشتهر.

إلا أن هذا الكلام كان يدخل فى القلوب المريضة الخائفة المرتعبة، فيعطى لها المبرر

لقبول اجتياح التتار، ويعطى لها المبرر لإلقاء السيف، ولاستقبال التتار استقبال الفاتحين المحررين بدلاً من استقبالهم كغزاة محتلين.

ولهذا كانت بعض البلاد والقادة يستسلمون للمغول كما ذكرنا وهذا أيضاً ما فعله الخليفة ومن معه من الحكام.

وكذلك فعل التتار المغول الجدد وهولاكو الأمريكان حين قاموا بحرب نفسية ضد الشعب العراقى قبل غزو بلاده، وأوهموا الكثير منهم أنهم جاءوا لخير البلاد والعباد والقضاء على الحكام الطغاة والديكتاتور صدام حسين وأعوانه.

وقاموا بإرسال رسائل عديدة على شبكة الإنترنت وعلى التليفونات المحمولة وقاموا بالاتصال بقادة الجيش حتى يستجيبوا لهم وقاموا بترغيبهم وإرسال المال والوعود الكاذبة التى استجاب لها الكثير من قادة الجيش وغيرهم.

وحتى ظن الشعب العراقى أن الجيش الأمريكى والبريطانى وقوات التحالف قادمة لإنقاذه وتحريره وأنهم سيطبقون الديمقراطية وسيعم الخير على البلاد والعباد وهذا ما لم يحدث.

وما حدث أن البلاد تم تدميرها وقتل أهلها ونهب ثرواتها تماماً كما فعل التتار المغول فى عصر هولاكو.

فالدول المنهزمة يتم اختراقها وهزيمتها نفسياً ومخابراتياً قبل غزوها عسكرياً.

وقد ذكر المقريزى فى معرض حديثه عن عام ٦٥٤هـ أن خيانة ابن العلقمى كانت مبكرة للغزو حيث وصلت جواسيس هولاكو إلى الوزير الخائن ببغداد وتحدثوا معه ووعدوا جماعة من أمراء بغداد بعدة مواعيد، أما الخليفة كان فى لهوه ولعبه بالجوارى لا يعبأ بشىء.

إضافة إلى اتفاق ابن العلقمى مع نصرالدين القوسى الذى كان وزيراً لهولاكو وكان من المسلمين المتعاونين مع المغول وضمن جيوشهم الغازية لبلاد المسلمين.

ورغم اتفاق المؤرخين المعاصرين لغزو بغداد فى عهد هولاكو ولا يختلفون على خيانة

ابن العلقمى إلا ابن طباطبا ينفى عنه هذه التهمة ودليله أن هولاكو أبقاه فى منصبه بعد استيلائه على بغداد !!

وهذا الرأى يدعو إلى السخرية لأنه لا يتفق مع المنطق، لأن الأعداء يولون المناصب العليا فى البلاد التى يحتلونها إلى أتباعهم وأعوانهم من الخونة كما حدث فى العراق مؤخراً حيث تولى العراقيون المعارضون للنظام العراقى السابق المناصب العليا فى العراق بعد الغزو بعد أن جاءوا على دبابات القوات الأمريكية.

وقد اتفق المؤرخون على حدوث مراسلات ومكاتبات بين وفود ابن العلقمى وهولاكو وكان يحرر تلك الرسائل من هولاكو إلى الخليفة العباسى وزير هولاكو المسلم نصرالدين الطوسى وكان يطرز رسائله بالآيات القرآنية كما سيأتى فى إنذار هولاكو للخليفة قبل الغزو وهكذا كان يفعل أيضاً حنكيزخان.

وكان من وزراء هؤلاء من المسلمين الفرس الجوينى الذى حكم بغداد بعد الغزو ووزير هولاكو رشيدالدين فضل الهمدانى وقد ذكر الهمدانى فى العلاقة بين ابن العلقمى وهولاكو فى كتابه «جامع التواريخ».

وذكر أن ابن العلقمى هو الذى أطمع هولاكو فى غزو العراق وقتل الخليفة العباسى وطلب أن يكون نائبه على الأراضى التى يغزوها فوعده بذلك.

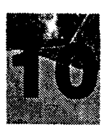
ومن أساليب الاتصال بين هولاكو وابن العلقمى المكاتبات السرية وإرسال الوفود والتجار الجواسيس.



الإنذار الأخير

قبل الغزو

- إنذار هولاكو خان للخليفة العباسى قبل الغزو ورد الخليفة عليه وتشابه ذلك مع الإنذار الأمريكى الأخير للرئيس العراقى قبل الغزو.



الإنذار الأخير قبل الغزو

قام هولاكو خان بإرسال إنذار للخليفة العباسى بعد أن تأكد لديه أن حملته العسكرية سوف تنتهى بالنصر له لا محالة.

وبعد أن أطمعه الوزير ابن العلقمى أن الخليفة العباسى جاهز لقبول الخضوع له.

وقد كان بعض مستشارى هولاكو يخشون وقوع غضب إلهى على جيش هولاكو إذا أقدم على قتل الخليفة العباسى الذى كان من نسل نبى المسلمين ﷺ.

فقد كان فى جيش هولاكو وبعض مستشاريه من يدين بالإسلام مثل الجوينى ورشيدالدين ويدركون أهمية وقدر الخليفة العباسى عند المسلمين ونسبه لرسول الله ﷺ إلا أن الوزير الحاقد على الخليفة والمضلل له أزال هذا الخوف من هولاكو وأوزع له بقتل الخليفة حين يقدر عليه ويقدم عليه ولا يبقى أحداً من أسرته.

أرسل هولاكو إنذاراً إلى الخليفة فى شهر رمضان عام ٦٥٦هـ جاء فيه:

لقد أرسلنا إليك رسلنا وقت فتح قلاع الملاحدة، وطلبنا مدداً من الجند ولكنك أظهرت الطاعة ولم تبعث الجند.

وكانت آية الطاعة أن تمدنا بالجيش عند مسيرنا إلى الطغاة فلم ترسل إلينا الجند والتمست العذر.

ولابد أنه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام ما حل بالعالم والعالمين على يد الجيش المغولى منذ عهد جنكيزخان إلى اليوم، والذى حاق بأسر الخوارزمية وملوك الديالمة وغيرهم ممن كانوا ذوى عظمة وشوكة وذلك بحول الله القديم الدائم.

ولم يكن باب بغداد مغلقاً فى وجه أية طائفة من تلك الطوائف واتخذوا منها قاعدة ملك لهم، فكيف يغلق فى وجهنا رغم ما لنا من قدرة وسلطان.

ولقد نصحناك من قبل والآن نقول لك: احذر الحقد والخصام ولا تقرب المخصف

بقبضة يدك ولا تطلخ الشمس بالوحل فتتعب.

ومع هذا فقد مضى ما مضى.

فإذا أطاع الخليفة فليهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه ويحضر لمقاتلتنا.

وإذا لم يرد الحضور فليرسل كلاً من الوزير وسليمان شاه والدوتدار ليبلغوه رسالتنا دون زيادة أو نقص.

فإذا استجاب لأمرنا فلن يكون من واجبنا أن نكن له الحقد وسنبقى له على دولته وجيشه ورعيته.

وأما إذا لم يصغ إلى النصح وآثر الخلاف والجدال فليعبئ الجند وليعين ساحة القتال فإننا متأهبون لمحاربته وواقفون له على استعداد.

فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك فاستمع لنصحى بمسمع العقل والذكاء، وإلا فسأرى كيف تكون إرادة الله(١).

وكان رد الخليفة العباسى على إنذار هولاكو يدل على عدم درايته بما يحدث حوله، فقد ظن أن عصا الحكم بيده وأن الجيش مازال كما كان على عهد أبيه كبيراً مستعداً للقتال، وقد أغراه الوزير ابن العلقمى بأن يظهر القوة فى رده على هولاكو حتى لا يطمع فيه وجعل معتقداً أنه يستطيع تخويفه بكلمات جوفاء فأرسل الخليفة إلى هولاكو يقول له:

أيها الشاب الحدث المتمنى طول العمر ومن ظن نفسه محبطاً ومتغلباً على جميع العالم، مغتراً بيومين من الإقبال متوهماً أن أمره قصاء مبرم وأمر محكم.

لماذا تطلب منى شيئاً لن تجده عندى؟!

ألا يعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب ومن الملوك إلى الشحاذين ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمن بالله ويعملون بالدين كلهم عبيد هذا البلاد وجنود لى.

إننى حينما أشير بجمع الشتات سأبدأ بحسم الأمور فى إيران ثم أتوجه منها إلى بلاد نوران وأضع كل شخص فى موضعه.

(١) المصدر السابق.

وعندئذ سيصير وجه الأرض جميعه مملوءا بالقلق والاضطراب غير أنى لا أريد الحقد والخصام ولا اشترى ضرر الناس وايذاءهم كما أننى لا أبغى من وراء تردد الجيوش أن تلهب ألسنة الرعية بالمدح أو القدح، خصوصاً وأننى مع الخاقان وهولاكو قلب واحد ولسان واحد.

وإذا كانت تزرع بذور المحبة فما شأنك بخنادق رعيتى وحصونهم.

فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان، وإن كنت تريد الحرب إن لى ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجال وهم متأهبون للقتال(١).

كان رد الخليفة دليلاً على عدم درايته بما يحدث حوله وخلفه وما دبره وزير السوء وبطانة السوء من حوله.

تماماً كما حدث عام ٢٠٠٣ حين أراد هولاكو القرن الحادى والعشرين بوش الابن الأمريكى غزو العراق وتذرع بحجج واهية منها أمنية وسياسية وديمقراطية وأوهم العالم كله أن النظام الحاكم فى العراق يملك أسلحة نووية وبيولوجية وأنه يهدد العالم وأرسل إنذاره الشهير إلى الرئيس العراقى الراحل ينذره ويتوعده ويأمره بالخروج من العراق وتسليمها لقواته، وكان رد النظام الحاكم فى العراق مثل رد الخليفة العباسى على إنذار هولاكو أيضاً.

فقد كان هولاكو يعلم أن الخليفة لا يملك شيئاً ولن يطيعه أحد من رعيته أو جيرانه من القادة المسلمين وأن بغداد لا يوجد بها جيش يدافع عن أسوارها، فكان رد الخليفة ساذجاً كما كان رد وزير الإعلام العراقى الصحاف الذى يذكرنى بالوزير ابن العلقمى حين أعلن أن الجنود الأمريكان سوف ينتحرون على أسوار بغداد وأوهم قائده وزعيمه بذلك.

وحين جاء الصباح كانت القوات الأمريكية داخل بغداد تعيث فى الأرض فساداً تدمر كل شىء وتسرق كل شىء وتقتل دون رادع واختفى الجيش العراقى فى لمح البصر.

هكذا فعل النظام العراقى الراحل كما فعل الخليفة العباسى فى مواجهته مع هولاكو وكما استعان الخليفة بالوزير الخائن استعان الرئيس العراقى الراحل أيضاً بالوزير الخائن

(١) المصدر السابق.

ابن الصحاف فقتل الخليفة العباسى وشنق الرئيس العراقى وعاش ابن العلقمى سنوات يتمتع بخيانته بعد أن عينه هولاكو نائبه على بغداد، ويعيش ابن الصحاف وأقرانه فى رغد من العيش ويستكمل أقرانه مسلسل الخيانة فى حكم بغداد باسم المحتل الأمريكى.

فما أشبه الليلة بالبارحة.

وكان رد هولاكو على الخليفة العباسى مقتضباً حاسماً جاء فيه:

إن الله الأزلى رفع جنكيزخان ومنحنا وجه الأرض كله من الشرق إلى الغرب، فكل من سار معنا وأطاعنا واستقام قلبه ولسانه تبقى له أمواله ونساؤه وأبناؤه ومن يفكر فى الخلاف والشقاق لا يستمتع بشىء.

لقد فتنك حب المال والجاه والغرور بالدولة الغائبة بحيث إنه لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين بالخير.

وإن فى أذنيك وقراً فلا تسمع نصح المشفقين ولقد انحرفت عن طريق آبائك وأجدادك وإذن فعليك أن تكون مستعداً للحرب والقتال.

وقال هولاكو لمن حوله:

إن إرادة الله مع هؤلاء القوم أمر آخر، إذا ألقى فى روعهم مثل هذه الأوهام.

لقد تعجب هولاكو من رأى الخليفة وأدرك أنه لا يعلم شيئاً عن أحوال رعيته وبلاده وأن بطانة السوء قد حجبت عنه الرؤيا تماماً.

إن بطانة السوء نقمة من الله على الحاكم وأن البطانة الحكيمة نعمة من الله كما قال ﷺ عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما استخلف خليفة إلا وله بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه الله»[1].

فلم يكن ما فعله ابن العلقمى وليد اللحظة وإنما لطول بقائه فى الوزارة قبل قدوم المغول بأربعة عشر عاماً من ٦٤٢هـ حتى ٦٥٦هـ وحين حانت الفرصة للقضاء على الخليفة لم يتردد طمعاً فى أن يجلس مكانه.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه.

واستكمالاً لمسلسل الخيانة أشار الوزير ابن العلقمى على الخليفة حين جاءه رد هولاكو أن يرسل الخليفة بالأموال والهدايا لهولاكو مع تقديم الاعتذار له عما جاء فى رسالته السابقة له.

وبالفعل وافق الخليفة على رأى الوزير وأرسل الهدايا رغم اعتراض بعض القادة من حول الخليفة على هذا الرأى الفاسد من ولكن الخليفة لم يستمع إليهم وأعمى الله بصيرته وطمس على عقله وقد استحوذ عليه الشيطان فتلاعب به كيف شاء ليقضى الله أمراً كان مفعولاً.

ورغم أن الخليفة العباسى قد استجاب لرأى وزيره وأرسل الهدايا إلى هولاكو ومعها رسالة اعتذار قال فيها:

لو غاب عن الملك فله أن يسأل المطلعين عن الأحوال إذ أن كل ما قصده أسرة بنى العباس ودارالسلام بغداد كانت عاقبة وخيمة ومهما قصدهم ذوو السلطان من الملوك وأصحاب الشوكة من السلاطين، فإن بناء هذا البيت محكم للغاية وسيبقى إلى يوم القيامة.

لكن الوزير أخبر هولاكو أن بنى العباس لا قيمة لهم فى الإسلام ولا خوف منهم وطمعه فيهم فرد هولاكو على الخليفة قائلاً:

اذهب واصنع من الحديد المدن والأسوار وارفع من الفولاذ الأبرج واجمع جيشاً من المردة والشياطين ثم تقدم نحوى للحصار والنزاع، فسأنزلك ولو كنت فى السماء وسأدفع بك غصباً إلى أفواه السباع(1).

وأنهى هولاكو حرب الرسائل الكلامية بينه وبين الخليفة العباسى وتجهز للغزو بجيش جرار لا قبل للخليفة به.



(1) جامع التواريخ - مصدر سابق.



واستكمالاً لمسلسل الخيانة أشار الوزير ابن العلقمى على الخليفة حين جاءه رد هولاكو أن يرسل الخليفة بالأموال والهدايا لهولاكو مع تقديم الاعتذار له عما جاء فى رسالته السابقة له.

وبالفعل وافق الخليفة على رأى الوزير وأرسل الهدايا رغم اعتراض بعض القادة من حول الخليفة على هذا الرأى الفاسد من ولكن الخليفة لم يستمع إليهم وأعمى الله بصيرته وطمس على عقله وقد استحوذ عليه الشيطان فتلاعب به كيف شاء ليقضى الله أمراً كان مفعولاً.

ورغم أن الخليفة العباسى قد استجاب لرأى وزيره وأرسل الهدايا إلى سولاكو ومعها رسالة اعتذار قال فيها:

لو غاب عن الملك فله أن يسأل المطلعين عن الأحوال إذ أن كل ما قصده أسرة بنى العباس ودارالسلام بغداد كانت عاقبة وخيمة ومهما قصدهم ذوو السد طان من الملوك وأصحاب الشوكة من السلاطين، فإن بناء هذا البيت محكم للغاية وس يبقى إلى يوم القيامة.

لكن الوزير أخبر هولاكو أن بنى العباس لا قيمة لهم فى الإسلام ولا خوف منهم وطمعه فيهم فرد هولاكو على الخليفة قائلاً:

اذهب واصنع من الحديد المدن والأسوار وارفع من الفولاذ الأبر ج واجمع جيشاً من المردة والشياطين ثم تقدم نحوى للحصار والنزاع، فسأنزلك ولو كنت فى السماء وسأدفع بك غصباً إلى أفواه السباع(١).

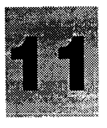
وأنهى هولاكو حرب الرسائل الكلامية بينه وبين الخليفة العباسى وتجهز للغزو بجيش جرار لا قبل للخليفة به.



(١) جامع التواريخ - مصدر سابق.

سقوط بغداد

- وصف سقوط بغداد ومقتل الخليفة العباسي وأهله وأهل بغداد.
- التشابه بين غزو بغداد قديماً أيام «هولاكو» وغزو المغول الأمريكان في التواريخ والنوايا والأفعال.
- ذكر بعض مظاهر الذلة والمهانة والاستسلام لبعض الحكام المسلمين لهولاكو بعد سقوط بغداد ٦٥٦هـ.



وصف سقوط بغداد ومقتل الخليفة العباسى وأهله وأهل بغداد

تجمعت الجيوش المغولية بقيادة هولاكو وأحاطت بأسوار بغداد.

وكان مجاهد الدواتدار قائد جيش الخليفة العباسى معسكراً بجنوده بين يعقوبة وباجسرى، ولما سمع بقدوم المغول إلى الضفة الأخرى للنهر عبروا نهر دجلة ودار قتال شرس مع القوات المغولية فى حدود الأنبار على باب قصر المنصور أعلى المرزقة على بعد تسعة أميال من بغداد العاصمة وذلك فى شهر الله المحرم عام ٦٥٦هـ ١٢٥٨م.

وانهزم جيش الخليفة وبلغ عدد القتلى ١٢ ألفاً من جنود الخليفة وغرق آخرون نتيجة إغراق المغول الصحراء بماء النهر بعد هدم أحد السدود المقام عليه.

وعلى إثر هزيمة جيش الخليفة فر قائد الجيش ومن بقى من الجنود إلى بغداد وهرب آخرون إلى المدن العراقية.

وفى يوم ٢٢ محرم عام ٦٥٦هـ شن المغول هجوماً كاسحاً على أسوار بغداد وحطموا أسوارها وانهارت المقاومة وأصبحت المدينة خاوية من أى مظاهر المقاومة.

وأرسل الخليفة إلى هولاكو بعلمه بموافقته على التسليم فرد عليه هولاكو:

إن هذا الشرط طلبته وأنا على باب همدان أما الآن فنحن على أبواب بغداد وقد ثار بحر الاضطراب والفتنة.

وفى يوم الجمعة ٢٦ من المحرم انهار آخر الأبراج وهو برج العجمى وانطلق التتار المغول كالإعصار داخل المدينة وفى يوم الإثنين ٢٨ محرم سقطت بغداد نهائياً فى أيدى المغول وأصبحت تحت رحمتهم يفعلون بها ما يشاءون.

وظل هولاكو خارج المدينة حتى قدم إليه الخليفة ذليلاً ومعه أهله وكبار القوم يوم ١٤ صفر عام ٦٥٦هـ.

وقد وصف المؤرخون ذلك السقوط المخزى لبغداد ومقتل الخليفة فنذكر ما ذكره ابن كثير فى كتابه «البداية والنهاية» فقال: استهلت عام ٦٥٦هـ وجنود التتار قد نازلت بغداد صحبة الأميرين اللذين على مقدمة عساكر سلطان التتار هولاكو خان، وجاءت إليهم أمداد صاحب الموصل يساعدونهم على البغاددة وميرته وهدايا وتحفه، وكل ذلك خوفاً على نفسه من التتار، ومصانعة لهم قبحهم الله تعالى.

وقد سترت بغداد ونصبت فيها المجانيق والعرادات وغيرها من آلات الممانعة التى لا ترد من قدر الله سبحانه وتعالى شيئاً، كما ورد فى الأثر: «لن يغنى حذر عن قدر»، وكما قال تعالى: ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخَّر﴾.

وقال تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾.

وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدى الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة حظاياه، وكانت مولدة تسمى عرفة، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهى ترقص بين يدى الخليفة.

فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعاً شديداً وأحضر السهم الذى أصابها بين يديه فإذا عليه مكتوب: إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوى العقول عقولهم.

فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز، وكثرت الستائر على دار الخلافة.

وكان قدوم هولاكو بجنوده كلها - نحو مائتى ألف مقاتل - إلى بغداد فى ثانى عشر المحرم من هذه السنة، وهو شديد الحنق على الخليفة بسبب ما كان تقدم من الأمر الذى قدره الله وأنفذه وأمضاه، وهو أن هولاكو لما كان أول بروزه من همدان متوجهاً إلى العراق أشار الوزير مؤيدالدين العلقمى على الخليفة بأن يبعث إليه بهدايا سنية ليكون ذلك مداراة عما يريده من قصد بلادهم فخذل الخليفة عن ذلك دويداره الصغير أيبك وغيره، وقالوا: إن الوزير إنما يريد مصانعة ملك التتار بما يبعثه إليه من الأموال.

وأشاروا بأن يبعث بشىء يسير، فأرسل شيئاً من الهدايا فاحتقرها هولاكو، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه دويداره المذكور، وسليمان شاه، فلم يبعثهما إليه ولا بالا به حتى أزف قدومه.

ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة، ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية.

وجيوش بغداد فى غاية القلة ونهاية الذل لا يبلغون عشرة آلاف فارس، وهم بقية الجيش، كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم فى الأسواق وأبواب المساجد.

وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمى.

وذلك أنه لما كان فى السنة الماضية كان بين أهل السنة وأنصار العلقمى حرب عظيمة نهبت فيها الكرخ حتى نهبت دور قرابات الوزير، فاشتد حنقه على ذلك، فكان هذا ما أهاجه على أن دبر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذى لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد وإلى هذه الأوقات.

ولهذا كان أول من برز إلى التتار هو فخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه فاجتمع بالسلطان هولاكو لعنه الله، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصف للخليفة.

فاحتاج الخليفة إلى أن خرج فى سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل السلطان هولاكو حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفساً.

فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت وقتلوا عن آخرهم.

وأحضر الخليفة بين يدى هولاكو فسأله عن أشياء كثيرة فيقال: إنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت.

ثم عاد الخليفة إلى بغداد وفى صحبته خوجة نصيرالدين الطوسى والوزير العلقمى وغيرهما، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة.

فأحضر من دارالخلافة شيئاً كثيراً من الذهب والحلى والمصاغ والجواهر والأشياء

النفيسة، وقد أشار أولئك المنافقين على هولاكو أن لا يصالح الخليفة.

وقال الوزير: متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا عاماً أو عامين ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك وحسنوا له قتل الخليفة.

فلما عاد الخليفة إلى هولاكو أمر بقتله.

ويقال: إن الذى أشار بقتله الوزير ابن العلقمى والمولى نصيرالدين الطوسى.

وكان النصير عند هولاكو قد استصحبه فى خدمته لما فتح قلاع الألموت وانتزعها من أيدى الإسماعيلية، وكان النصير وزيراً لشمس الشموس ولأبيه من قبل علاءالدين بن جلال الدين وانتخب هولاكو النصير ليكون فى خدمته كالوزير المشير.

فلما قدم هولاكو وتهيب من قتل الخليفة هون عليه الوزير ذلك فقتلوه رفساً وهو فى جوال لئلاً يقع على الأرض شىء من دمه.

خافوا أن يؤخذ بثأره فيما قيل لهم.

وقيل: بل خنق.

ويقال: بل أغرق فالله أعلم.

فباؤا بأثمه واثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء وأولى الحل والعقد ببلاده.

فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس فى الآبار وأماكن الحشوش، وكمنوا أياماً لا يظهرون.

وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعلى الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة.

حتى تجرى الميازيب من الدماء فى الأزقة فإن لله وإنا إليه راجعون.

وكذلك فى المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمى وطائفة من التجار أخذوا لهم

أماناً بذلوا عليه أموالاً جزيلة حتى سلموا وسلمت لهم أموالهم(١).

وعادت بغداد بعدما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس وهم فى خوف وجوع وذلة وقلة وكان الوزير ابن العلقمى قبل هذه الحادثة يجتهد فى صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان.

فكانت العساكر فى آخر أيام المستنصر قريباً من مائة ألف منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر.

فلم يزل يجتهد فى تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف ثم كاتب التتار وأطمعهم فى أخذ البلاد، وسهل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال.

وقد اختلف الناس فى كمية من قتل ببغداد من المسلمين فى هذه الواقعة، فقيل ثمانمائة ألف وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف.

وقيل بلغت القتلى ألفى ألف نفس «مليونين» فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم(٢).

وكان دخولهم إلى بغداد فى أوائل المحرم، ومازال السيف يقتل أهلها أربعين يوماً، وقتل مع الخليفة ولده الأكبر أبوالعباس أحمد.

ثم قتل ولده الأوسط أبوالفضل عبدالرحمن، وأسر ولده الأصغر.

وأسرت أخواته الثلاث: فاطمة وخديجة ومريم، وأسر من دارالخلافة ما يقارب ألف بكر فيما قيل، والله أعلم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وقتل أكابر الدولة واحداً بعد واحد وجماعة من الأمراء وأكابر البلد.

وكان الرجل يستدعى به من دار الخلافة من بنى العباس فيخرج بأولاده ونسائه فيذهب به إلى مقبرة الخلال، فيذبح كما تذبح الشاه، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه.

وقتل الشيوخ والخطباء والأئمة وحملة القرآن.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير أحداث عام ٦٥٦هـ.

(٢) المصدر السابق.

وتعطلت المساجد والجامعات والجُمُعات مدة شهور ببغداد.

ولما انقضى الأمر المقدر وانقضت الأربعون يوماً بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى فى الطرقات كأنها التلول.

وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى فى الهواء إلى بلاد الشام فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح.

فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما نودى ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمناطير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم.

وقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى، واجتمعوا تحت الثرى بأمر من يعلم السر وأخفى.

كان رحيل السلطان المسلط هولاكو عن بغداد فى جمادى الأولى من هذه السنة إلى مقر ملكه.

وفوض أمر بغداد إلى الأمير على بهادر، فوض إليه الرئاسة بها وإلى الوزير ابن العلقمى فلم يمهله الله ولا أهمله، بل أخذه أخذ عزيز مقتدر، فى مستهل جمادى الآخرة عن ثلاث وستين سنة، فمات جهداً وغماً وحزناً وندماً[1].



(١) البداية والنهاية ج١٣ - مصدر سابق.

التشابه بين غزو المغول التتار لبغداد قديماً وغزو التتار المغول الأمريكان حديثاً فى التواريخ والأفعال

لاشك أن التاريخ الإنسانى يعيد نفسه بأشكال مختلفة إلا أنها أحياناً تكون متشابهة فى النوايا والأفعال والتواريخ أيضاً.

وقد ذكرنا هذا التشابه فى أفعال ونوايا المغول التتار منذ خروجهم فى عهد جنكيزخان حتى انتهاء دولتهم بعد أكثر من قرن على أيدى المسلمين والمصريين بقيادة المماليك وملكهم السلطان قطز كما سيأتى ذكره إن شاء الله.

فقد وصفت كتب التاريخ والمؤرخون أن غزوات التاريخ كانت دمارا شاملا على نطاق لم يسبق له مثيل لكل الغزاة الذين خرجوا قديماً قبلهم وأننا نرى أن الاستعمار الأمريكى ينافسهم فى ذلك حين خرج على العالم بالدمار الشامل وصناعة القنبلة الذرية وضرب هيروشيما وناجازاكى المدينتين اليابانيتين فى الحرب العالمية الثانية ثم ما حدث من قتل وتدمير فى العراق مؤخراً عام ٢٠٠٣م حتى الآن.

وبحساب المؤرخ الغربى روميل قدر أن المغول قتلوا نحو ٣٠٠ مليون إنسان خلال غزوهم للعالم وحكمهم له، حتى إن سكان الصين انخفض إلى النصف خلال خمسين عاماً من حكم المغول لهم، فقد كان تعداد السكان هناك قبل الغزو المغولى ١٢٠ مليونا نسمة أصبح بعد اكتمال الغزو المغولى لهم فى إحصاء عام ١٢٧٩م نحو ٦٠ مليون نسمة فى احصاء ١٣٠٠م.

ويذكر ديفيد ديكول فى كتابه «المغول سادة الحرب والرعب والإبادة» لكل من هو ضدهم كان من أفضل التكتيكات المغولية، وأن حوالى نصف الشعب الروسى مات خلال تلك الغزوات المغولية عليهم.

وقدر المؤرخون أن نصف شعب الهنغار ذو ٢ مليون نسمة قد قضى نحبه فى غزوات المغول.

ولم يكن حظ المسلمين بأفضل مما حدث لشعب الصين وللشعوب الأخرى بل أكثر من ذلك فقد قام المغول التتار فى غزوهم لبلاد المسلمين بالإبادة الشاملة للشعوب المسلمة التى احتلوا أرضها حتى أنهم كانوا يعودون إلى المدن بعد فترة من الزمن ليقتلوا من استطاع الهرب فى أثناء الغزو ثم عاد بعد ذلك.

وقد حدث ذلك فى بغداد كما ذكرنا حين سقطت فى أيديهم حتى إن الأهالى المدنيين قد هربوا إلى داخل القبور لينجوا بحياتهم فمن خرج منهم حياً كان كالمجنون لا يصلح لشىء.

وهناك تشابه فى تواريخ الغزو التتارى أيام هولاكو لبغداد وغزو بوش الابن التتارى الأمريكى لها مؤخراً عام ٢٠٠٣م.

فقد بدأ الهجوم على بغداد ومحاصرتها من هولاكو وجيشه فى منتصف شهر المحرم ٦٥٦هـ واستمر حتى دخلها فى أوائل شهر صفر من نفس العام كما ذكرنا.

وكذلك كان غزو بوش الابن لبغداد فى منتصف شهر المحرم يوم ١٦ ودخولها يوم ٧ صفر أيضاً، وكانت مدة الحصار والحرب ٢١ يوماً فى الغزو المغولى قديماً والغزو المغولى الأمريكى حديثاً.

كان دخول المغول لبغداد بعد انهيار المقاومة يوم الأربعاء وكذلك دخل المغول الأمريكان بغداد بعد انهيار المقاومة واختفاء الجيش العراقى يوم الأربعاء أيضاً.

تقدم المغول التتار نحو الشام لاحتلال دمشق وفلسطين وأرادوا غزو مصر فكانت نهايتهم فى الشام بعد عامين من احتلالهم لبغداد عام ٦٥٨هـ فى معركة عين جالوت.

أما الأمريكان التتر الجدد فقد أرادوا غزو سوريا وجاءوا بالذرائع العديدة لذلك لكن الله حال دون تحقيق ذلك لهم لكنهم مازالوا يحاولون وخاصة بعد أن استطاعوا تدمير لبنان وفلسطين بواسطة أعوانهم من اليهود الصهاينة.

ومن أوجه التشابه أيضاً أن المغول حين أرادوا احتلال وتدمير العالم الإسلامى العربى قاموا بغزو امبراطورية الخوارزميين والتى تضم بلاد أفغانستان وباكستان وغيرها من دول جنوب روسيا القديمة.

وهكذا فعل المغول الأمريكان حين احتلوا أفغانستان ومن قبل سيطروا على باكستان بانقلاب عسكرى لحاكم عميل وكذلك استطاع بوش الأب إسقاط الحكم الروسى الشيوعى وتفكيك الاتحاد السوفيتى.

فكان غزو بغداد يسبقه احتلال أفغانستان فى الحالتين.

أما النوايا فهى دائماً تكون السيطرة على ثروات البلاد المحتلة فقد أراد بوش الابن والأمريكان الاستيلاء على ثروات العراق وآبار البترول بالإضافة للانتقام من العراق لصالح اليهود الصهاينة وهو انتقام أعلن عنه بوش الابن حين أقدم على الغزو ووصف الرئيس العراقى ببختنصر البابلى الذى غزا دولة إسرائيل قبل الميلاد ودمرها وأسر من بقى من اليهود وجلبهم إلى بلاده[1].

ومن التشابه أن هولاكو وقواته قاموا بذبح الشعب البغدادى العراقى فقتل أكثر من مليون وقيل اثنين من الملايين وكذلك فعل بوش الابن وجنوده الأمريكان الذين قتلوا أكثر من مليون حتى الآن وشردوا أكثر من أربعة ملايين.

كانت قوات المغول التتار أيام هولاكو لا تقارن بجيش الخليفة الهزيل الذى هرب فى المواجهة الأولى واختفى فقد وصف هولاكو جيشه بأنه كاسح جرار كالنمل وقام بقذف بغداد بالمنجانيق قبل دخوله المدينة وكذلك فعل بوش الابن حين أراد غزو بغداد فقام بقصفها بالصواريخ المدمرة الحديثة قبل دخول المدينة.

تحالف هولاكو مع بعض المسلمين الخونة وعلى رأسهم الوزير ابن العلقمى وبعض القادة وكذلك فعل بوش حين تحالف مع العملاء من المعارضة العراقية فى الخارج وفى الداخل أيضاً حين عقد صفقات مع القادة العراقيين وبعض الوزراء مثل وزير الإعلام الشهير الصحاف وغيره.

قام هولاكو بإعدام الخليفة العباسى بطريقة مزرية ووحشية سجلها التاريخ فى ذاكرته التى لا تنسى فقد وضعه فى جوال وأمر جنوده برفسه وضربه بالأقدام حتى مات وحتى لا يسيل دمه على الأرض وقيل إنه ألقى به بعد أن وضعه فى جوال تحت حوافر الخيل ترفسه حتى مات.

(١) اقرأ كتابنا «نهاية العالم وأشراط الساعة» وكذلك كتابنا «السيناريو القادم وسلسلة الحكومة الخفية الماسونية» الناشر دارالكتاب العربى.

وقيل أيضاً إنه أمر بخنقه وكذلك فعل الأمريكان بالرئيس العراقى صدام حسين حين أعدموه شنقاً على مرأى ومسمع من العالم فى سابقة تاريخية وفى صباح عيد الأضحى.

أوكل المغول إدارة بغداد ورئاسة وزرائها للوزير الخائن ابن العلقمى مكافأة له على تعاونه معهم فى إسقاط الخلافة العباسية وكذلك فعل المغول الأمريكان الجدد حين عينوا وزراء ورئيس وزراء دولة من العملاء الذين تعاونوا معهم وجاءوا على دباباتهم لغزو العراق وذلك مكافأة لهم على خيانتهم.

قام هولاكو بقتل العلماء والقادة ورجال الدولة فذبح منهم الآلاف وكذلك فعل بوش الأمريكانى حين قتل العلماء والمفكرين فى اغتيالات منتظمة على أيدى الموساد الإسرائيلى وشركة «بلاك ووتر».

قام المغول بتدمير كل شىء بما فيها مكتبة بغداد وألقوا بكل ما فيها من كتب ومخطوطات فى النهر وعبروا عليها بخيولهم حتى صارت مياه النهر سوداء اللون من لون مداد الكتب وتلك نكبة كبرى تماثل المجازر التى ارتكبوها أيضاً واستطاع بعض العملاء من المسلمين من الحصول على الكثير من الكتب والمخطوطات وهذا ما فعله الجوينى وزير هولاكو وكان فارسى الأصل ويدين بالإسلام وقد ذكر فى كتابه «تاريخ فاتح العالم» أنه أخذ ما يريد من مكتبة الملاحدة الإسماعيلية.

وقد أشاد هذا العميل فى كتابه واستحسن حروب وغزوات المغول وسيده هولاكو للعالم الإسلامى ولا يزال أمثال «الجوينى» و«الطوسى» و«رشيدالدين الهمدانى» الذين عملوا أعوانا ووزراء لهولاكو والمغول ضد الإسلام والمسلمين رغم أنهم كانوا مسلمين متواجدين حتى الآن ويعملون مع المغول الجدد من الأمريكان وغيرهم.

ومن التشابه بين الغزو المغولى التتارى بقيادة هولاكو لبغداد وديار الإسلام مع الغزو المغولى الحديث بقيادة بوش الامريكى أن جيش الغزو كان يضم قوات مشتركة أغلبها من المغول، فقد ضم جيش هولاكو المغول وجنود من الصين وجنود من الولايات المسلمة أرسلها قادتها المسلمون لهولاكو كما ذكرنا خوفاً من بطش هولاكو وكذلك جنود من النصارى أيضاً فكان جيشه يضم أجناساً مختلفة وديانات مختلفة أيضاً.

وكذلك ضم جيش هولاكو الحديث بوش الابن أجناساً مختلفة وديانات مختلفة من مسلمين ونصارى ويهود وملحدين اطلق عليهم القوات المشتركة.

ومن الأمور المتشابهة دعوة هولاكو أهل بغداد بتسليم السلاح ونصب المغول خياماً على نهر دجلة لاستلام السلاح وجاء السكان من أهل بغداد وسلموا سلاحهم.

وما حدث أن كل من جاء بسلاحه ودخل خيام المغول لم يخرج منها إلا مقتولاً فقد قام المغول بذبح من سلم سلاحه لهم.

والتشابه بين تلك الواقعة قديماً وحديثاً هى دعوة عملاء المغول الجدد من رئيس الوزراء وغيره بدعوة أهل العراق وخاصة فى بغداد بتسليم سلاحهم له وللأمريكان.

لكن المقاومين هناك من الشيعة والسنة رفضوا ذلك حتى الآن، ولعلهم استوعبوا ما حدث لإخوانهم فى الماضى على يد عملاء هولاكو وهذا حتى الآن لم يحدث ببغداد.

فقد كان شعار المغول التتار قديماً للشعوب التى احتلوها: افتحوا لنا الأبواب وادخلوا فى الطاعة ولكم الأمان.

فإذا فتحوا الأبواب ودخلوا فى الطاعة للمغول كان جزاؤهم الذبح والهلاك وهذا هو أمان المغول قديماً وحديثاً.

وقد وقع سقوط بغداد قديماً وحديثاً وقع الصاعقة على العالم الإسلامى كله وأدخل الرعب والهلع فى قلوب المسلمين فى البلاد الأخرى المجاورة حتى إن الحكام العرب المجاورين لبغداد هرعوا إلى هولاكو يقدمون له فروض الولاء والطاعة.



ذكر بعض مظاهر الذل والمهانة والاستسلام لبعض الحكام المسلمين بعد سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ

أدى سقوط بغداد فى يدى هولاكو قديماً إلى اصابة الحكام العرب والمسلمين المجاورين للعراق بالفزع والهلع والرعب خوفاً على كراسى الحكم أو بمعنى أدق ومباشر مصالحهم الشخصية واستمرارهم فيها بأى شكل وإن كان مهينا فسارعوا إلى هولاكو يقدمون إليه فروض الولاء والطاعة حتى إن احدهم رسم صورته على حذاء وقدمه لهولاكو كى يلبسه وينال شرف أن تطأ قدم هولاكو رأسه المصورة بالأرض!!

نعم حدث هذا وسجله المؤرخ رشيدالدين الهمدانى وكان مرافقاً وشاهداً على ما حدث مع هولاكو فقال فى كتاب «جامع التواريخ»: إن هولاكو ترك بغداد بعد احتلالها وهدمها وتعيين الوزير الخائن ابن العلقمى نائبا له[1]، وفخرالدين اللامغانى فى منصب رئيس الديوان وعمادالدين القزوينى نائباً للأمير قراتاى وبدأت مظاهر الحياة تدب فى المدينة بعد دفن القتلى، توجه إلى خانقين ومن هناك أرسل إلى أخيه زعيم المغول منكوخان بالغنائم والأموال التى تم نهبها من بغداد وقلاع الملاحدة وبلاد الروم وأخبره بأنه مستمر فى غزواته كما هو متفق فيما بينهما.

ثم ذكر الهمدانى أيضاً أن الحكام ومن بيدهم مقاليد الأمور هرعوا إلى هولاكو

---

(١) هلاك ابن العلقمى فى نفس عام سقوط بغداد.. قال ابن كثير - رحمه الله: كان خبيثاً ردىء الطوية على الإسلام وأهله، وقد حصل له من التعظيم والوجاهة فى أيام المستعصم ما لم يصل لغيره من الوزراء ثم مالأ على الإسلام وأهله الكافر هولاكو خان حتى فعل ما فعل بالإسلام وأهله.

ثم حصل له بعد ذلك من الإهانة والذل على أيدى التتار الذين مالأهم وزال عنه ستر الله وذاق الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

وقد رأته امرأة وهو فى الذل والهوان أيام التتار راكبا برذوناً وهو مرسم عليه وسائق يسوق به ويضرب فرسه فقالت له: يا ابن العلقمى هكذا كان يعاملك بنو العباس.

فانقطع فى داره إلى أن مات كمداً وضيقاً فى شهر جمادى الآخرة عام ٦٥٦هـ وتولى ابنه منصبه بعده!!

لإعلان خضوعهم وولائهم وتهنئته على النصر الذى حققه على الخلافة العباسية واحتلاله لبلاد المسلمين وقتله أبناء الإسلام وهدمه للمساجد فى بغداد.

نعم جاء الحكام العرب والمسلمون إلى هولاكو وقدموا له التهانى وأظهروا له الخضوع.

من هؤلاء السلاطين سلاجقة الروم المسلمون وهما السلطان عزالدين ليكاوس والسلطان ركن الدين قلج أرسلان.

وقام السلطان عزالدين بصناعة حذاء ملكى فاخر ونقش عليه صورته وحين قدم لتهنئة هولاكو قدم له الحذاء وقدمه له بذل وخضوع.

فقد استكبر هولاكو أن يرسل الناصر يوسف ابنه العزيز ولا يأتى بنفسه، فقد أتى الأمراء الآخرون بأنفسهم، واستكبر هولاكو أيضاً أن يطلب منه الناصر يوسف أن يعينه فى الاستيلاء على مصر لضمها لحكم الناصر يوسف.

وذلك لأن هولاكو بطبيعة الحال يريد للشام ومصر معاً أن يدخلا فى حكمه هو لا فى حكم الناصر يوسف، ومن هنا غضب هولاكو وأرسل رسالة شديدة اللهجة إلى الناصر يوسف.

كل هذا مع أن العزيز بن الناصر يوسف آثر أن يبقى فى عسكر هولاكو ليهاجم معه المسلمين.

وأرسل هولاكو للملك الناصر رسالة يزجره فيها ويتوعده جاء فيها:

الذى يعلم به الملك الناصر صاحب حلب، أنا قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى، وقتلنا فرسانها، وهدمنا بنيانها، وأسرنا سكانها، كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون﴾، واستحضرنا خليفتها، وسألناه عن كلمات فكذب، فواقعه الندم، واستوجب منا العدم، وكان قد جمع ذخائر نفيسة، وكانت نفسه خسيسة، فجمع المال، ولم يعبأ بالرجال، وكان قد نمى ذكره، وعظم قدره، ونحن نعود بالله من التمام والكمال.

ولا عجب أن تجد فى رسائل هولاكو بعض آيات من القرآن الكريم رغم كونه وثنياً

كافراً إلا أن حاشيته تضم وزراء من المسلمين والنصارى ويقوم الوزراء المسلمين أمثال

الجوينى ورشيد الهمدانى من كتابة تلك الرسائل وذكر آيات قرآنية فيها وكان هؤلاء الوزراء المسلمين الذين رافقوا هولاكو كانوا أيضاً من المؤرخين له ولأجداده من المغول فكانوا أعواناً للش اطين.

وقد أمر هولاكو جنوده بالقبض على الملك الناصر الذى فر من مواجهة جيش هولاكو وترك دمشق وحلب تسقط فى أيديهم.

إن أملى أن يشرف الملك رأس هذا العبد بوضع قدمه المباركة عليه.

هكذا انحدر هؤلاء الحكام إلى هذا المستوى الوضيع من الذل والهوان من أجل الحكم والدنيا الزائلة.

فأين هولاكو الآن وأين هؤلاء أيضاً فالكل سائر إلى التراب ثم إلى الخالق الجبار يوم الحساب؟!

ونظرا لهول ما رأى هولاكو من ذل هذا السلطان عفا عنه ولم يقتله وتركه فقد قتل نفسه بنفسه.

فى ظل هذه الملابسات المخزية، والأوضاع المقلوبة، نستطيع أن نفهم لماذا يتم حصار إمارة ميافارقين، ويتعرض شعبها من المسلمين للموت أحياء، ولا يتحرك لها حاكم ولا شعب من الإمارات الإسلامية المجاورة، كما حدث من حصار اقتصادى لشعب العراق ثم ما حدث لشعب فلسطين ومدينة غزة ولم يتحرك لهم أحد.

وإذا كنا نفهم الخزى والعار الذى كان عليه أمير الموصل بدرالدين لؤلؤ وأمراء السلاجقة.

فأما الخزى والعار الذى وصل إليه الناصر يوسف الأيوبى حاكم حلب ودمشق قد وصل إلى درجة عظمى جعلته يحرض هولاكو على مصر وغزوها، وكأنها تربطه بالكامل محمد الأيوبى علاقات هامة جداً، ففوق علاقات الدين والعقيدة، وعلاقات الجوار، وعلاقات البعد الاستراتيجى الهام لإمارة حلب، إذ إن ميافارقين تقع شمال شرق حلب، ولو سقطت فسوف يكون الدور القادم على حلب مباشرة.

إضافة إلى أن علاقات الدم والرحم فكلا الأميرين من الأيوبيين والعهد قريب بجدهما البطل الإسلامى العظيم صلاح الدين الأيوبى - رحمه الله - والذى لم يمر على وفاته سبعون سنة «توفى صلاح الدين الأيوبى رحمه الله فى سنة ٥٨٩ هجرية» ووقفاته ضد أعداء الأمة لا تنسى[١].

فكيف صار هذا الأمير خائناً لدينه ووطنه وعائلته؟!

فليس هناك للناصر يوسف أية مبررات، لا من ناحية الشرع ولا من ناحية العقل.

لقد طلب الأمير الكامل محمد - رحمه الله - النجدة من الناصر يوسف الأيوبى، فرفض رفضاً قاطعاً، لم يتردد، ولم يفكر، لأنه باع كل شىء، واشترى ود التتار، وما علم عندما فعل ذلك أن التتار لا عهد لهم ولا أمان، وحتى لو صدق التتار فى عهودهم كيف رضى بهم ويبيع دينه ووطنه وإخوانه؟!

إضافة إلى أن الناصر يوسف لم يكتف بمنع المساعدة عن الكامل محمد، ولم يكتف بالمشاركة فى حصار ميافارقين، بل أرسل رسالة إلى هولاكو مع ابنه العزيز، يطلب منه أن يساعده فى الهجوم على مصر والاستيلاء عليها من المماليك، يريد مصلحته أولاً إلا أن هولاكو غضب عليه وقام بغزو بلاده كما سيأتى بيانه إن شاء الله.



(١) اقرأ كتابنا «صلاح الدين المنقذ المنتظر» الناشر دارالكتاب العربى.

الشام فى قبضة المغول التتار

- سقوط إمارة « ميافارقين » و « ماردين » فى أيدى المغول فكانت أول الغيث فى الشام.
- سقوط باقى مدن الشام فى أيدى هولاكو سلماً وقسراً.
- ذكر ابن كثير غزو هولاكو لبلاد الشام وفلسطن.



سقوط إمارة « ميافارقين » « وماردين » فى أيدى المغول فكانت أول الغيث فى الشام

«ميافارقين» بوابة الشام، أرسل إليها هولاكو ابنه «اشموت» ومعه قواده «إيلكا نويان» «وسونتاى» ضمن خطة محددة للاستيلاء على الشام.

كانت «ميافارقين» إمارة أيوبية يحكمها الملك الكامل[1] أحد أمراء البيت الأيوبى، أرسل إليه هولاكو ابنه «أشموتابن» داعياً إياه للطاعة والخضوع لسلطان «هولاكو» واظهار هذا الخضوع يبدأ بهدم أسوار الإمارة.

هذا الأمير المسلم الذى ظل محتفظاً بمروءته وكرامته ودينه رغم أن جيرانه من الحكام المسلمين رفضوا مساعدته وتركوه وحده.

«ميافارقين» مدينة تقع الآن فى شرق تركيا إلى الغرب من بحيرة «وان»، وكانت جيوش الكامل محمد ـ رحمه الله ـ تسيطر على شرق تركيا، بالإضافة إلى منطقة الجزيرة، وحتى المنطقة الواقعة بين نهرى دجلة والفرات من جهة الشمال، أى أنه يسيطر على الشمال الغربى من العراق، وعلى الشمال الشرقى من سوريا وهى منطقة هامة استراتيجياً.

وكان هولاكو يريد أن يحتل سوريا، وبالتالى ليس أمامه إلا أن يجتاز منطقة الجزيرة الواقعة تحت سيطرة الكامل محمد رحمه الله، وعلى ذلك فرغم خنوع وخضوع معظم أمراء المنطقة، إلا أن إخضاع إمارة ميافارقين بالقوة أصبح لازماً وضرورياً.

وكانت المشكلة الأولى التى واجهت هولاكو، أن مدينة ميافارقين مدينة حصينة، وتقع بين سلسلة جبال البحر الأسود، كما أن الشعوب المسلمة قد تتعاطف مع الملك الكامل الأيوبى.

(١) هو الملك الكامل محمد بن الشهاب غازى الأيوبى.

أما المشكلة الثانية: وهى أن أولئك الأمراء المسلمين الذى رغبوا فى التحالف مع هولاكو كانوا يبتغون البقاء فى أماكنهم، يحكمون بلادهم حكماً ذاتياً، ولو تحت المظلة التترية، بينما كان هولاكو يرغب فى السيطرة الكاملة على البلاد بطبيعة الحال، يعين من يشاء، ويعزل من يشاء، فهولاكو لا يرى أحداً من سادة العالم إلى جواره.

لكن هولاكو بما عرف عنه من ذكاء كان يحسن ترتيب الأولويات، فأدرك أنه من المهم أن يقضى أولاً على حركة الكامل محمد الأيوبى ـ رحمه الله ـ ثم يستكمل طريقه بعد ذلك إلى الشام.

ورغم محاولات الملك الكامل رحمه الله أن يعقد تحالفات مع الملوك والرؤساء المسلمين المجاورين لدرء خطر المغول ورفضهم ذلك بل وتركوه دون مساندة من أى نوع وساعدوا هولاكو فى غزوه لتلك الإمارة الهامة، رغم ذلك لم يستسلم ورد على تهديد ابن هولاكو له برسالة جاء فيها سجلها رشيد الهمدانى فى كتابه جامع التواريخ:

«ينبغى ألا يضرب الأمير فى حديد ولا يتوقع الشىء المستحيل إذ لا يوثق بوعدكم وإننى لن انخدع بكلامكم المعسول ولن أخشى جيش المغول وسأضرب بالسيف مادمت حياً، إذ كيف أثق بابن رجل نكث بالعهد والميثاق مع خورشاه والخليفة وحسام الدين عكة وتاج الدين أربل».

وقام الملك خطيباً فى شعبه يحثهم على الجهاد وقتال المغول وفتح خزائن الإمارة أمامهم وقال لهم: سوف لا أبخل عليكم بالذهب والفضة والغلال الموجودة فى المخازن وسأوثر بها كل المحتاجين، فإنى بحمد الله لست كالمستعصم ـ الخليفة ـ عبداً للدرهم والدينار الذى طوح برأسه وملك بغداد.

واستجاب الأهالى له وحملوا السلاح واتحدوا وخرجت كوكبة من الفرسان معهم الملك واقتحموا معسكر المغول وقتلوا منهم أعدادا كبيرة.

وظل الملك الكامل ومن معه يقاتلون المغول قرابة العام لا يقدر عليهم المغول وبعد اطلاع هولاكو على ما أصاب هذا الجيش من هزيمة أمام استبسال أهل «ميافارقين» رغم حصار المغول لهم ولم يفعل لهم شيئاً واستمر الحصار حتى نفدت المؤن فى المدينة

وهلكت الدواب وأكل الناس الميتة حتى أكلوا القطط والكلاب ثم أكلوا الآدميين وفنى الناس ولم يبق إلا نفر قليل منهم وتراكمت جثث الموتى، فتحت أبواب المدينة ودخل المغول الإمارة ليجدوا سكانها موتى ماعدا سبعين شخصاً على وشك الهلاك وقبضوا على الملك الكامل وأرسل إلى هولاكو فى حلب وهو محاصرها.

فأمر «هولاكو» بموت الملك الكامل بأن يقطع جسده قطعا صغيرة يوضع كل قطعة فى فمه حتى اختنق ومات، ثم قطعت رأسه ووضعت على رمح وطافوا بها المدن الكبرى بالشام حتى علقت على باب «الفراديس» بدمشق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وهكذا سطر ذلك الملك اسطورة وملحمة من الجهاد ضد المغول فكان فى مصاف الأبطال الشهداء الذين ضحوا بحياتهم ودنياهم الفانية من أجل الإسلام والوطن.

ثم توجه ابن هولاكو وجيشه بناء على أوامر أبيه هولاكو للاستيلاء على «ماردين»، وكان يحكمها الملك السعيد، فأرسل إليه قائد الجيش المغولى ناصحاً إياه بالنزول إليهم والاستسلام والطاعة لهولاكو حتى يأمن على حياته وماله وابنائه.

«كنت قد عزمت على الطاعة والحضور إلى الملك ولكن حيث أنكم قد عاهدتم الآخرين ثم قتلتموهم بعد أن اطمأنوا إلى عهدكم وأمانكم فإنى لا أثق بكم وإن القلعة مشحونة بالذخائر والأسلحة ومليئة بالرجال الترك وشجعان الكرد»(١).

وبالفعل قاوم الملك السعيد المغول وحاربهم ثمانية أشهر أبدى خلالها المدافعون عن القلعة بسالة وبطولة أغضبت المغول جعلتهم يصبون غضبهم على المدن القريبة من قلعة «ماردين».

وظل المغول محاصرين قلعة «ماردين» الحصينة حتى كادت المؤن أن تنفد وظهر الغلاء والوباء ومات الكثير من أهلها، وأصيب الملك السعيد حتى إن ولده الكبير مظفر الدين نصحه بتسليم القلعة حقناً للدماء إلا أن الملك رفض ذلك بشدة وأصر على المقاومة.

فقام الابن بقتل أبيه بالسم ثم سلم القلعة للمغول!!

---

(١) انظر جامع التواريخ ـ مصدر سابق.

سقوط باقى مدن الشام
فى أيدى المغول سلماً وقسراً

فى الوقت الذى استطاع ابن هولاكو ومعه بعض القادة المغول من الاستيلاء على أهم القلاع بعد قتال عنيف استمر أكثر من عامين استولى هولاكو أيضاً على الإمارات الأخرى من كردستان حتى الجزيرة ونصيبين وحران وإمارة الرها وفنى بلدة سروج والبيرة.

وأرسل هولاكو رسالة إلى الملك المعظم تورانشان نائب السلطان الناصر على مدينة حلب يطلب منه التسليم والخضوع له فى مقابل إعطائه الأمان.

وكان الملك الناصر يوسف يراسل الأمراء من حوله لينضموا إليه لقتال التتار، فراسل أمير إمارة الكرك شرق البحر الميت (فى الأردن حالياً) وكان اسمه «المغيث فتح الدين عمر»، ولم يكن مغيثاً إلا لنفسه، ولم يكن فتحاً للدين، إنما كان رجلاً على شاكلة الناصر يوسف، يحارب التتار تارة ويطلب عونهم تارة أخرى بحسب الظروف والأحوال، لا عقيدة لديه متلون السياسة.

وفى مدينة همدان حيث القيادة المركزية لإدارة شؤون الحروب حيث مقر قيادة هولاكو، الذى بدأ يعيد ترتيب أوراقه نتيجة التطورات الجديدة التى تتسارع فى هذه المنطقة الملتهبة.

مثل علاقة التتار بالنصارى تزداد قوة، وخاصة بعد ظهور بعض النماذج الإسلامية المعارضة لوجود التتار، فهنا سيظهر احتياج التتار لقوة النصارى للمساعدة فى إخماد الثورات من ناحية، ولنقل الخبرة من ناحية أخرى، ولإدارة الأمور فى الشام بعد إسقاطها من ناحية ثالثة.

ومن هنا أغدق هولاكو الهدايا والمكافئات على هيثوم ملك أرمينيا، وكذلك على ملك الكرج، وعلى «بوهمند» أمير أنطاكية[١].

---

(١) وقد أظهر النصارى المحليين من سكان البلاد الإسلامية التى غزاها المغول تعاوناً مع المحتل =

وكذلك الموقف العدائى من الناصر يوسف الأيوبى أمير حلب ودمشق، وضرب معسكره شمال دمشق، وبدأ فى إعداد الجيش لمقابلة التتار، لكن هذا الإعداد لم يقابَل بأى اهتمام من هولاكو، فهو يعرف إمكانيات الناصر ونفسيته، ولذلك كانت هذه مسألة تافهة نسبياً فى نظر هولاكو، لأن الملك الناصر قد ترك دمشق وهرب.

وتوجه هولاكو نحو حلب وقد رفض نائب السلطان الناصر ويدعى توران شاه تهديده رغم هروب السلطان الناصر نحو دمشق تاركاً حلب تواجه مصيرها مع هولاكو.

وكانت أقوى المدن فى الشام هما مدينتا حلب ودمشق، ولو سقطت هاتان المدينتان فإن ذلك يعنى سقوط الشام كلية، ومدينة حلب تقع فى شمال دمشق على بعد ما يقرب من ثلاثمائة كيلو متر.

وبعد استعراض هذه النقاط فإن هولاكو قرر أنه من المناسب أن يتوجه مباشرة لإسقاط إحدى هاتين المدينتين: حلب أو دمشق.

ووجد هولاكو أنه لو أراد التوجه إلى حلب فإنه سوف يخترق الشمال العراقى أولاً، ثم يدخل سوريا من شمالها الشرقى مخترقاً بذلك شمال سوريا، موازياً حدود تركيا، حتى يصل إلى حلب فى شمال سوريا الغربى، وهذه المناطق وإن كانت كثيرة الأنهار - تعتبر من العوائق الطبيعية الصعبة، وخاصة فى مناورات الجيوش الضخمة.

إلا أن هذه المناطق خضراء، ووفيرة الزرع، ووفيرة المياه.

= الغازى ولم يتم هدم كنائسهم لذلك ولم يتم قتلهم، بل إن النصارى أظهروا الشماتة ضد المسلمين جيرانهم وأبناء الوطن الواحد وقد سجل المؤرخون ما فعله النصارى فى بلاد الشام بعد غزو المغول لها وكيف أنهم شاركوا المغول فى ايذائهم للمسلمين ودنسوا المساجد بالخمور وسبوا دين الإسلام وغيرها الكثير من الأفعال المشينة، ولهذا انتقم منهم المسلمون حين تم طرد المغول بعد عين جالوت.

ولا عجب فى ذلك إذ فعل النصارى ذلك مع ابناء الوطن الواحد وتعاونوا مع أى محتل لبلاد المسلمين، وهذا قصر نظر منهم لأن المحتل يأتى له يوم ويرحل لا محاله.

وهو أيضاً ما فعل الأرمن الذين كانوا يسكنون شرق تركيا حتى الحرب العالمية الأولى فلما دخل الجيش الروسى بلاد الترك شاركوه فى ذبح السكان المسلمين واحدثوا المجازر البشعة بالمسلمين فلما انتهت الحرب قام المسلمون الأتراك بقتلهم وطردهم من بلادهم ولم يعودوا إليها حتى الآن وكل فعل له رد فعل.

أما إذا أراد هولاكو أن يتوجه إلى دمشق أولاً وهذا وإن كان سيمثل عنصر مفاجأة رهيبة للمسلمين فى دمشق لأن هولاكو سيأتى من حيث لا يتوقعون، إلا أنه يتحتم على هولاكو لكى يفعل ذلك أن يجتاز صحراء بادية الشام أو صحراء السماوة بكاملها ليصل إلى دمشق، وهى صحراء قاحلة جداً، والسير فيها بجيش كبير يعتبر مخاطرة مروعة، ولا يستطيع هولاكو أن يقدم على هذه الخطوة.

وبدأ جيش التتار الجرّار فى التحرك من قواعده فى همدان فى اتجاه الغرب، حيث اجتاز الجبال فى غرب إيران، ثم دخل حدود العراق من شمالها الشرقى.

ثم اجتاز مدينة أربيل.

ووصل إلى مدينة الموصل الموالية له، فعبر عندها نهر دجلة، وهو العائق المائى الأول فى هذه المنطقة، وهو عائق خطير فعلاً.

وكان لابد من عبور هذا النهر فى منطقة آمنة تماماً، وذلك لخطورة عبور الجيش الكبير، ولم يكن هناك أفضل من هذه المنطقة الموالية تماماً له.

ثم سار جيش التتار بحذاء نهر دجلة على شاطئه الغربى فى أرض الجزيرة ليصل إلى مدينة «نصيبين» (فى جنوب تركيا الآن)، وهى منطقة تقع جنوب ميافارقين بحوالى ١٧٠ كيلو متر فقط، وبذلك اقترب من جيش ابنه أشموط، إلا أنه لم يذهب إليه لاطمئنانه لقوته وذلك وقت حصار ابنه لتلك الإمارة.

واحتل هولاكو مدينة «نصيبين» دون مقاومة تذكر.

ثم اتجه غرباً ليحتل مدينة «حران»، ثم مدينة «الرها» ثم مدينة «إلبيرة»، وكل هذه المدن فى جنوب تركيا.

فكان على هولاكو أن يخترق كل هذه المدن التركية لينزل على مدينة «حلب» من شمالها، وبذلك يطمئن لعدم وجود أى جيوب إسلامية فى ظهره.

وعند مدينة «إلبيرة» عبر هولاكو نهر الفرات الكبير من شرقه إلى غربه، وبذلك عبر العائق المائى الثانى فى المنطقة دون مشاكل تذكر.

ثم اتجه جنوباً غرب نهر الفرات ليخترق بذلك الحدود التركية السورية متوجهاً إلى مدينة حلب الحصينة، والقريبة جداً من الحدود التركية (حوالى خمسين كيلو متراً فقط).

واستمرت هذه الاختراقات التترية للأراضى الفارسية ثم العراقية ثم التركية ثم السورية مدة عام كامل - وهو عام ٦٥٧ هجرية - ووصل هولاكو إلى حلب فى المحرم من سنة ٦٥٨ هجرية.

وأطبقت الجيوش المغولية على المدينة المسلمة من كل الجهات.

ولكن حلب رفضت التسليم لهولاكو، وتزعم المقاومة فيها توران شاه عم الناصر يوسف الأيوبى، ولكنه كان مجاهداً بحق وليس كابن أخيه.

ونصبت المجانيق التترية حول مدينة حلب.. وبدأ القصف المتوالى من التتار على المدينة.. وبالطبع كان الناصر يوسف يتربص بجيشه بعيداً على مسافة ثلاثمائة كيلو متر إلى الجنوب فى دمشق ينتظر ما يحل بمدينة حلب حتى إذا سقطت هرب إلى منطقة أخرى وهو ما حدث بالفعل بعد سقوط حلب وسقوط ميافارقين وكل تلك الأحداث تتزامن مع بعضها فقد كان حصار تلك المدن فى وقت واحد.

وأصدر هولاكو بعض القرارات التى تدل على حنكته السياسية منها - أولاً: مكافأة ملك أرمينيا هيثوم بمكافأة كبيرة من غنائم حلب، وذلك تقديراً لمساعدات الجيش الأرمنى فى إسقاط بغداد ثم ميافارقين ثم حلب.

- ثانياً: على سلطانى السلاجقة: كيكاوس الثانى، وقلج أرسلان الرابع أن يعيدا بعض المدن والقلاع التى كان المسلمون قد فتحوها قبل ذلك إلى ملك أرمينيا، وذلك لتوسيع ملك الزعيم الأرمنى، وتثبيت أقدامه فى المنطقة كحليف استراتيجى أساسى لهولاكو.

- ثالثاً: يكافأ «بوهمند» أمير أنطاكية على تأييده لهولاكو، وذلك بإعطائه مدينة اللاذقية المسلمة له، ليضمها بذلك إلى أملاك إمارة أنطاكية، وكانت اللاذقية قد حررت من الصليبيين أيام صلاح الدين الأيوبى رحمه الله، ثم ظلت مسلمة إلى هذه اللحظة، ولكنها أهديت بكلمة واحدة إلى النصارى من هولاكو.

ثم رابعاً: بأن يعين بطريركا جديدا للكنيسة فى أنطاكية المحكومة أصلاً بالنصارى، ومن المعلوم أن هولاكو لم يكن نصرانياً، فالقرار يأتى من قبل من لا يفقه فى النصرانية شيئاً، وفوق ذلك فالبطريرك الجديد ليس من أنطاكية، بل ليس من نفس المذهب النصرانى الذى عليه بوهمند وهيثوم، وقد يكون ذلك إذلالاً من هولاكو لهم وهو ما جعلهم يحاربون الجيش المغولى قبل معركة عين جالوت.

وقام هولاكو بحصار حلب ووزع قادته على أبواب المدينة ونصبوا حوالى عشرين منجنيقاً وتم قذف المدينة ودار قتال عنيف استمر أسبوعاً سقط فيه خمسون ألفاً من المدافعين عنها.

وتمكن المغول من أختراق أسوار المدينة فى شهر ذى الحجة ٦٥٧ هـ - ١٢٥٩ م، وسقطت حلب فى أيديهم واعملوا فيها القتال والنهب والتدمير وذبحوا المسلمين كما فعلوا فى المدن الأخرى.

وكانت لكل مدينة قلعة حصينة، فلما سقطت مدينة حلب، بقيت القلعة تقاوم مدة أربعين يوماً وظل القتال متواصل بلا توقف حتى سقطت فى أيديهم ونظراً لأن أهلها دافعوا عنها ببسالة قام هولاكو بذبح كل من وجده فيها.

وحاصر هولاكو قلعة «حارم» والتى طلب أهلها الأمان بشرط تسليمها لفخر الدين المعروف بالساقى نظر لصدقه فى وعوده فغضب «هولاكو» لذلك ولكنه تظاهر بالموافقة.

فلما استلم القلعة أمر بقتل أهلها مرة واحدة نساءً وأطفالاً ورجالاً رغم إعطائهم الأمان.

وبعد تلك المذابح استسلمت مدن حماة وحمص والمعرة بلا قتال وسارع الأمراء بتقديم فروض الولاء والطاعة لهولاكو قبل أن يصل إليهم جيش المغول.

وهرب المسلمون فى المدن الأخرى السورية إلى مصر والجزيرة العربية خوفاً من هولاكو وجيشه.

وهرب السلطان الناصر من «دمشق»كما هرب من «حلب» وخرج أكابر دمشق لمقابلة هولاكو وأعربوا له عن ولائهم وطاعتهم له وسلموا له المدينة التى اضحت بلا مدافعين عنها بعد هرب السلطان فى مارس ١٢٦٠ م.

أما قلعة دمشق فقاومت المغول قدر استطاعتها واستسلمت للمغول.

وهرب السلطان الناصر حتى بلغ حدود مصر ولكن السلطان قطز رده عنها فتوجه إلى شرق الأردن حيث وقع أسيراً فى أيدى قوات المغول، ثم أرسلوه إلى هولاكو هو وولده العزيز وأخوه عام ٦٥٩ هـ، وظل محبوساً عنده حتى أمر هولاكو بقتلهم فى العام التالى(١).

وهكذا سقطت البلاد السورية فى أيدى هولاكو سلماً وقسراً وكذلك مدن فلسطين السامرة ونابلس وغيرهم لكنهم بفضل الله لم يدخلوا مدينة القدس.

واصبحوا على حدود مصر.

وقد أجمل ابن كثير رحمه الله ذلك فى البداية والنهاية فذكر انه استهلت سنة ٦٥٧ هـ.

وليس للمسلمين خليفة، وسلطان دمشق وحلب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز، وقد أرسل الملك الغاشم هولاكو إلى الملك الناصر صاحب دمشق يستدعيه إليه، فأرسل إليه ولده العزيز وهو صغير ومعه هدايا كثيرة وتحف فلم يحتفل به هولاكو، بل غضب على أبيه إذ لم يقبل إليه وأخذ ابنه وقال: أنا أسير إلى بلاده بنفسى.

فانزعج الناصر لذلك وبعث بحريمه وأهله إلى الكرك ليحصنهم بها، وخاف أهل دمشق خوفاً شديداً، ولاسيما لما بلغهم أن التتار قد قطعوا الفرات سافر كثير منهم إلى مصر فى زمن الشتاء فمات ناس كثير منهم ونُهبوا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وأقبل هولاكو فقصد الشام بجنوده وعساكره، وقد امتنعت عليه (ميافارقين) مدة سنة ونصف، فأرسل إليها ولده أشموط فافتتحها قسراً، وأنزل ملكها الكامل بن الشهاب غازى فأرسله إلى أبيه وهو محاصر حلب فقتله بين يديه، وطيف برأسه فى البلاد، ودخلوا به إلى دمشق.

وتواترت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام إذ دخل جيش المغول صحبة ملكهم هولاكو، وجاوزوا الفرات على جسور عملوها، ووصل إلى حلب فى ثانى صفر من هذه السنة فحاصروها سبعة أيام.

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير.

ثم افتتحوها بالأمان، ثم غدروا بأهلها، وقتلوا منهم خلقاً لا يعلمهم إلا الله عز وجل، ونهبوا الأموال، وسبوا النساء والأطفال.

وجرى عليهم قريب مما جرى على أهل بغداد، فجاسوا خلال الديار، وجعلوا أعزة أهلها أذلة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وامتنعت عليهم القلعة شهراً ثم استلموها بالأمان، وخربوا أسوار البلد وأسوار القلعة، وبقيت حلب كأنها حمار أجرب.

وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وقد كان أرسل هولاكو يقول لأهل حلب: نحن إنما جئنا لقتال الملك الناصر بدمشق، فاجعلوا لنا عندكم شحنة، فإن كانت النصرة لنا فالبلاد كلها فى حكمنا، وإن كانت علينا فإن شئتم قبلتم الشحنة، وإن شئتم أطلقتموه.

فأجابوه: مالك عندنا إلا السيف، فتعجب من ضعفهم وجوابهم، فزحف حينئذ إليهم، وأحاط بالبلد، وكان ما كان بقدر الله سبحانه.

ولما فتحت حلب أرسل صاحب حماه بمفاتيحها إلى هولاكو، فاستناب عليها رجلاً من العجم فخرب أسوارها كمدينة حلب.

وأرسل هولاكو وهو نازل حلب جيشاً مع أمير من كبار دولته يقال له كتبغاوين، فوردوا دمشق فى آخر صفر فأخذوها سريعاً من غير ممانعة ولا مدافعة، بل تلقاهم كبارها بالرحب والسعة.

وقد كتب هولاكو أماناً لأهل البلد فقرئ بالميدان الأخضر ونودى به فى البلد، فأمن الناس على وجل من الغدر كما فعل بأهل حلب، هذا والقلعة ممتنعة مستورة، وفى أعاليها المجانيق منصوبة والحال شديدة.

فأحضرت التتار منجنيقاً يحمل على عجل والخيول تجرها، وهم راكبون على الخيل، وأسلحتهم على أبقار كثيرة.

فنصب المنجنيق على القلعة من غربيها، وخربوا حيطاناً كثيرة، وأخذوا حجارتها ورموا بها القلعة رمياً متواتراً كالمطر المتدارك، فهدموا كثيراً من أعاليها وشرافاتها، وتداعت للسقوط، فأجابهم متوليها فى آخر ذلك للمصالحة ففتحوها، وخربوا كل بدنة

فيها، وأعالى بروجها، وقتلوا المتولى بها ونقيبها.

وسلموا البلد والقلعة إلى أمير منهم يقال له ابل سيان، وكان لعنه الله معظماً لدين النصارى، فاجتمع به أساقفتهم وقسوسهم، فعظمهم جداً وزار كنائسهم، فصار لهم دولة وصولة بسببه، وذهب طائفة من النصارى إلى هولاكو، وأخذوا معهم هدايا وتحفاً، وقدموا من عنده ومعهم أمان فرمان من جهته، ودخلوا من باب توما ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤوس الناس.

وهم ينادون بشعارهم ويقولون: ظهر الدين الصحيح دين المسيح، ويذمون الإسلام وأهله، ومعهم أوان فيها خمر لا يمرون على باب مسجد إلا رشوا عنده خمراً، وقماقم ملآنة خمراً يرشون منها على وجوه الناس وثيابهم، ويأمرون كل من يجتازون به فى الأزقة والأسواق أن يقوم لصلبهم.

ثم دخلوا بعد ذلك إلى كنيسة مريم، وكانت عامرة، ولكن كان هذا سبب خرابها، ولله الحمد، وضربوا بالناقوس فى كنيسة مريم.

وذكر أنهم دخلوا إلى الجامع بخمر، وكان فى نيتهم إن طالت مدة التتار أن يخربوا كثيراً من المساجد وغيرها، ولما وقع هذا فى البلد اجتمع قضاة المسلمين والشهود والفقهاء فدخلوا القلعة يشكون هذا الحال إلى متسلمهاابل سيان، فأهينوا وطردوا، وقدم كلام رؤوس النصارى عليهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وهذا كان فى أول هذه السنة وسلطان الشام الناصر بن العزيز مقيم فى جيوش كثيرة من الأمراء وأبناء الملوك ليناجزوا التتار إن قدموا إليهم، ولكن الكلمة بين الجيوش مختلفة غير مؤتلفة لما يريده الله عز وجل، وقد عزمت طائفة من الأمراء على خلع الناصر وسجنه ومبايعة أخيه شقيقه الملك الظاهر على، فلما عرف الناصر ذلك هرب إلى القلعة، وتفرقت العساكر شذر مذر.

وهكذا كان حال المسلمين شعوباً وقادة قد يسيطر عليه النزاع والفرقة فكانوا فريسة سهلة فى أيدى التتار المغول ولم ينقذهم فيها إلا حين توحدت كلمتهم تحت زعامة واحدة فى عين جالوت فجاء نصر الله والفتح.

ذكر مقتل الملك الناصر يوسف سلطان دمشق وحلب بعد القبض عليه بواسطة المغول

وفى عام ٦٥٩ هـ ورد الخبر بمقتل الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازى ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وعقد عزاه بجامع دمشق فى سابع جمادى الأولى من هذه السنة وصورة الحال فى قتله أنه لما وصل إلى هولاكو وعده برده إلى ملكه وأقام عند هولاكو مدة فلما بلغ هولاكو كسرة عسكره بعين جالوت وقتل كتبغا ثم كسرة عسكره على حمص ثانياً غضب من ذلك وأحضر الملك الناصر المذكور وأخاه الملك الظاهر غازى وقال له: أنت قلت أن عسكر الشام فى طاعتك فغدرت بى وقتلت (المغول).

فقال الملك الناصر: لو كنت فى الشام ما ضرب أحد فى وجه عسكرك بالسيف ومن يكون ببلاد توريز كيف يحكم على بلاد الشام.

فاستوفى هولاكو لعنه الله ناصجاً وضربه به.

وكان الملك الناصر قد هرب من هولاكو بعد أن تحالف معه ضد المسلمين وحرضه على غزو مصر.

فقال الملك الناصر: يا خوند الصنيعة.

فنهاه أخوه الظاهر وقال: قد حضرت.

ثم رماه بفرده ثانية فقتله ثم أمر بضرب رقاب الباقين فقتلوا الظاهر أخا الملك الناصر والملك الصالح ابن صاحب حمص والجماعة الذين كانوا معهم.

واستبقوا الملك العزيز ابن الملك الناصر لأنه كان صغيراً فبقى عندهم مدة طويلة

وأحسنوا إليه ثم مات.

وكان قد تولى الملك الناصر المذكور مملكة حلب بعد موت أبيه العزيز وعمره سبع سنين وأقامت جدته ضيفة خاتون بنت الملك العادل بتدبير مملكته واستقل بعد وفاتها فى سنة أربعين وستمائة وعمره ثلاث عشرة سنة.

وزاد ملكه على ملك أبيه وجده فإنه ملك مثل حران والرها والرقة ورأس عين وما مع ذلك من البلد وملك حمص.

ثم ملك دمشق وبعلبك والأغوار والسواحل إلى غزة وعظم شأنه وكسر عساكر مصر وخطب له بمصر وبقلعة الجبل وكان قد غلب على الديار المصرية لولا هزيمته وقتل مدبر دولته شمس الدين لؤلؤ الأرمنى ومخامرة مماليك أبيه العزيزية.

وكان يذبح فى مطبخه كل يوم أربعمائة رأس غنم وكانت سماطته وتجمله فى الغاية القصوى وكان حليماً وتجاوز به الحلم إلى حد أضر بالمملكة فإنه لما أمنت قطاع الطريق فى أيام مملكته من القتل والقطع تجاوزوا الحد فى الفساد بالمملكة.

وانقطعت الطرق فى أيامه وبقى لا يقدر المسافر على السفر من دمشق إلى حماه وغيرها إلا برفقة من العسكر وكثر طمع العرب والتركمان فى أيامه وكثرت الحرامية وكانوا يكبسون الدور.

ومع ذلك إذا أحضر القاتل إلى بين يدى الملك الناصر المذكور يقول: الحى خير من الميت ويطلقه.

فأدى ذلك إلى انقطاع الطرقات وانتشار اللصوص والمفسدين وكان على ذهن الناصر المذكور شىء كثير من الأدب والشعر.

ويروى له أشعار كثيرة منها:

فوالله لو قطعت قلبى تأسفاً وجرعتنى كاسات دمعى دماً صرفا

لما زادنى إلا هوى ومحبة ولا اتخذت روحى سواك لها إلفا

وبنى فى دمشق مدرسة قريب الجامع تعرف بالناصرية ووقف عليها وقفاً جليلاً وبنى بالصالحية تربة غرم عليها جملاً مستكثرة فدفن فيها كرمون بعض أمراء التتر.

وكانت منية الملك الناصر ببلاد العجم وكان مولد الناصر المذكور فى سنة سبع وعشرين وستمائة فيكون عمره حين قتل اثنين وثلاثين سنة تقريباً(١).

وفى هذه السنة فى رجب قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله محمد ابن الإمام الناصر وأنه خرج من دار الخلافة ببغداد لما ملكها التتار فعقد الملك الظاهر بيبرس مجلساً حضر فيه جماعة من الأكابر منهم الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام والقاضى تاج الدين عبد الوهاب بن خلف المعروف بابن بنت الأعز فشهد أولئك العرب أن هذا الشخص المذكور هو ابن الإمام الظاهر محمد ابن الإمام الناصر فيكون عم المستعصم.

وأقام القاضى جماعة من الشهود اجتمعوا بأولئك العرب وسمعوا شهاداتهم ثم شهدوا بالنسب بحكم الاستفاضة فأثبت القاضى تاج الدين نسب أحمد المذكور ولقب المستنصر بالله أبا القاسم أحمد بن الظاهر بالله محمد وبايعه الملك الظاهر والناس بالخلافة واهتم الملك الظاهر بأمره وعمل له الدهاليز والجمدارية وآلات الخلافة واستخدم له عسكراً وغرم على تجهيزه جملاً طائلة.

قيل إن قدر ما غرمه عليه ألف ألف دينار (مليون) وكانت العامة تلقب الخليفة المذكور بالزرابينى وبرز الملك الظاهر والخليفة الأسود المذكور فى رمضان من هذه السنة وتوجها إلى دمشق وكان فى كل منزلة يمضى الملك الظاهر إلى دهليزه الخاص به ولما وصل إلى دمشق نزل الملك الظاهر بالقلعة ونزل الخليفة فى جبل الصالحية ونزل حول الخليفة أمراؤه وأجناده(٢).

ثم جهز الخليفة عسكره إلى جهة بغداد طمعاً فى أنه يستولى على بغداد ويجتمع عليه الناس فسار الخليفة الأسود بعسكره من دمشق وركب الملك الظاهر وودعه ووصاه

---

(١)، (٢) انظر المختصر فى أخبار البشر - لأبى الفداء الملك المؤيد اسماعيل بن على بن عماد الدين.
وكان ذلك بعد موقعة عين جالوت وهزيمة التتار وتولى حكم مصر الظاهر بيبرس.

بالتأنى فى الأمور ثم عاد الملك الظاهر إلى دمشق من توديع الخليفة ثم سار إلى الديار المصرية ودخلها فى سابع عشر ذى الحجة من هذه السنة ووصلت إليه خطب الخليفة بالديار المصرية أنه قد استولى على عانة والحديثة وولى عليهما وأن كتب أهل العراق وصلت إليه يستحثونه على الوصول إليهم ثم قبل أن يصل إلى بغداد وصلت إليه التتر وقتلوا الخليفة المذكور وقتلوا غالب أصحابه ونهبوا ما كان معه وجاءت الأخبار بذلك.

ذكر غير ذلك من الحوادث فى هذه السنة لما سار الملك الظاهر إلى الشام أمر القاضى شمس الدين بن خلكان فسافر فى صحبته من مصر إلى الشام فعزل على قضاء دمشق نجم الدين بن صدر الدين بن سنا الدولة وكان قطز قد عزل المحيى بن الزكى الذى ولاه هولاكو القضاء وولى ابن سنا الدولة فعزله الملك الظاهر فى هذه السنة وولى القضاء شمس الدين بن خلكان.

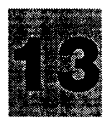
وفيها قدم أولاد صاحب الموصل وهم الملك الصالح إسماعيل ثم أخوه الملك المجاهد إسحاق صاحب جزيرة ابن عمر ثم أخوهما الملك المظفر على صاحب سنجار أولاد لؤلؤ فأحسن الملك الظاهر إليهم وأعطاهم الإقطاعات الجليلة بالديار المصرية واستمروا فى أرغد عيش فى طول مدة الملك الظاهر.

وتلك الأحداث كانت بعد موقعة عين جالوت وهزيمة التتار واندحارهم من الشام وقد ظلت بلاد الإسلام دون خليفة قرابة - الثلاث السنوات ثم انتقلت الخلافة العباسية وأصبح مقرها مصر وكانت خلافة رمزية صورية حتى دخول العثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول فانتهت تلك الخلافة الرمزية وانتقلت إلى آل عثمان الأتراك حتى أسقطها الماسونى أتاتورك عام ١٩٢٤ م.



نهاية الزحف المغولى التتارى على العالم الإسلامى

- أسباب هزيمة المسلمين أمام التتار المغول.
- وجاء نصر الله والفتح فى « عين جالوت » بهزيمة التتار واندحارهم عن الشام.
- توالى الهزائم على جيوش هولاكو بعد عين جالوت.



أسباب هزيمة المسلمين
أمام التتار المغول

كما رأينا أن المسلمين واجهوا التتار المغول فرادى، بل إن بعضهم قاتل بعضا فى أثناء الاجتياح المغولى لديارهم وأن بعض عناصر الأمة من غير المسلمين تآمروا عليها وهذا غباء محكم تكرر فى فترات التاريخ فى كل البلدان العربية التى احتلها المستعمر الأوربى أو المغولى.

فالاستعمار لا يدوم مهما طالت مدة احتلاله لأى بلد، والتاريخ خير شاهد على ذلك، ولذلك كان من الغباء والخيانة أن يتعاون غير المسلمين من النصارى واليهود وغيرهم مع المحتل كما حدث فى بعض بلاد الشام كما ذكر المؤرخون مثل ابن كثير وغيره وكما حدث أيضاً فى مصر أيام الاحتلال الفرنسى فى حملة نابليون الشهيرة وغير ذلك، لأن الاستعمار يرحل ويبقى أبناء الأمة الواحدة معاً بعده.

والواجب حين تواجه أى بلد من البلدان فى العالم الخطر بالغزو يتحد أبناء الأمة مهما كانت دياناتهم ضد هذا المعتدى.

فالاتحاد قوة ولا سيما إذا كان المتحدون أبناء دين واحد فى مواجهة عدو واحد وهذا مالم يحدث حين هاجم المغول التتار العالم الإسلامى منذ عهد جنكيز خان.

فقد كانت الصراعات والحروب بين أبناء الدين الواحد بل والوطن الواحد على أشدها فحين استطاع جنكيز خان توحيد المغول والتتار الهمج المتفرقين فيما بينهم وجعلهم أمة واحدة يحكمها قانون واحد وضعه هو من وحى الشيطان وأفكاره التوسعية.

والمغول التتار من أشرس المستعمرين الذين عرفهم التاريخ البشرى لا ينافسهم فى أفعالهم التى فعلوها مع شعوب الأرض إلا المستعمر الجديد فى القرن الواحد والعشرين الذى قام بغزو أفغانستان والعراق ويريد المزيد من احتلال الدول العربية والإسلامية الأخرى.

وكانت من أساليب انتتار المغول فى حروبهم استخدام الحرب النفسية والمخابراتية كما ذكرنا حتى ظن الناس أن المغول ليسوا من جنس البشر وأنهم جاءوا من أب غير آدم أبى البشرية.

والقارئ لتاريخ التتار يجد أنهم يتأججون فترة من الزمن ثم تخمد نيران تأججهم حين تواجههم الشعوب التى يحتلونها ويتحدون ضدهم وحين يموت زعيمهم الذى يقود تأججهم(١).

وهذا ما حدث فى خروج المغول التتار على العالم الإسلامى، وبعد احتلالهم دمشق وبلاد الشام حتى وصلوا إلى حدود فلسطين ومصر مات زعيمهم وقائدهم وملكهم «منكو خان».

جاء رسل من العاصمة المغولية إلى «هولاكو» وهو فى قمة زهوه بما حققه من انتصارات أن شقيقه زعيم المغول «منكو خان» قد مات.

وفى مثل هذه الحالات عند موت زعيم المغول يجب على جميع القادة المغول العودة إلى ديارهم لعقد جلسات لمجلس الشورى (القورليتارى) لاختيار زعيم جديد لهم.

وغادر «هولاكو» أرض الشام عائداً إلى بلاده وأسند قيادة الجيش المغولى لأفضل قواده «كيتو بوقا» كى يستكمل الخطة الاستعمارية التدميرية للعالم الإسلامى بغزو البلاد المصرية وقد أرسل هولاكو برسالة إلى سلطان مصر يطالب بالاستسلام والخضوع كعادة التتار مع أى دولة يغزونها وجاء فى تلك الرسالة:

«إن الله قد رفع شأن جنكيز خان وأسرته ومنحنا ممالك الأرض برمتها، وكل من يتمرد علينا ويعصى أمرنا يقضى عليه مع نسائه وأبنائه وأقاربه والمتصلين به وبلاده ورعاياه كما بلغ ذلك أسماع الجميع.

أما جيشنا الذى لا حصر له قد بلغ الشهرة كقصة رستم واسفنديار».

فإذا كنت مطيعاً كخدم حضرتنا، فأرسل إلينا الجزية وأقدم بنفسك وإلا فكن

(١) إقرأ كتابنا «يأجوج ومأجوج من الوجود إلى الفناء» فهو كتاب جامع لتاريخ يأجوج ومأجوج منذ وجودهم حتى خروجهم قرب القيامة، الناشر دار الكتاب العربى.

مستعداً للقتال(١).

لم تختلف رسالة هولاكو لسلطان مصر عن رسائله لباقى الزعماء والملوك الآخرين الذين احتل بلادهم وقتلهم كما ذكرنا.

وكانت مصر وقتها فى بداية عصر حكم المماليك ونهاية عصر حكم الأسرة الأيوبية، وكانت تعج بالخلاف بعد مقتل سلطانها المملوكى عز الدين أيبك على يد زوجته شجرة الدر ثم مقتل الأخيرة على يد مماليك زوجها وتولية ابنه الصغير السن مكانه وجُعل قائد المماليك قطز نائباً له.

فلما حل التتار ببلاد الشام وقربهم من مصر وتهديدهم لها تم الاتفاق على قطز سلطاناً على مصر وتوحدت الكلمة عليه وهو الذى قاد المماليك والمصريين وكل من انضم تحت لوائه من المسلمين لحرب التتار المغول والانتصار عليهم.

وحين أسرع هولاكو بالعودة، وصل إلى إقليم فارس جاءته الرسل من قراقورم بأنه قد تم اختيار أخيه «قوبيلاى» خاقاناً جديداً للتار، ومع أن الأمر كان صدمة كبيرة لأحلام هولاكو، وكان على خلاف توقعاته.

بل وعلى خلاف قواعد الحكم التى وضعها جنكيز خان قبل ذلك، إلا أنه تقبل الأمر بهدوء، وأصر أن يمكث فى منطقة الشرق الأوسط، لاسيما وقد رأى الخيرات العظيمة فى هذه المناطق.

لكنه لم يرجع مرة أخرى إلى الشام، بل ذهب إلى تبريز (فى إيران حالياً)، وجعلها مركزاً رئيسياً لإدارة كل هذه الأملاك الواسعة، وتبريز بالإضافة إلى حصانتها وجوها المعتدل، فإنها تتوسط المساحات الهائلة التى دخلت تحت حكم هولاكو حتى الآن.

فهو يحكم بداية من أقاليم خوارزم والتى تضم كزاخستان وتركمنستان وأوزباكستان وأفغانستان وباكستان، ومروراً بإقليم فارس وأذربيجان، وانتهاء بأرض العراق وتركيا والشام.

والذى شجعه أكثر على عدم الرجوع إلى الشام هو أن ما تبقى فى بلاد الشام يعتبر جزءاً بسيطاً ضعيفاً ليس فيه مدن كبيرة، لاسيما أنه قد سمع قبل رجوعه بفرار جيش

(١) جامع التواريخ ـ مصدر سابق.

الناصر يوسف الأيوبى فى اتجاه الجنوب إلى فلسطين تاركاً وراءه دمشق دون حماية.

غير أن هولاكو لم ينس أن يرسل رسالة هامة إلى (كتبغا) يؤكد له فيها على ضرورة الإمساك بهذا المتمرد الصعلوك «الناصر يوسف الأيوبى»، وهذا ما حدث بالفعل كما ذكرنا.

وقام قائد هولاكو «كتبغا نوين» باستكمال المسيرة المغولية القوية بعد احتلال دمشق وفلسطين والاستعداد بغزو مصر وإخضاعها لحكم المغول تحت قيادة هولاكو، فكانت نهايته فى عين جالوت.



وجاء نصر الله والفتح فى معركة عين جالوت وهزيمة التتار واندحارهم أمام المسلمين من بلاد الشام

لكل طاغية نهاية محتومة مهما طالت فترة حكمه فدولة الظلم ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة.

فقد ترك هولاكو مهمة غزو مصر لقائده «كتبغا» التركى الأصل والذى يدين بالنصرانية النسطورية وذلك لضمانه فتح مصر بسهولة حيث إن الحكم الأيوبى قد انتهى فيها وإن الصراع قائم على أشده فيما بين المماليك الذين جاء بهم الملك الصالح الأيوبى، بالإضافة إلى كرسى الحكم يجلس عليه صبى صغير هو ابن المعز أيبك تحت وصاية قطز.

واكتفى هولاكو بإرسال رسالة إلى قطز يأمره بالاستسلام.

وكان من نتيجة الغزو المغولى للشام أن فر كثير من أهل الشام إلى مصر.

وفى هذه الأثناء بعث الملك الناصر يوسف الذى أفاق بعد فوات الأوان برسول إلى مصر يستنجد بعساكرها للوقوف ضد الزحف المغولى، وكانت أخبار المغول قد انتشرت فى مصر وأحدثت رعباً وهلعاً.

ولما كان سلطان مصر غير جدير بتحمل مسئولية البلاد فى مواجهة الخطر القادم، فقد أقدم نائبه «سيف الدين قطز» على خلعه، محتجاً بأنه لابد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك الصبى صغير لا يعرف تدبير المملكة، ولم يجد قطز معارضة لما أقدم عليه، والخطر محدق بالبلاد، والسلطان قد ازدادت مفاسده وانفض الجميع من حوله.

بدأ السلطان قطز يوطد أركان دولته ويثبت دعائم حكمه، فعين من يثق فيهم فى مناصب الدولة الكبيرة، وقبض على أنصار السلطان السابق، وأخذ يستعد للجهاد وملاقاة المغول، وسمح برجوع بعض أمراء المماليك من خصومه وكانوا بالشام، وعلى رأسهم بيبرس

البندقدارى فرحب به، وأحسن معاملته، وأقطعه قليوب بمصر ومناطق الريف المجاورة لها، وأغرى قوات الناصر يوسف الأيوبى - الذى فر من دمشق وطالب نجدة المماليك بمصر - وبالانضمام إلى جيشه وكانت بالقرب من غزة، فاستجابت لدعوته.

وفى تلك الأثناء وصلت رسل هولاكو إلى القاهرة تحمل خطاباً يقطر كبراً وغطرسة، ويمتلىء بالتهديد والوعيد، ومما جاء فيه: « .. إنا جند الله فى أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطانا على من حل به غضبه، فلكم بجميع الأمصار معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وسلموا إلينا أمركم.. فنحن لا نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى.. فما لكم من سيوفنا خلاص ولا من أيدينا مناص، فخيولنا سوابق، وسيوفنا صواعق، ورماحنا خوارق....».

وعقد السلطان قطز مجلساً من كبار الأمراء، واستقر الرأى على مقابلة وعيد المغول بالاستعداد للحرب، وعزز ذلك بقتل رسل المغول، رداً على تهديد هولاكو وكان هذا التصرف إعلاناً للحرب وإصراراً على الجهاد.

وفى الوقت نفسه بدأ قطز يعمل على حشد الجيوش وجمع الأموال اللازمة للإنفاق على الاستعدادات والتجهيزات العسكرية، وقبل أن يفرض ضرائب جديدة على الأهالى جمع ما عنده وعند أمرائه من الحلى والجواهر، واستعان بها فى تجهيز الجيش استجابة لفتوى الشيخ «العز بن عبد السلام» أقوى علماء عصره.

ولم يقتصر الأمر على هذا، بل لقى صعوبة فى إقناع كثير من الأمراء بالخروج معه لقتال التتار، فأخذ يستثير نخوتهم ويستنهض شجاعتهم بقوله: «يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبنى، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه..»، فأثرت هذه الكلمة فى نفوسهم، وقوت من روحهم، فخرجوا معه وتعاهدوا على القتال.

وأمر السلطان قطز بقتل رسل هولاكو حتى لا يتردد أحد فى اللجوء للتتار إعلاناً منه للحرب عليهم.

وفى (رمضان ٦٥٨ هـ = أغسطس ١٢٦٠ م) خرج قطز من مصر على رأس الجيوش المصرية ومن انضم إليه من الجنود الشاميين وغيرهم، وترك نائباً عنه فى مصر هو

الأتابك فارس الدين أقطاى المستعرب، وأمر الأمير بيبرس البندقدارى أن يتقدم بطليعة من الجنود ليكشف أخبار الجنود، فصار حتى لقى طلائع لهم فى غزة، فاشتبك معهم، وألحق بهم هزيمة كان لها أثر فى نفوس جنوده، وأزالت الهيبة من نفوسهم.

وقبل الخروج قام قطز بجهود دبلوماسية رائعة لتمهيد الطريق إلى اللقاء الكبير المرتقب مع التتار.

فقد كانت هناك أجزاء ليست بالقليلة من فلسطين ولبنان وسوريا ـ وخاصة على ساحل البحر الأبيض المتوسط ـ محتلة من قبل الإمارات الصليبية، فكانت هناك إمارات صليبية فى عكا وحيفا وصيدا وصور وبيروت واللاذقية وأنطاكية وغيرها، وكانت أقوى هذه الإمارات مطلقاً هى إمارة عكا فى فلسطين.

وهذه الإمارة تقع فى طريق قطز إذا أراد أن يحارب التتار فى فلسطين.

فقام بالاتصال بهم لطلب العفو أو الصلح ولكن لتحذيرهم لأنه يعلم أنهم أعداء الأمة كما أن التتار أعداء الأمة، بل إن الصليبيين كانوا أشد خطراً على الإسلام من التتار.

لأن حرب التتار حرب همجية ليست لها جذور ولا أهداف ولا قواعد، فهى لمجرد التدمير والسطو ونهب الخيرات.

أما المشروع الصليبى فى أرض الإسلام فهو مشروع مختلف، فالصليبيون يحاربون المسلمين حرباً عقائدية، والكراهية شديدة فى قلوبهم للمسلمين، وتخطيطهم لحرب الإسلام نفسه.

بينما كان التتار يحاربون أى بشر وأى حضارة، والمشروع الصليبى يهدف إلى الاستيطان فى بلاد المسلمين، وإحلال النصارى مكان سكان البلد المسلمة الأصيلة سواء فى فلسطين أو فى سوريا أو فى لبنان، وشتان بين احتلال الشعوب واحتلال الجيوش فالجيوش التترية ليس لها مستقبل بل إلى المغادرة لا محالة.

أما الشعوب الصليبية المستوطنة فقد جاءت لتعيش فى هذا المكان، وليعيشوا فيها ويجعل خطورتهم أكبر من خطورة التتار، مع أن الحروب التترية أشد فتكاً وأكثر تدميراً من حروب الصليبيين، وكلاهما مر وكلاهما أعداء لا يجوز التصالح معهم.

بالإضافة إلى أن تاريخ التعاون مع التتار قديم ومعروف، فهم الذين رغبوا التتار أصلاً فى بلاد المسلمين من أيام جنكيز خان، وهم الذين ساعدوا هولاكو فى إسقاط بغداد ومدن الشام، وما تحالف التتار مع الأرمن والكرج وأنطاكية ببعيد ومن الممكن أن يصل التتار إلى تحالف استراتيجى خطير مع الصليبيين فى عكا لكن هذا الأمر مستبعد لنشوب حرب بينهما قبل وقوع معركة عين جالوت مباشرة.

لكن هذا التحالف الصليبى التترى أمر وارد، إلا أن قطز رحمه الله كان يعلم أن الصليبيين فى عكا يكرهون التتار أيضاً كما يكرهون المسلمين، وهم لا يكرهونهم فقط بل يخافون منهم كما أن التتار لا عهد لهم أبداً، ومذابح التتار الجماعية مشهورة وفظائعهم فى شرق أوروبا وفى روسيا لا تنسى، وأعداد النصارى الذين قتلوا على أيدى التتار لا تحصى.

كما أن نهب إمارتى صيدا وبيروت على يد التتار لم يمضى عليه إلا شهور قليلة هذا كله بالإضافة إلى الحقد الصليبى الرهيب على هولاكو لأنه فرض بطريركاً أرثوذكسياً يونانياً على كنائس أنطاكية الكاثوليكية الإيطالية ذلك فى سابقة لم تحدث قبل ذلك أبداً، والجميع يعلم العداء المستحكم بين الأرثوذكس والكاثوليك، ونصارى عكا كانوا من الكاثوليك ومتعصبين جداً، ولا يتصورون أن يحدث ذلك فى أنطاكية فضلاً أن يحدث معهم فى عكا.

فكل هذه الخلفيات تجعل الصليبيين فى عكا يتوجسون خيفة من التتار، ويعاملونهم فى حذر شديد ويرضون بالوقوف على الحياد لعل الطرفين المتصارعين يفتكون ببعض!!

بالإضافة كون الصليبيين فى ذلك الوقت يعانون من ضعف شديد، فمنذ هزيمة المنصورة سنة ٦٤٨ هجرية، ومنذ رحيل لويس ملك فرنسا إلى بلده، وقتل عدد كبير من الجنود الصليبيين فى هذه المعركة، وأسر كل الجيش الباقى، منذ كل هذه الأحداث والصليبيون فى تدهور مستمر.

فكل هذه التداعيات أدّت إلى هبوط كبير فى إمكانيات وقدرات ومعنويات الجيش الصليبى فى عكا، ومن هنا فقطز يعلم أنه يتعامل مع عدو شديد الكراهية، ولكنه ليس شديد القوة.

وإمارة عكا إمارة من أحصن المدن على الإطلاق فى كل الشام وفلسطين، واستولى عليها النصارى سنة ٤٩٢ هجرية، أى منذ مائة وست وستين سنة، ومنذ ذلك التاريخ والقواد المسلمون بمن فيه صلاح الدين الأيوبى يفشلون دائماً فى فتحها، ولا شك أن قطز يعلم أن فتح المدينة صعب جداً، حتى وإن كانت الإمارة فى أشد حالالت ضعفها حتى صارت مثلاً.

ووجد قطز رحمه الله أن قتال الصليبيين فى عكا سيؤثر سلباً على جيشه، والهدف المرحلى الآن هو قتال التتار، وحصار المدينة الحصينة عكا وقتال حاميتها سيضعف جيش المسلمين، وسيضيع عليهم وقتاً، وسيبدد طاقاتهم، وسيرهق جيشهم قبل الموقعة الكبيرة مع التتار.

وبما أن قطز لا يستطيع أن يحارب التتار فى فلسطين دون الانتهاء من مشكلة الصليبيين فى عكا، ولو حدث تعاون (صليبى ـ تترى) فإن هذا سيضع الجيش المسلم بين شقى الرحى.. بين التتار من جهة، وبين الصليبيين من جهة أخرى.

وجد قطز رحمه الله أن أفضل الحلول هو الإسراع بعقد معاهدة مع الصليبيين فى عكا، قبل أن يتحالف الصليبيون مع التتار.

وأسرع قطز رحمه الله بإرسال سفارة إلى عكا للتباحث فى إمكانية إقامة هدنة سلام مؤقتة بين المسلمين والصليبيين، ولو وُفق الوفد المسلم فى هذه الهدنة فإن هذا سيحيّد جيش الصليبيين من جهة، وسيُؤمّن ظهر الجيش المسلم من ناحية أخرى.

وبالفعل جلس الوفد المسلم مع أمراء الصليبيين يتباحثون فى أمر هذه الهدنة، وكان الصليبيون من الضعف بحيث أنهم خافوا ألا يظفروا من المسلمين بعهد فينقلب عليهم المسلمون.

ولذلك فقد تقبلوا فكرة الهدنة بسرعة، بل أن بعضهم عرض فكرة التحالف العسكرى لقتال التتار، غير أن هذه الفكرة لم تلق موافقة من كلا الطرفين.

فبقية أمراء الصليبيين كانوا يخشون من الخروج من عكا بجيشهم فيدخل المسلمون عكا إذا انتصروا على التتار، كما أن المسلمين كانوا لا يضمنون خيانة الصليبيين أثناء القتال، وخاصة أن جيش التتار متعاون مع بعض ملوك وأمراء النصارى (ملك أرمينيا وملك الكرج وأمير أنطاكية).

لذلك قبل الطرفان بفكرة الهدنة المؤقتة، وأصر الوفد المسلم على أن تكون هذه

الهدنة مؤقتة تنتهى بانتهاء حرب التتار، لأنه ليس من المقبول شرعاً أن يقر المسلمون بسلام دائم مع مغتصب للأرض الإسلامية، وليس من الشرع أن يعترف المسلمون بدولة صليبية أو غيرها فوق الأرض الإسلامية مهما تقادم الزمان عليها فى احتلال الأرض واستيطانها، ومع ذلك لم يعترف قطز أبداً بأحقية هؤلاء المغتصبين فى الأرض الفلسطينية المسلمة.

ولكن لأن قطز رحمه الله يعلم أن هؤلاء لا يرقبون فى مؤمن إلاّ ولا ذمة، فإنه أخذ حذره عن طريق الترهيب والترغيب مع الصليبيين، فقد حذرهم الوفد المسلم بشدة من أنه إذا حدثت أى خيانة للعهد، فإن المسلمين سيتركون التتار وينقلبون على الصليبيين، ولن يتركوهم حتى يحرروا عكا.

وهكذا فالمعاهدة من منطلق القوة والبأس تختلف كثيراً عن المعاهدة من منطلق الضعف والخَوَر، فالقوى دائماً يملى شروطه، والضعيف يتلقى شروط الآخر، وهكذا حل قطز مشكلة الصليبيين قبل لقائه المغول فى عين جالوت بحكمة وفطنة وذكاء سياسى.

وأرسل قطز الأمير بيبرس مع طليعة من الجيش ليكون مقدمة للجيش واجتاز ركن الدين بيبرس الحدود المصرية فى ٢٦ يوليو سنة ١٢٦٠ م، ودخل حدود فلسطين المباركة، وتبعه قطز بعد ذلك فى سيره، واجتازوا رفح وخان يونس ودير البلح واقتربوا جداً من غزة وكان التتار قد احتلوا غزة، وحدث ما توقعه قطز رحمه الله.

واكتشفت عيون التتار مقدمة الجيش الإسلامى بقيادة ركن الدين بيبرس، واعتقدت أن هذا هو جيش المسلمين كله.

ونقلت الأخبار إلى حامية غزة التترية، وأسرعت الحامية المغولية للقاء ركن الدين بيبرس، وتم قتال سريع بينهما وجيش قطز الرئيسى ما زال يعبر الحدود الفلسطينية المصرية.

وكانت مقدمة الجيش المسلم مقدمة قوية وقائدها ركن الدين بيبرس قائد بارع، والحامية المغولية فى غزة صغيرة نسبياً، والجيش المغولى الرئيسى على مسافة كبيرة من غزة.

حيث كان جيش التتر بقيادة كتبغا يربض فى سهل البقاع فى لبنان على مسافة

ثلاثمائة كيلو متر تقريباً من غزة.

فتم اللقاء فى غزة بمعزل عن الجيوش الرئيسية للمسلمين والتتار، وبفضل الله استطاعت مقدمة الجيش المسلم أن تنتصر فى هذه الموقعة الصغيرة، وقُتل بعض جنود الحامية المغولية، وفرّ الباقون فى اتجاه الشمال لينقلوا الأخبار إلى كتبغا فى لبنان فكان ذلك فألاً حسناً قبل المعركة الحاسمة ونجاح لخطة قطز التى وضعها.

واكتشف المغول أن هناك طائفة من المسلمين ما زالت تقاتل، ومازالت تحمل السيوف، ومازالت تدافع عن دينها وعن أرضها وعن شرفها وعن كرامتها، لقد ألف التتار أن يجدوا جمع المسلمين يفرون ويهربون، وألف زعماء التتار أن يجدوا زعماء المسلمين يطالبون التحالف المخزى والركوع المذل، وما توقعوا أن تتقدم طائفة مسلمة تقاتلهم وتسرع الخطى إليهم وتحدد هى أرض المعركة.

وهذا تصديقاً لقوله ﷺ: «لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتى أمر الله»(١).

وهى رواية الإمام أحمد عن أبى أمامة رضي الله عنه وهناك زيادة وهى أن الصحابة سألوا عن هذه الطائفة فقالوا: «يا رسول الله وأين هم؟».

قال« بيت المقدس، وأكناف بيت المقدس» وهذه الطائفة مازالت تقاتل اليهود حتى قيام الساعة فى فلسطين.

ووصل جيش قطز إلى أرض سهل عين جالوت واختار قطز المكان واستبشر به فهو يقع على مسافة ٦٥ كيلو متر جنوب منطقة حطين التى دارت فيها الموقعة الخالدة حطين فى سنة ٥٨٣ هجرية قبل خمس وسبعين سنة من وقعة عين جالوت.

ويقع كذلك على مسافة حوالى ستين كيلو متر إلى الغرب من منطقة اليرموك حيث دارت المعركة الخالدة بقيادة خالد بن الوليد وأبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنهما ضد الروم منذ أكثر من ستة قرون.

وجد قطز رحمه الله سهل عين جالوت منطقة مناسبة جداً للمعركة المرتقبة، فهو سهل

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه.

واسع منبسط تحيط به التلال المتوسطة من كل جوانبه إلا الجانب الشمالى فهو مفتوح.

كما تعلو هذه التلال الأشجار والأحراش، مما يوفر مخبأً مناسباً جداً للجيش الإسلامى، فيسهل عمل الكمائن الكثيرة على جوانب السهل المنبسط، وتلك كانت خطة قطز العسكرية.

ولذلك رتّب قطز جيشه بسرعة، فوضع على ناحية السهل الشمالية مقدمة جيشه بقيادة ركن الدين بيبرس، وجعلها فى مكان ظاهر حتى يغرى جيش التتار بالقدوم إليها.

بينما أخفى قطز بقية الجيش خلف التلال والأحراش حتى يفاجأ به جيش المغول الذى سوف يتقدم ظناً منه انه انتصر.

وكان هذا الترتيب والإعداد فى ٢٤ رمضان من سنة ٦٥٨ هجرية فى العشر الأواخر من شهر رمضان الكريم، وهو الشهر الذى حدثت فيه الانتصارات الإسلامية الخالدة قبل ذلك.. مثل بدر وفتح مكة وفتح الأندلس.

وانتظر المسلمون على تعبئة، وعيونهم الاستخبارية تنقل أخبار كتبغا وجيش التتار، وقد اقتربوا جدّاً من سهل عين جالوت.

وكان الجيش المغولى يقوده كيتو بوقا (كتبغا) بعد أن غادر هولاكو الشام إلى بلاده للاشتراك فى اختيار خاقان جديد للمغول، وجمع القائد الجديد قواته التى كانت قد تفرقت ببلاد الشام فى جيش موحد، وعسكر بهم فى عين جالوت، وكله ثقة فى الفوز ورفض نصح أمراء المغول فى استدعاء ملكهم هولاكو الذى ركن إلى الراحة والتمتع بالملك وما حققه من انتصارات.

اقتضت خطة السلطان قطز أن يخفى قواته الرئيسية فى التلال والأحراش القريبة من عين جالوت، وألا يظهر للعدو المتربص سوى المقدمة التى كان يقودها الأمير بيبرس.

وما كاد يشرق صباح يوم الجمعة (٢٥ من رمضان ٦٥٨ هـ = ٣ من سبتمبر ١٢٦٠ م) حتى اشتبك الفريقان، وانقضت قوات المغول كالموج الهائل على طلائع الجيش المصرية، حتى تحقق نصراً خاطفاً، وتمكنت بالفعل من تشتيت ميسرة الجيش.

غير أن السلطان قطز ثبت كالجبال، وصرخ بأعلى صوته: «واإسلاماه!».

فعمت صرخته أرجاء المكان، وتوافدت حوله قواته، وانقضوا على الجيش المغولى الذى فوجئ بهذا الثبات والصبر فى القتال وهو الذى اعتاد على النصر الخاطف، فانهارت عزائمه وارتد مذعوراً لا يكاد يصدق ما يجرى فى ميدان القتال، وفروا هاربين إلى التلال المجاورة بعد أن رأوا قائدهم كيتو بوقا يسقط صريعاً فى أرض المعركة، فكان مفتاح النصر للمسلمين فى نداء قائدهم: واإسلاماه.

ولم يكتف المسلمون بهذا النصر، بل تتبعوا الفلول الهاربة من جيش المغول التى تجمعت فى بيسان القريبة من عين جالوت، واشتبكوا معها فى لقاء حاسم، واشتدت وطأة القتال، وتأرجح النصر.

وعاد السلطان قطز يصيح صيحة عظيمة سمعها معظم جيشه وهو يقول: «واإسلاماه!» ثلاث مرات.

ويضرع إلى الله قائلاً: «... يا الله!! انصر عبدك قطز».

وما هى إلا ساعة حتى مالت كفة النصر إلى المسلمين، وانتهى الأمر بهزيمة مدوية للمغول لأول مرة منذ جنكيز خان.

ثم نزل السلطان عن جواده، ومرغ وجهه على أرض المعركة وقبلها، وصلى ركعتين شكراً لله عز وجل.

وكانت معركة عين جالوت واحدة من أكثر المعارك حسماً فى التاريخ، أنقذت العالم الإسلامى من خطر داهم لم يواجه بمثله من قبل، وأنقذت حضارته من الضياع والانهيار، وحمت العالم الأوروبى أيضاً من شر لم يكن لأحد من ملوك أوروبا وقتئذ أن يدفعه.

وكان هذا النصر إيذاناً بخلاص الشام من أيدى المغول، إذ أسرع ولاة المغول فى الشام بالهرب، فدخل قطز دمشق على رأس جيوشه الظافرة فى (٢٧ من رمضان ٦٥٨ هـ)، وبدأ فى إعادة الأمن إلى نصابه فى جميع المدن الشامية، وترتيب أحوالها، وتعيين ولاة لها.

وأثبتت هذه المعركة أن الأمن المصرى يبدأ من بلاد الشام عامة، وفى فلسطين

خاصة، وهو أمر أثبتته التجارب التاريخية التى مرت على المنطقة طوال تاريخها، وكانت النتيجة النهائية لهذه المعركة هى توحيد مصر وبلاد الشام تحت حكم سلطان المماليك على مدى ما يزيد عن نحو مائتين وسبعين سنة.

وأثبتت تلك المعركة الفاصلة فى التاريخ العالمى كله عامة والعالم الإسلامى خاصة أن مفتاح النصر للمسلمين هى العودة إلى الله عز وجل، وقد تكرر ذلك فى نصر المسلمين على اليهود الصهاينة عام ١٩٧٣ م حين رفع القادة والجنود شعار الله أكبر كما رفع قطز كلمة وإسلاماه.

ولن ينتصر الإسلام والمسلمون إلا بتحقيق كلمة التوحيد ورفع شعارها عالية على أعداء الله والإنسانية التتار الجدد الأمريكان ومن وراءهم(١).

قال ابن كثير فى البداية والنهاية عن معركة عين جالوت:

وكان اجتماعهم على عين جالوت يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان، فاقتتلوا قتالاً عظيماً، وحمل كتبغانوين على ميسرة المسلمين فكسرها، ثم أيد الله المسلمين وثبتهم فى المعركة، فحملوا حملة صادقة على التتار فهزموهم هزيمة لا تجبر أبداً، وقتل أمير التتار كتبغانوين فى المعركة، وأسر ابنه وأحضر بين يدى المظفر قطز فقال له:

ـ أهرب أبوك.

قال: إنه لا يهرب.

فطلبوه فوجدوه بين القتلى. فلما رآه ابنه صرخ وبكى.

فلما تحققه المظفر قطز سجد لله تعالى ثم قال:

ـ أنام طيبا.. كان هذا سعادة التتار وبقتله ذهب سعدهم.!

وكان قتله يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان.

وكان الذى قتله الأمير آقوش الشمس رحمه الله.

(١) اقرأ كتابنا «حكومة الدجال الماسونية» وكتابنا «من يحكم العالم سراً؟» الناشر دار الكتاب العربى.

وكان كتبغانوين هذا هو الذى قاد جيوش التتار لهولاكو، فاحتل ودمر وأهلك الحرث والنسل من بلاد العجم إلى بلاد الشام حتى قتل فى عين جالوت لا رحمه الله. وذلك عام ٦٥٨ هـ.

وكان هذا النصر فى شهر رمضان كما كان نصر الله لرسوله ﷺ فى غزوة بدر الكبرى فى شهر رمضان وكذلك نصر الله للإسلام فى مواقع كثيرة فى شهر رمضان.



توالى الهزائم على جيوش المغول وهولاكو بعد «عين جالوت»

بعد المعركة قام ولاة المغول فى الشام بالهرب، فدخل قطز دمشق فى ٢٧ رمضان ٦٥٨ هـ، وبدأ فى إعادة الأمن إلى نصابه فى جميع المدن الشامية، وتعيين ولاة لها.

وقام بيبرس بالاحتيال على قطز فقتله وتولى هو حكم المماليك وقام المماليك بطرد آخر الصليبيين من البلاد الإسلامية فى عام ١٢٩١ م وكانت النتيجة النهائية لهذه المعركة هى توحيد الشام ومصر تحت حكم سلطان المماليك على مدى ما يزيد عن نحو مئتين وسبعين سنة حتى قام العثمانيون بالسيطرة على أراضيهم فى عهد سليم الأول.

يعد المؤرخون هذه المعركة ونتائجها بداية النهاية للإمبراطورية المغولية إذ لم يهزموا فى معركة قط قبلها.

كان بركة خان زعيم القبيلة الذهبية فى روسيا وابن عم هولاكو خان قد أعلن إسلامه أيام الغزو المغولى لبلاد المسلمين وكان قد تأثر كثيراً لسقوط الدولة العباسية (دولة الخلافة الإسلامية) على يد ابن عمه وكان يتحين الفرصة للانتقام من هولاكو خان. قام بيركى أو بركة خان ـ بعد أن تحالف مع السلطان المملوكى الظاهر بيبرس ـ بتجهيز جيوشه واتجه جنوباً نحو هولاكو الذى عاد من بلاد الشام، وهُزِم هولاكو هزائم كبيرة من قبل جيوش بيركى ولم يتمكن من مقاومته.

تذكر بعض المصادر أن هولاكو لم يستطع إرسال كامل جيشه للشام للانتقام من هزيمة جيشه بعين جالوت بسبب بركة خان، فقد أرسل جيشاً إلى بلاد الشام ليستعيدها بقيادة ابنه «يشموط» إلا أن تلك المحاولات باءت بالفشل، حيث كان قد أقام حفلاً وكان فى حالة ثمالة فانتهز جند بيبرس هذه الفرصة فانقضوا على معسكرهم وأفنوهم عن كاملهم وتركوا بعضهم لينقلوا خبر الهزيمة إلى هولاكو ومعهم رأس ابنه.

فما كان من هولاكو إلا أن قتل بقية الناجين من المذبحة.

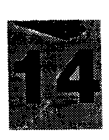
دانت أغلب المناطق الشمالية من الإمبراطورية المغولية لبركة خان واستمرت سلالته وهى القبيلة الذهبية فى حكم روسيا وأواسط آسيا لمدة تزيد عن الـ ٢٠٠ عام. أما سلالة هولاكو وهى إلخانات فحكمت لمدة ٩١ سنة حتى سقوطها عام ١٣٥٣ م.



السلطان قطز

قاهر المغول

- مواقف قطز فى معركة عين جالوت تظهر براعته القتالية وقوة إيمانه.
- بشرى الرسول ﷺ لقطز فى المنام بملكه لمصر وقهره التتار.
- مقتل قطز على أيدى رفقاء الجهاد فى طريق عودته من معركة عين جالوت.



السلطان قطز قاهر التتار المغول
ووقفات عطرة فى عين جالوت

جاء نصر الله للمسلمين على يد قائد مؤمن يعرف ربه عز وجل لا يمد يده لأعداء دينه بل ويجمع كلمة المسلمين ويوحدهم لمواجهة عدوهم، جاء ليكون المنقذ الربانى فى كل مراحل التاريخ الإسلامى حين تتكالب عليها الأمم.

فقد كان قبل المغول الصليبيين وهجومهم على الشرق العربى الإسلامى وانهزام المسلمين وسقوط القدس فى أيدى الصليبيين ولم يحررها إلا السلطان صلاح الدين الأيوبى الذى وحد الصفوف قبل جهاده مع أعداء الإسلام.

ثم جاء المغول التتار فى أكبر حملة عسكرية على كل ديار المسلمين من الشرق حتى الغرب فاحتلوا كل البلاد ماعدا القدس التى ظلت فى أيدى المسلمين وذلك لعدم أهميتها بالنسبة للتتار.

وظهر السلطان المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله التركى الأصل(١) الذى تولى حكم مصر حين هاجمها المغول وأرادوا احتلالها كما فعلوا مع الدول الأخرى المسلمة شرقاً وغرباً فخرج إليهم وقاتلهم وتصدى لهم وقهرهم على أرض فلسطين فى عين جالوت.

ويعد السلطان قطز رحمه الله ثالث السلاطين المماليك فى مصر والشام، فقد بويع فى ذى القعدة عام ٦٥٧ هـ ـ ١٢٥٩ م والتتار المغول فى بلاد الشام وكان يجلس على

---

(١) الثابت فى كتب التاريخ أن قطز من أخص مماليك المعز التركمانى أحد مماليك الصالح أيوب بن الكامل الأيوبى، وقد ذكر على بن باكثير فى رواية «واإسلاماه» دون سند تاريخى صحيح أن السلطان قطز اسمه الحقيقى محمود بن ممدود وإنه ابن أخت السلطان جلال الدين الخوارزمى الذى تولى الحكم بعد موت أبيه السلطان الخوارزمى محمد شاه وقد قضت المغول فى عصر جنكيز خان على تلك الدولة وقالوا إن قطز كان من جملة الأطفال الخوارزميين الترك الذين تم بيعهم كرقيق فى دمشق وأطلق عليه اسم قطز وهو اسم مغولى وانتقل إلى القاهرة وأصبح من جملة مماليك عز الدين أيبك وترقى عنده حتى صار أكبر مماليكه وأحبهم إليه.

كرسى السلطنة فى مصر الملك المنصور بن عز الدين أيبك الذى قتلته شجرة الدر وكان صغير السن صبيًا فاتفق الأمراء على خلعه وتولية قطز لمواجهة المغول التتار، وقد كان قطز الحاكم الفعلى لمصر بعد مقتل استاذه السلطان عز الدين أيبك حيث كان الوصى على ابنه المنصور الطفل الصغير.

وبدأ قطز فى ترتيب أوضاع السلطنة فى مصر واسترضى كبار الأمراء وأرسل فى استدعاء الجنود والأمراء الفارين من المغول فى الشام وعلى رأسهم الأمير ركن الدين بيبرس الذى شاركه فى قتال التتار ثم شارك فى قتله وتولى السلطنة فى مصر والشام بعده.

وكانت مصر قبل الغزو المغولى لبلاد الشام تمر بمرحلة عصيبة حيث واجهت البلاد خطر الغزو الصليبى على دمياط والمنصورة وموت الملك الصالح الأيوبى أثناء قتال المصريين للصليبيين وأخفت شجرة الدر خبر وفاته واستدعت ابنه تورانشاه الذى تولى الحكم وقيادة الجيش ثم اغتيل على أيدى جنود والده من المماليك بتحريض من شجرة الدر وانتهى بذلك عصر الحكم الأيوبى لمصر وبدأ عهد حكم المماليك بتولى السلطنة عز الدين أيبك وزواجه من شجرة الدر التى تولت حكم مصر نحو ثمانين يوماً ثم قتل بأمر منها.

ثم انتقم تلاميذه وجنوده وعلى رأسهم قطز من شجرة الدر ووضعوا ابنه الصبى الصغير على كرسى الحكم بوصاية قطز الذى كان الحاكم الفعلى فلما قرب خطر المغول عزل السلطان الطفل وتولى الحكم قطز رحمه الله لمواجهة المغول.

وبالفعل أرسل هولاكو رسالة تهديد وتحذير لقطز بصفته سلطانا لمصر كما ذكرنا فجمع قطز الأمراء ورجال الدولة وشاورهم فى الأمر فاتفقوا على قتل رسل المغول رداً على رسالة «هولاكو» وإعلاناً للحرب عليه ونودى فى أقاليم مصر بدعوة الشعب للخروج إلى الجهاد فى سبيل الله ونصر الإسلام ورفع شعاره الذى اشتهر به «واإسلاماه».

فلبى المصريون النداء وخرجوا للجهاد يحمل كل واحد منهم ما يملك من سلاح وإن كان بسيطاً، وانضم إليهم أهل الشام الذين فروا من هجوم التتار المغول عليهم وتوحدت الكلمة تحت قيادة السلطان قطز فأمر بخروج الجيش إلى الصالحية ومنها إلى فلسطين لملاقاة المغول قبل قدومهم لمصر.

وأعد قطز الجيش إعداداً جيداً كما أمر الله ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٦٠).

ولم ينس قطز إشعال الناحية النفسية والإيمانية حيث خرجت الدعاة والشيوخ وعلى رأسهم شيخ الإسلام سلطان العلماء العز بن عبد السلام الذى كان يأمر الدعاة بقراءة سورة الأنفال والتوبة على الناس فى خطبهم فألهب حماسهم وهانت عليهم الدنيا فى سبيل الله والدفاع عن الإسلام وديارهم وبلادهم فكانوا كما قال خالد بن الوليد رجال يحبون الموت كما يحب أعداؤهم الدنيا.

وأظهر قطز براعة فى قتاله للمغول فوضع أكثر من خطة لقتالهم أهمها الخطة التى كان يحارب المغول التتار بها أعداءهم وينتصرون بها.

فقد خرج بالجيش حتى انتهى إلى فلسطين عند عين جالوت بالقرب من بحيرة طبرية فكانت مفاجأة لهم فى العشر الأواخر من رمضان حتى إن الأمراء المغول أشاروا على قائدهم كتبغانوين أن ينتظر حتى يأتى إليه مدد من هولاكو وكان يقاتل مع المغول الأشرف ملك حمص والمجير بن الزكى وجنودهم وقد أشاروا عليه بعدم مقاتلة قطز حتى يأتيه مدد هولاكو إلا أن غروره وهو القائد الذى انتصر فى كل الحروب التى قادها أصر على ملاقاة قطز وجيشه فانهزم والحمد لله شر هزيمة وقتل وجماعة من أهل بيته.

وأسر الملوك العرب الذين قاتلوا مع المغول الملك السعيد بن عبد العزيز بن العادل فأمر قطز بضرب عنقه وعفا عن الملك الأشرف ملك حمص بعد أن طلب الأمان من قطز فأمنه ورد إليه مدينة حمص.

ومما ذكر من مواقف عديدة لقطز فى أرض المعركة أنه ظل يقاتل ويصيح فى الجنود ويحمسهم بندائه «واإسلاماه» حتى رماه أحد المغول بسهم فأخطأه وأصاب جواده فقتله فنزل قطز من عليه وترجل وبقى واقفاً على الأرض ثانياً يقاتل وهو فى قلب الجيش.

فلما رآه بعض الأمراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان قطز أن يركبها ويقاتل عليها فرفض قطز وقال لذلك الأمير:

ـ ما كنت لأحرم المسلمين نفعك.

وظل يقاتل على قدميه حتى جاءه بعض أتباعه بفرس فركبه، وحين لامه بعض الأمراء وقالوا له: يا خوند، لم لا ركبت فرس فلان؟

فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك وهلك الإسلام بسببك.

فقال له قطز: أما أنا فكنت أروح إلى الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه وقد قتل فلان وفلان وفلان ـ حتى عد خلقاً من الملوك ـ فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم ولم يضيع الإسلام[1].



(١) انظر البداية والنهاية ـ لابن كثير جـ ١٣.

بشرى الرسول ﷺ لقطز فى الرؤيا بتولى حكم مصر وانتصاره على التتار

قال ابن كثير رحمه الله فى البداية والنهاية: وحكى الشيخ قطب الدين اليونينى فى الذيل على المرآة عن الشيخ علاء الدين بن غانم عن المولى تاج الدين أحمد بن الأثير كاتب السر أيام السلطان الناصر صاحب دمشق قال:

لما كنا مع الناصر بوطاه برزه جاءت البريدية - أى البريد - بخبر أن قطز تولى الملك بمصر.

فقرأت ذلك على السلطان الناصر، فقال: اذهب إلى فلان وفلان فأخبرهم بهذا.

قال: فلما خرجت عنه لقينى بعض الأجناد فقال لى:

جاءكم الخبر من مصر بأن قطز قد تملك؟

فقلت: ما عندى من هذا علم، وما يدريك أنت بهذا؟

فقال: بلى والله سيلى المملكة - أى مصر ويكسر التتار.

فقلت: من أين تعلم هذا؟

فقال: كنت أخدمه وهو صغير وكان عليه حمل كثير، فكنت أفليه وأهينه وأذمه، فقال لى يوماً: ويلك إيش تريد أعطيك إذا ملكت الديار المصرية؟

فقلت له: أنت مجنون؟

فقال له قطز: لقد رأيت رسول الله ﷺ فى المنام وقال لى: أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار، وقول رسول الله ﷺ حق لا شك فيه.

فقلت له حينئذ - وكان صادقاً - أريد منك إمرةَ خمسين فارساً[1].

(١) أى يكون قائداً لفرقة من الجنود الخيالة.

فقال: نعم أبشر.

قال تاج الدين أحمد بن الأثير: فلما قال لى هذا قلت له هذه كتب المصريين بأنه تولى السلطنة، والله ليكسرن التتار.

وكان كذلك، ولما فرَّ السلطان الناصر إلى ناحية الديار المصرية وأراد دخولها ورجع عنها ودخلها أكثر الجيوش الشامية كان هذا الأمير الحاكى - أى الذى ذكر الرواية عن قطز - فى جملة من دخلها، فأعطاه المظفر قطز إمرة خمسين فارساً ووفى له بالوعد.

وهذا الأمير الحاكى هو الأمير جمال الدين التركمانى.

قال تاج الدين أحمد بن الأثير: فلقينى بمصر بعد أن تأمر فذكرنى بما كان أخبرنى عن المظفر، فذكرته ثم كانت واقعة التتار - أى معركة عين جالوت - على إثر ذلك فكسرهم وطردهم عن البلاد.

وقد روى أنه لما رأى عصائب التتار قال للأمراء والجيوش الذين معه: لا تقاتلوهم حتى تزول الشمس وتفىء الظلال وتهب الرياح ويدعو لنا الخطباء والناس فى صلاتهم.

وهكذا كان السلطان المظفر قطز قائداً عسكرياً ربانياً وكسر التتار وهزمهم هزيمة منكرة لم تقم لهم قائمة بعدها وفروا هاربين من الشام إلى العراق يتتبعهم جنود قطز رحمه الله.

لقد أعاد قطز - رحمه الله - الثقة فى نفوس المسلمين قاطبة بعدما ضاعت تحت سنابك خيل المغول، وبعد أن ظن الناس أن المغول قوم لا يقهرون ولا ينهزمون كما حدث للعرب بعد هزيمة ١٩٦٧ م واحتلال إسرائيل لأراض مصرية وسورية وفلسطينية فجاء نصر الله والفتح فى حرب ١٩٧٣ م وعادت الثقة إلى العرب مرة أخرى.



نهاية أليمة لقائد منتصر
على أيدى رفاقه

بعد النصر الذى تحقق بفضل الله عز وجل على أيدى السلطان قطز ـ رحمه الله ـ وفرار المغول من الشام ودمشق إلى ما وراء نهر الفرات، توجه السلطان قطز نحو دمشق فى آخر شهر رمضان بعد انتصاره فى عين جالوت مباشرة عام ٦٥٨ هـ ـ ١٢٦٠ م.

وأقيمت له الخطب فى المساجد والمدن الكبرى حتى مدينة حلب وبلاد الشام وأعاد الأمان والاستقرار فى ربوع البلاد.

وبعد أن استقر له الأمر فى الشام قرر العودة إلى الديار المصرية فى أواخر شوال عام ٦٥٨ هـ الموافق شهر أكتوبر ١٢٦٠ م.

ولما بلغ السلطان قطز إلى بلدة القصير من أرض الشرقية بمصر بقى بها مع بعض خواصه، على حين رحل بقية الجيش إلى الصالحية، وضربت للسطان خيمته.

وهناك دبرت مؤامرة لقتله نفذها شركاؤه فى النصر.

وكان الأمير بيبرس قد بدأ يتنكر للسلطان ويضمر له السوء، وأشعل زملاءه نار الحقد فى قلبه، فعزم على قتل السلطان، ووجد منهم عوناً ومؤازرة.

فانتهزوا فرصة تعقب السلطان لأرنب يريد صيده، فابتعد عن حرسه ورجاله، إلى ما طلب.

ثم تقدم بيبرس ليقبل يد السلطان شاكراً فضله، وكان ذلك إشارة بينه وبين الأمراء.

ولم يكد السلطان قطز يمد يده حتى قبض عليها بيبرس بشده ليحول بينه وبين الحركة، فى حين هوى عليه بقية الأمراء بسيوفهم حتى أجهزوا عليه.

وانتهت بذلك حياة بطل عين جالوت على أيدى رفقاء السلاح والجهاد.

وذكر المؤرخون أسباباً متعددة لإقدام الأمير بيبرس وزملائه على هذه الفعلة الشنعاء، فيقولون: إن بيبرس طلب من السلطان قطز أن يوليه نيابة حلب فلم يوافق، فأضمر ذلك فى نفسه.

ويذهب بعضهم إلى أن وعيد السلطان لهم وتهديدهم بعد أن حقق النصر وثبت أقدامه فى السلطة كان سبباً فى إضمارهم السوء له وعزمهم على التخلص منه قبل أن يتخلص هو منهم.

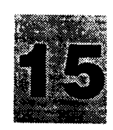
وأياً ما كانت الأسباب فإن السلطان لقى حتفه بيد الغدر والاغتيال، وقتل وهو يحمل فوق رأسه أكاليل النصر والفخر لكافة المسلمين فى بقاع الأرض.

وكان مقتله يوم السبت السادس عشر من ذى القعدة عام ٦٥٨ هـ بعد شهر وأيام من انتصاره ولم يكمل السنة فى حكم مصر.



علاقة الصليبيين بالمغول

- التحالف بين التتار المغول والصليبيين ضد المسلمين بعد قيام المغول بغزو بلادهم.
- انتهاء عصور التحالف المغولى الصليبى لدخول المغول فى الإسلام.



التحالف بين المغول التتار والصليبيين ضد المسلمين رغم غزو التتار لبلادهم

التتار المغول لا يدينون بديانة سماوية وإن كانوا يؤمنون بوجود إله فى السماء مثلهم كمثل كفار ومشركى العرب قبل البعثة المحمدية، وقد خرجوا على جيرانهم شرقاً وغرباً ودمروا حضارتهم ومدنهم وكانوا يرون أن الله خلقهم لقتل وإخضاع بقية الشعوب الأخرى.

ومن الشعوب التى أخضعها المغول منذ خروجهم بقيادة جنكيز خان الدول الأوروبية فى شمال آسيا وشرق أوروبا وقتلوا الكثير من المسيحيين هناك ودمروا بلادهم.

وحين قام المغول فى عهد منكو خان بغزو بلاد الإسلام والخلافة العباسية كان الصراع على أشده بين الصليبيين الذين قادوا حرباً دينية مقدسة على بلاد الشرق الإسلامى واحتلوا مدناً أهمها مدينة القدس وعكا ورها وساحل البحر المتوسط وكونوا دولة لاتينية.

واستطاع صلاح الدين الأيوبى من تحرير القدس والكثير من تلك المدن والإمارات، لكن الحملات الصليبية توالت على المسلمين حتى إنهم قاموا بمحاولات لغزو مصر وتونس.

ورغم أن المغول همج ولا دين لهم إلا أن بعضاً من قاداتهم مال إلى الديانة النصرانية النسطورية مثل زوجة هولاكو وأمه وقائده كتبغا.

ورغم وحشية المغول وأهدافهم التدميرية لكل الشعوب إلا أن الصليبيين رأوا فيهم حليفاً طبيعياً، ونعمة ساقها الله إليهم لمساعدتهم فى صراعهم التاريخى ضد المسلمين، خصوصاً لما رأوه من عنفهم وشراستهم، وسرعة اجتياحهم للبلاد التى قصدوها فى عهد زعيمهم كيوك خان من الصين شرقاً حتى أواسط روسيا وإيران وجبال طورس غرباً، وما ألحقوه من هزيمة بكيخسرو الثانى سلطان سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى، وإخضاعهم

هيثوم ملك أرمينية النصرانى لسلطانهم.

فرأوا أن هؤلاء لو تحالفوا معهم أو استطاعوا أن يدخلوهم فى النصرانية، فسوف يشكلون قوة هائلة تضغط على المسلمين فى الشام ومصر من الشرق، فى حين تضغط عليهم أوروبا من الغرب، فيصبحون بين المطرقة والسندان، مما قد يؤدى لاجتثاثهم.

ولهذا بدأ الصليبيون الأوروبيون فى الاتصال بإيلخانات المغول ـ ملوكهم ـ ومراسلتهم وتبادل الهدايا معهم، ودعوتهم إلى الإحسان لرعاياهم من النصارى، واستعدائهم على المسلمين من أيوبيين ومماليك وعباسيين، بل وإلى دعوتهم الصريحه وبإلحاح إلى الدخول فى النصرانية.

ومن هذه المحاولات ما فعله البابا أنوسنت الرابع (١٢٤٥ م) حين أرسل إلى توراكيتا خان فى قرة قوروم مبعوثاً هو الراهب الفرنسيكانى حنا دى بلانو كاربنيس يدعوه للدخول فى الديانة النصرانية، فرد عليه مشترطاً خضوعه ـ أى البابا ـ وخضوع أمراء أوروبا لسلطانه.

وقرر البابا المحاولة مع زعيم المغول القوقاز ودعاه إلى الدخول فى النصرانية وذلك سنة ١٢٤٦ م ـ ٦٤٤ هـ.

موقف الإيلخان كيوك ٦٤٤ ـ ٦٤٦ هـ (١٢٤٦ ـ ١٢٤٨م). من هذه الدعوة.

يبدو أن هذه المحاولات قد لقيت صدى مبكراً فى نفوس بعض القاده المغول، حيث قيل أن كيوك خان قد اعتنق النصرانية على المذهب النسطورى، وتبعه بعض الوزراء والقوات، مما شكل نصراً مبكراً للصليبيين.

وقد ظهر التحالف المغولى الصليبى فى عصر كيوك خان، حين قام نائبه على القوقاز وفارس «جغطاى خان» بعرض عقد تحالف مغولى صليبى مع الملك الفرنسى لويس التاسع عام ١٢٤٨ م ـ ٦٤٦ هـ ضد الخلافة العباسية والأيوبيين والمماليك فى الشام، وذلك خلال مرور لويس التاسع بقبرص فى طريقه لغزو دمياط بمصر.

وكان رسولاه إليه راهبين نسطوريين هما داود ومرقص، وقصده جغطاى خان من

ذلك إشغال المماليك عن نجدة الخلافة العباسية، التى كان ينوى مهاجمتها.

وقد قام لويس التاسع بإسال رده على هذا العرض مع وفد وجهه إلى أذربيجان - حيث كان جغطاى خان ومنها إلى قرة قوروم - حيث كان يقيم الخان الأعذم كيوك خان فوصل الوفد بعد وفاة هذا الخان الذى توفى بعد عامين من حكمه.

واستقبل منكو خان[1] خليفة كيوك خان، وفد لويس التاسع بفتور، حيث إنه لم يكن ميالاً للتعامل معه ولكن هذا الاستقبال لم يدفع لويس التاسع إلى اليأس، فقرر المحاولة بعد أن هزمه المصريون فى المنصورة وأرسل رسولاً آخر إلى منكو خان هو وليم روبروك الراهب الفرنسيكانى - فوصل العاصمة قرة قوروم التى كانت تعج بالكثيرين من رسل الملوك والأمراء الذين جاءوا يطلبون صداقة الخان الجديد، والتحالف معه، ويظهرون له الطاعة بعدما حقق الجيش المغولى من انتصارات وغزوه بلاد الإسلام والصليبيين أيضاً.

وكان شرط منكو خان للاستجابة لطلب لويس التاسع أن يخضع الملك لويس له فعاد الرسول خائباً فى هذه السفارة أيضاً إلا أن هذا الرسول سمع فى قرة قوروم أثناء إقامته بها أخباراً تفيد أن المغول ينوون مهاجمة بلاد الخلافة العباسية والاستيلاء على بغداد نفسها فبادر لدى عودته إلى عكا بإرسال الخبر إلى لويس التاسع الذى كان قد غادرها إلى فرنسا.

وقام هيثيوم الأول ملك أرمينية الصغرى بمثل ما قام به لويس التاسع من تودد لمنكو خان، حيث أرسل أخاه سنباد على رأس سفارة إلى عاصمة المغول عام ١٢٤٧ - ١٢٤٨ م (٦٤٥ - ٦٤٦ هـ).

ثم اتبعها بزيارة شخصية قام بها بنفسه للتأكيد على ولائه لمنكو خان وأصبح تابعاً له واستعداده للحرب ضد المسلمين معه وهو ما قام به.

وهذه الاتصالات المتكررة أثمرت انحياز منكو خان للنصارى بالعطف عليهم ورعايتهم وبإعلان حمايته للكنيسة، ووعده لهم بأنه سوف ينفذ أخاه هولاكو نحو الغرب ليحطم

---

(١) تولى منكو خان حكم المغول نحو عشر سنوات من ١٢٤٨ - ١٢٥٧ م (٦٤٦ - ٦٥٥ هـ) حيث توفى قبل معركة عين جالوت.

الخلافة ويستعيد الأراضى المقدسة فى الشام ويسلمها للصليبيين الذين أخرجوا منها على يد صلاح الدين وخلفائه وخاصة مدينة القدس وكان هذا الرد منه حلفاً أثلج صدور الصليبيين وزاد من أملهم فى سقوط الخلافة الإسلامية.

وتعتبر هذه المبادرة الخطيرة نوعاً من التحالف غير المعلن بين المغول والصليبيين ضد المسلمين، لعب فى عقدها كل من لويس التاسع وهيثيوم الأول الدور الأكبر.

وقد ذكر المقريزى أن جماعة من الفرنج خرجوا من الغرب وبعثوا إلى أبغا بن هولاكو بأنهم مواصلون لمواعداته من جهة سيس فى سفن كثيرة(١).

وكذلك ما ذكره مفضل بن أبى الفضائل أن صاحب طرابلس بعد أن عقد هدنة مع بيبرس ٦٦٩ هـ (١٢٧١ م) توسل إلى أبغا وأرسل إليه يطلب معونته ضد المسلمين، ويصف ما فتحه بيبرس من القلاع والحصون حتى صاح به أبغا أنت ما جئت إلا لتخوفنى منه وتنفرنى عنه وتملأ قلوب عسكرى رعباً(٢).

بالإضافة لما ذكره بعض المؤرخين من اتصالات قليلة كانت تحدث أحياناً بين الصليبيين بالشام والمغول بقصد شن هجمات محدودة على المسلمين كما حدث عندما غار الفرنج على قاقون بمواعدة التتار، كما ذكره المقريزى أيضاً.

وحين قام هولاكو خان فى عهد منكو خان باجتياح عاصمة الخلافة العباسية بغداد، وارتكب المغول فيها المجازر، وهدموا وخربوا عاصمة كانت منار العالم علماً وعمراناً وازدهاراً، ومع ذلك فلم يقدم على إيذاء النصارى من أهل بغداد بل وضعهم تحت حمايته، وذلك لميله لهم ولتأثير زوجته النصرانية النسطورية دكوز خان كما أقر فعله ابنه أغا الذى خلفه بعده.

وقد قدر الصليبيون ذلك فتعاونوا مع المغول فى اجتياحهم لبلاد المسلمين حتى اتخذت هذه الحملة طابع الحملة الصليبية فاشتركت فرقة من الأرمن مع المغول فى غزو ميافارقين وساهموا فى ذبح سكانها من المسلمين والحفاظ على النصارى من سكانها.

---

(١) انظر السلوك لمعرفة دول الملوك ـ تقى الدين أحمد بن على المقريزى.

(٢) انظر كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ـ مفضل بن أبى الفضل.

واشترك هيثوم الأول، ملك أرمينية الصغرى فى وضع خطة غزو بلاد الشام، وطلب نه هولاكو أن يلاقيه بجيشه عند الرها، ليصحبه معه إلى بيت المقدس فيخلصها من أيدى المسلمين ويسلمها للصليبيين.

وشارك فى هذا التأييد للغزو المغولى بوهيمند السادس أمير **أنطاكية وطرابلس** الصليبى وزوج ابنة هيثيوم الأول والبابا اسكندر الرابع الذى أرسل سنة ١٢٦٠ م **إلى** هولاكو يهنئه على بطولاته ويدعوه للدخول فى النصرانية.

وسارع مطران اليعاقبة فى حلب إلى لقاء هولاكو وبذل جهده فى استعدائه على المسلمين لذلك لم يقم هولاكو بالاعتداء على نصارى حلب، ولم يتعرض لكنيسة اليعاقبة فى الوقت الذى أحرق فيه مسجدها وذبح معظم أهلها من المسلمين بتحريض من حليفه ومرافقه الصليبى هيثيوم الأول.

وأرسل رسالة تهديد إلى قطز جاء فيها: «من ملك الملوك شرقاً وغرباً القائد الأعظم... إنا نحن جند الله فى أرضه، خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه... وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء... ونحن لا نرحم من بكى ولا نرق لمن شكا... فأبشر بالمذلة والهوان... فقد حذر من أنذر، وقد ثبت عندكم أننا نحن الكفرة وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة...» فغضب قطز وقطع رؤوس أعضاء الوفد ما عدا صبى استبقاه مملوكا له(١).

وعندما اضطر هولاكو للعودة إلى الشرق مستخلفاً معظم جيشه وقائده كتبغا المشهور بميله للنصارى - لإكمال مهمته فى اجتياح بلاد الشام ومصر، قام **هيثيوم الأول** ملك أرمينية الصغرى وصهره بوهيمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس بمرافقته، **ودخلا** معه مدينة دمشق، وطلبا منه أن يغلق مساجدها وأن يحول بعضها إلى كنائس، **فأجابهما** إلى طلبهما رغم استعطاف المسلمين(٢).

وتحمس نصارى الشام لهذه الحملة حتى ظنوا أنهم إنما يقومون بدعم حملة صليبية جديدة، فعندما أقبل المغول إلى دمشق نظم النصارى فى طرقهم المواكب الكبيرة، وأخذوا

(١)، (٢) انظر السلوك لمعرفة دول الملوك - للمقريزى.

يرتلون التراتيل النصرانية، «واستطالوا على المسلمين بدق النواقيس وإدخال الخمر فى الجامع الأموى»(١).

وقال المقريزى فى حوادث سنة ٦٥٨ هـ «استطال النصارى بدمشق على المسلمين، وأحضروا فرمانا من هولاكو بأمرهم وإقامة دينهم، فتظاهروا بالخمر فى نهار رمضان، ورشوه على ثياب المسلمين فى الطرقات، وصبوه على أبواب المساجد.

وأمروا أصحاب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم.

وأهانوا من امتنع عن القيام للصليب، وصاروا يمرون به فى الشوارع إلى كنيسة مريم، ويخطبون فى الثناء على دينهم وقالوا جهرا: ظهر الدين الصحيح دين المسيح.

فقلق المسلمون من ذلك وشكوا أمرهم إلى كتبغا، فأهانهم وضرب بعضهم، وعظم قدر قسوس النصارى. ونزل إلى كنائسهم وأقام شعائرهم».

وفى عام ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) جهز الظاهر بيبرس جيشا لطرد المغول من حلب، وعندما وصل الجيش إلى غزة، كتب الفرنجة إلى المغول يحذرونهم فرحلوا عنها مسرعين(٢).

واستمر التحالف الصليبى المغولى حتى بعد هلاك هولاكو.

ففى عهد أباقا بن هولاكو ازدادت هجمة النصارى عليه محاولة إدخاله فى دينهم، فأرسلوا إليه أربعة من البابوات هم كليمنت الرابع، وجريجورى العاشر، ويوحنا السادس والعشرون، ونقولا الثالث، يحضونه على الدخول فى النصرانية حتى تزوج من امرأة نصرانية هى مارية ابنة الإمبراطور البيزنطى ميشيل باليوغولوس التى سماها المغول باسم (دسينا).

وأظهر ميلا للنصارى وعطفا عليهم، فأقر إعطاء دار الدفتر دار الصغير فى بغداد للجاثليق النسطورى.

---

(١) انظر المختصر فى أخبار البشر - أبو الفداء - مصدر سابق.

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير.

وطمع أباقا بمساعدة النصارى الأوروبيين فأرسل إلى ملك إنجلترا إدوارد الأول ٦٧٣ هـ (١٢٧٤ م)[١] يوصيه بالنصارى خيراً.

كما أرسل إلى فيليب الثالث ملك فرنسا يطلب منه التعاون معه فى محاربة المماليك، فرد عليه واعداً إياه بالمساعدة.

كما وراسل إلى جيمس الثانى ملك أرغونة واتفق معه على إعداد حملة صليبية ضد المماليك، وتوجهت هذه الحملة فعلا ولكنها فشلت بسبب كبر سن جيمس الثانى، وتحطم سفنه فى الطريق.

وعندما عقد مجمع ليون عام ١٢٧٤ م (٦٧٣ هـ) حضره مبعوثان من قبل أباقا عرضا على المجتمعين مشروع تحالف صليبى مغولى، وتم تعميدهما نصرانيين دون أن يجابا إلى طلبهما[٢].

واستمر هذا التحالف فى عصر أباقا (٦٦٥ هـ ـ ٦٨١ هـ) (١٢٦٥ م ـ ١٢٨٢ م) فلما خلفه أخوه المعتنق الإسلام وأطلق على نفسه اسم أحمد واختلف عن سابقيه فى الميل للنصارى والرغبة فى التحالف مع الصليبيين ضد المسلمين بعد أن دخل فى الإسلام، رغم أنه كان نصرانيا منذ طفولته، وأنه سبق أن عمد باسم نقولا، فسمى نفسه أحمد.

وأرسل رسله إلى بغداد وسلطان مصر المملوكى، يخبرهم بإسلامه ويعرض عليهم التحالف وإنهاء العداء التقليدى بين المغول والمسلمين.

ولكنه لم يلبث فى الحكم سوى ست سنوات حيث ثار عليه بعض قادته وقتلوه عندما حاول نشر الإسلام بين قبائل المغول.

وتولى إرغون السلطة بعد أحمد تكوادر بن هولاكو عام ٦٨٨ هـ (١٢٨٨ م) عن طريق الجيش، وكان كأبيه محباً للنصارى، فعمل على الحد من نفوذ المسلمين فى الدولة، وأبعدهم عن المراكز الهامة وعن الظهور فى بلاطه.

---

(١) انظر كتاب مغول إيران ـ مصطفى بدر.

انظر الحركة الصليبية ـ سعيد عاشور.

وغالى فى عدائه لهم حتى أعلن بتأثير من وزيره اليهودى سعد الدولة أنه سيعمل على جعل مكة معبداً وثنياً، ولكن الله تعالى أخذه أخذ عزيز مقتدر هو ووزيره الغاشم لعنهما الله تعالى(١).

وكان قبل موته قد اتصل بالملك إدوارد الأول ملك إنجلترا مقترحا عليه شن هجوم مشترك على الأراضى المقدسة من الشرق والغرب، ولكن الملك الإنجليزى اعتذر إليه بانشغاله بالحروب الاسكتلندية.

وكرر عرضه هذا على فيليب الرابع ملك أرغون ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) مقترحا عليه التعاون فى غزو مصر، ويعده بمنحه دمشق وكثير من الخيول والإمدادات، ويعلمه بأن ملكى بلاد الكرج سينضمان إلى حلفهما، وحدد لبداية الغزو شهر محرم ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) ولكن هذا لم يحدث وهلك أرغون.

وجاء كيخانوا خليفة أرغون مؤيداً للنصارى كسابقيه إلا أنه اتبع أسلوبا معتدلا فى ميله إليهم، وصار يظهر شيئاً من العطف على المسلمين، فأعفى آل البيت من دفع عامة الضرائب وكتب شعارات إسلامية على عملته، حيث كتب على أحد وجهيها «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

أما «بايدو» الذى خلف كيخانو فقد كان ظاهر الميل والتأييد للنصارى بتأثير من دسبينا زوجة أباقا خان، التى كانت لا تزال على قيد الحياة، وكانت ذات تأثير شديد عليه، حيث كان يقضى معظم وقته عندها، فقام بتعليق صليب ضخم فى عنقه، وسمح للنصارى ببناء الكنائس وقرع أجراسها فى معسكره.

وعاقب بشدة كل من يحاول الدخول فى الإسلام من المغول، ومع هذا فإنه كان يحاول إظهار الاعتدال تجاه المسلمين، فيرسل ابنه ليصلى كما يصلون محاولة منه ونفاقاً للمسلمين وذلك لأن عصر التأجج المغولى قد أفل وانتهى بعد ذلك، بعد دخول معظم التتار فى الإسلام.

ففى عهد الملك غازان (قازان): ٦٩٤ ـ ٧٠٤ هـ (١٢٩٥ ـ ١٣٠٤ م) الذى كان بوذياً ثم

(١) انظر كتاب مغول إيران ـ مصطفى بدر.

اعتنق الإسلام وهو ولىّ للعهد عام ٦٩٤ هـ (١٢٩٥ م) فكان ذلك مفاجأة كبرى وانتصاراً غير متوقع للإسلام على المحاولات النصرانية لتنصير المغول.

لأن هذا الخان فور ارتقائه العرش جعل الإسلام دين الدولة الرسمى، وأدخل فى الإسلام عدداً كبيراً من قبائل المغول. ودخل من جيشه فى الإسلام عشرة آلاف وقيل مائة ألف من القادة المغول.

وقد عرف عنه أنه تعلم شرائع الإسلام فصلى وصام وانقطع عن الولاء لخاقان التتار وألغى اسمه عن عملة إيران.

ومع ذلك فإن غازان قد حارب المماليك المسلمين، وقيل إنه حاول الاستعانة بالنصارى ضدهم واعداً إياهم أن يرد إليهم الأراضى المقدسة عندما يستخلصها، فراسل البابا بانونيفاس الثامن ودعاه لشن حرب صليبية ضد المماليك سنة ٦٩٩ هـ (١٣٠٠ م) واعداً إياه وملوك أوروبا بإعطائهم فلسطين ثمناً لذلك.

وقد استجاب له جيمس الثانى ملك أرغونة وأرسل إليه سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٩ م) يهنئه بانتصاراته ويعده بإمداده بالسفن ويعلمه بأنه سمح لمن يرغب من رجاله بالانضمام إليه.

كما زعم بعضهم أن غازان عرض على الأوروبيين أن يعتنق النصرانية فى سبيل الحصول على مساعدتهم ضد المماليك(١).

وفى عهد الملك خدا بنداه خان خليفة غازان ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) والذى كان مسلماً منذ ٦٩٤ هـ (١٢٩٤ م) ويلقب بغياث الدين محمود بالاتصال بالملك الناصر قلاوون، وتصالح معه وأظهر تراجعا عن سياسة سلفه.

ثم إنه لم يلبث فى أواخر عهده أن عاد لمعاداة المماليك والاستعانة بأوروبا ملوكا وبابوات ضدهم، فاتصل بالبابا كليمنت الخامس، والملك إدوارد الثانى ملك إنجلترا، والملك فيليب الجميل ملك فرنسا، محاولا الاستعانة بهم ضد المماليك.

وحاول إعانة بعض الأمراء المتمردين، فذكر المقريزى بأنه أعد حملة هدفها الشام مع الأميرين سنقر والأقرم الهاربين من الملك محمد بن قلاوون، ثم لم تلبث هذه الحملة

(١) ولهذا شك بعض المؤرخين فى إسلام هذا الملك المغولى واعتبروا إسلامه إسلاماً سياسياً والله أعلم.

أن فشلت وتخلت عن مهمتها بعد أن سمعت بخروج السلطان لملاقاتها.

ومنذ عهد الملك المغولى أبى سعيد الذى خلف خدا بنداه سنة ٧١٦ هـ (١٣١٦ م) الذى كف عن معاداة المماليك، وصادق الناصر محمد بن قلاوون وراسله وهاداه وعقد معه اتفاقيات فتحا بموجبها حدودهما للتجارة.

وتعهد له الناصر بحماية الحجاج الإيرانيين والمحمل الإيلخانى وتبعه فى ذلك خلفاؤه من الإيلخانات الذين ضعف شأنهم وانشغلوا بنزاعاتهم على العرش، وانتهى بذلك عصر نفوذ المغول التتار على العالم الإسلامى والعالم.



لهذه الأسباب ينتصر المسلمون قديماً وحديثاً

- أسباب انتصار المسلمين فى عين جالوت وإزالة آثار الهزيمة.
- تحقيق منهج الله ودين الله فى الدول الإسلامية وإذكاء روح الجهاد فى سبيل الله.
- الوحدة وجمع الصفوف تحت قيادة واحدة.
- الاستعداد والأخذ بكل أسباب القوة والتخطيط السليم.



أسباب انتصار المسلمين قديماً وحديثاً وأسباب الهزيمة أيضاً

لا شك أن لكل شيء في الدنيا أسبابه فالنصر والنجاح له أسباب وكذلك الهزيمة والفشل.

وقد مرت الأمة الإسلامية بمراحل قوة وضعف كثيرة نستطيع أن نجملها فيما يلى باختصار:

١ ـ القرب من منهج الله ودين الله الذى ارتضاه لعباده:

فقد كان الإسلام عز هذه الأمة وأهم أسباب نصرها وهذا ما فهمه الصحابة وعملوا به وله وهو ما قاله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه حين فتح الله عليه بلاد الدنيا وقال إنا قوم كنا أذلاء فأعزنا الله بالإسلام.

قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (آل عمران: ١٢٦).

وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

(محمد ﷺ: ٧).

وإذا أرادت هذه الأمة أن تعود لسابق مجدها وتنتصر على أعدائها عليها أولا بالعودة إلى تحكيم دين الله الإسلام فى كل شؤون حياتها وألا تفصل الدين عن السياسة كما فعلت فى عصر الماضى فحلت بها الهزائم والنكبات وتكالبت عليها الأمم.

والاعتقاد الجازم بأن النصر لا يكون إلا من عنده سبحانه وتعالى.

ولذلك اهتم قطز رحمه الله بالناحية الإيمانية عند الجيش وعند الأمة، وعظّم دور العلماء، وحفز شعبه لحرب التتار المغول من منطلق إسلامى وليس من منطلق قومى أو عنصرى، ولخص ذلك فى عين جالوت بكلمته الموفقة «واإسلاماه»، ولم يقل: وامصراه.. وامُلْكاه.. واعروبتاه.

لقد كانت الغاية واضحة جداً عند قطز رحمه الله وكانت هويتُه إسلامية تماماً.

وقد ظهر رسوخ هذا الأمر فى نفس قطز رحمه الله عندما لجأ إلى الله بوضوح عند الأزمة الخطيرة فى عين جالوت، حيث وقف متضرعاً يناجى ربه ويقول: «يا الله.. انصر عبدك قطز على التتار».

فالدعاء هو العبادة.. الدعاء اعتراف من العبد بعبوديته لله عز وجل، الدعاء إعلان صريح من العبد أنه فقير لرب العالمين وأن الله هو الغنى الحميد بيده مفاتيح كل شىء.

هكذا كان قطز رحمه الله يدرك فى كل خطوة من خطوات إعداده أنه لن يفلح إلا إذا أراد الله عز وجل، ولذلك لابد أن يطلب منه باستمرار وبإلحاح وبخشوع وبتضرع، ولم ينسب النصر إلى نفسه أبداً.

بل كان دائماً ينسبه إلى الله عز وجل، لأنه يعلم أنه كثيراً ما طلب من الله عز وجل قد تفضّل وتكرّم عليه بالنصر المبين الذى كان فاتحة الخير على الأمة الإسلامية كلها وإنهاء أسطورة التتار.

وأيقن السلطان قطز أن الجهاد روح وسنام الإسلام وخاصة حين يهاجم الأعداء المسلمين وبلادهم.

فقد تيقن قطز رحمه الله أن السبيل الأساسى لاستعادة حقوق المسلمين هو الجهاد، وأن السلام إذا صلح أن يكون اختياراً فى بعض الظروف، إلا أنه لا يمكن أن يُختار إذا انتُهبت حقوق المسلمين، وإذا سُفكت دماؤهم، وإذا شُرّدوا فى الأرض.

فالسلام لا يكون إلا باستعادة كامل الحقوق، ولا يكون إلا ونحن أعزّاء، ولا يكون إلا ونحن نمتلك قوة الردع الكافية لدحر العدو إذا خالف معاهدة السلام وبغير ذلك لا يكون سلاماً بل يكون استسلاماً وتلك هى الهزيمة النكراء والحق أن شعب مصر كان مؤهلاً للجهاد، ومعظماً له من جرّاء الحروب الصليبية المتتالية.

ولذلك كان سهلاً على قطز رحمه الله أن يذكّر الناس بالجهاد كسبب رئيسى من أسباب النصر، ولابد أن تفقه الأمة الإسلامية أنها لا سبيل لها لرفع رأسها من الأرض إلا بالجهاد، ولذلك فالجهاد هو ذروة سنام الإسلام، أى أعلى ما فيه، ومن يتمسك به يكن أعلى الناس فى الأرض.

٢ـ الوحدة قوة تحقق النصر والفرقة ضعف يحقق الهزيمة:

فالاتحاد كما يقولون قوة ونصر وقد أمر الله عز وجل بالاعتصام بحبله المتين القوى وهو الإسلام لتحقيق النصر فقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾.

(آل عمران: ١٠٣).

وهذا ما فعله السلطان قطز حين تولى أصعب مهمة فى التاريخ الإسلامى بعد عصر الخلفاء وهو محاربة التتار الذين أهلكوا الملايين من المسلمين من الشرق إلى الغرب.

فقام قطز بضم الجيوش الشامية التى انهزمت أمام التتار إلى صفوفه وضم جيشه جميع طوائف الشعب المصرى الذى تحفز للجهاد وقتال التتار.

ولم يوالِ قطز أعداء الأمة من الصليبيين فى الشام ولم يرضخ لضغط وتهديد التتار وقتل رسلهم وعلق جثثهم على باب زويلة.

٣ـ الاستعداد والأخذ بالأسباب الموجبة للنصر:

وقد أمر الله عز وجل المؤمنين بالاستعداد لأعدائهم بما استطاعوا فقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾

(الأنفال: ٦٠).

وقد أخذ قطز بكل أسباب النجاح والقوة كى يتحقق له النصر بإذن الله، فجمع السلاح وجمع الجنود والشعب من حوله ووضع الخطة العسكرية المناسبة التى اعتمد فيها المكر والخديعة للتتار كما فعلوا هم بأعدائهم.

وضرب قطز المثل بنفسه فى ساحة المعركة حين قاتل واقتحم الصفوف وهو يرفع راية الإسلام ويعلو صوته بالنداء الذى اشتهر به: «واإسلاماه».

ورفع يديه إلى الله يدعوه فى أرض المعركة بالنصر له: «اللهم انصر عبدك قطز».

وظل يقاتل فى الصفوف الأولى وقد ألقى بخوزته على الأرض وتلك كناية عن استعداده للموت وطلب الشهادة حتى التهب حماس الجنود من حوله.

حتى إن أحد التتر صوب سهمه نحو قطز رحمه الله فأخطأه ولكنه أصاب الفرس الذى كان يركب عليه قطز فقُتل الفرسُ من ساعته، فترجل قطز رحمه الله على الأرض، وقاتل ماشياً لا خيل له! وما تردد، وما نكص على عقبيه، وما حرص على حياته رحمه الله، حتى رآه أحد أمرائه من المماليك وهو يقاتل ماشياً، فجاء إليه مسرعاً، وتنازل له عن فرسه، إلا أن قطز رحمه الله امتنع، وقال: «ما كنت لأحرم المسلمين نفعك!!».

وظل يقاتل ماشياً إلى أن أتوه بفرس من الخيول الاحتياطية!!

وقد لامه بعض الأمراء على هذا الموقف وقالوا له: لِمَ لَمْ تركب فرس فلان؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك، وهلك الإسلام بسببك.

فقال قطز فى يقين: «أما أنا كنت أروح إلى الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه، وقد قتل فلان وفلان وفلان... حتى عد خلقاً من الملوك فأقام الله للإسلام من يحفظه غيرهم، ولم يضيع الإسلام»(١).

ونتيجة لهذه المواقف قامت القوات الإسلامية بأداءٍ راقٍ جداً فى القتال، وأخرجت كل إمكانياتها، ولم تكن قضيتها قضية موت أو حياة كالتتار، بل كانت إما نصرا أو شهادة.

وبدأت الكفة ـ بفضل الله ـ تميل من جديد لصالح المسلمين.. وارتد الضغط على جيش التتار، وأطبق المسلمون الدائرة تدريجياً على التتار.. وكان يوماً على الكافرين عسيراً.

وتقدم أمير من أمراء المماليك المهرة فى القتال وهو جمال الدين آقوش الشمس، وهو من مماليك الناصر يوسف الأيوبى، وقد ترك الناصر لما رأى تخاذله وانضم إلى جيش قطز، وأبلى بلاءً حسناً فى القتال، واخترق الصفوف التترية فى حملة صادقة موفقة حتى وصل فى اختراقه إلى قائد المغول كتبغابوين ورفع البطل المسلم سيفه، وأهوى بكل قوته على رقبة الطاغية المتكبر كتبغا، فطارت الرأس المتكبرة فى أرض القتال، وسقط زعيم التتار، وبسقوطه سقطت كل عزيمة عند جيش التتار.

وبمقتل قائد المغول انهزموا وفرَّ الجيش الذى لا يهزم!!

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير.

وركز التتار جهدهم على فتح ثغرة فى مدخل سهل عين جالوت الشمالى، واستطاعوا بعد جهد شديد أن يحدثوا ثغرة فى الصف المسلم الواقف على باب المدخل، وانطلق التتار فى سرعة عجيبة يولون الأدبار، وخرجت أعداد كبيرة يسرعون الخطا فى اتجاه الشمال لعل هناك مهرباً.

وجيوش المسلمين تجرى خلف جيوش التتار لا يتركونهم حتى تحقق النصر وتحرير البلاد بكاملها عن طريق الجهاد.

ووصل التتار الفارون إلى بيسان[1] ووجد التتار أن المسلمين جادون فى طلبهم، فلم يجدوا إلا أن يصطفوا من جديد، لتدور موقعة أخرى عند بيسان أجمع المؤرخون على أنها أصعب من الأولى.

وقاتل التتار قتالاً رهيباً، ودافعوا عن حياتهم بكل قوة، وبدءوا يضغطون على المسلمين، وكادوا أن يقلبوا الأمور لمصلحتهم، وابتلى المؤمنون، وزُلزلوا زلزالاً شديداً ورأى قطز رحمه الله ذلك فانطلق قطز يحفز الناس، ويدعوهم للثبات ثم أطلق صيحته: واإسلاماه، واإسلاماه، واإسلاماه.. قالها ثلاث مرات، ثم قال فى تضرع: «يا الله! انصر عبدك قطز على التتار!».. فالدعاء كما جاء فى الحديث الصحيح هو مخ العبادة بل هو العبادة نفسها وهو مستجاب عند لقاء العدو.

عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملإ ذكرته فى ملإ خير منهم، وإن تقرب منى شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة»[2]..

وهكذا دق قطز على الباب الذى ما طرق عليه صادق إلا وفتح له، إنه باب الدعاء والقربى من الله لقد كان خشوع قطز الصادق هو الجبل الذى وقع على جيش التتار فأهلكهم وأرداهم وهزمهم، ويجب أن يعى المسلمون حكاماً ومحكومين هذا الدرس جيداً

(١) بعد حوالى عشرين كيلو متر إلى الشمال الشرقى من أرض المعركة فى عين جالوت.

(٢) متفق عليه.

ونحن فى هذا العصر الذى يتكالب التتار الجدد علينا.

وبدأ الجنود الذين روعوا الأرض قبل ذلك يتساقطون كالذباب على أرض بيسان كما سقطوا على أرض عين جالوت وقضى المسلمون تماماً على أسطورة الجيش الذى لا يقهر وجاء من بعدهم أحفادهم الذين قضوا على أسطورة الجيش الإسرائيلى الذى لا يهزم أيضاً فى معركة التحرير فى أكتوبر عام ١٩٧٣ م.

وهكذا فنى الجيش الذى اجتاح نصف الكرة الأرضية وانتهت أسطورة ملك العالم جنكيز خان وأحفاده وفنى الجيش الذى سفك دماء الملايين وخرب مئات المدن، وعاث فى الأرض فساداً.

وانتصر الجيش الإسلامى العظيم حين حقق أسباب النصر كما ذكرنا وكذلك يتحقق النصر مستقبلاً وحالياً بإذن الله تعالى فهل نحن مستعدون؟

فالنصر دوماً من عند الله عز وجل.



الصراع بين هولاكو وبركة خان ولديْ العم

- أهم مكاسب النصـــر فى عين جـــالوت دخـول القـبـيلة الذهبـيـة المغـوليـة فى الإسلام.
- لمحـات من تاريخ بـركـة خـان حـفـيـد جنكيـــز خـــان» الذى أسلم قــبل عين جالوت.
- حـرب بركـة خـان لابن عـمـه هولاكـو وصده عن غزو بلاد المسلمين.



أهم مكاسب معركة عين جالوت
دخول التتار المغول فى دين الله أفواجاً

لا شك أن نصر الله تعالى كما أن له أسبابا ومقدمات له نتائج ومكاسب تتحقق وكان من أهمها دخول أعداء الإسلام من المغول فى دين الله أفواجاً كما دخل المشركون العرب فى دين الله أفواجاً بعد فتح مكة المكرمة فى العصر النبوى.

وقد سبق دخول أحد قادة المغول فى الإسلام قبل عين جالوت حين أسلم زعيم القبيلة الذهبية المغولية وهو الاسم الذى أطلق على أسرة «جوجى بن جنكيز خان» الذى أعطاه والده جنكيز خان بلاد روسيا والقوقاز وبلغاريا وغرب المعمورة.

فقد كانت البلاد التى أخذها «جوجى» وأولاده واقعة بين نهر «أرتش» والسواحل الجنوبية لبحر قزوين وكانت تلك البلاد تسمى القبشان.

ويطلق عليها اسم القبيلة الذهبية نسبة إلى خيامها ذات اللون الذهبى.

وكانت هذه القبيلة شبه مستقلة عن التتار المغول بعد جنكيز خان وتعرف أيضاً باسم بلاد «القبجاق» فى الكتب الإسلامية.

ومازالت بقايا هذه القبيلة الذهبية موجودة فى بلاد قازان والقرم واستراخان والثوغاس وخوارزم وغيرها وكلها تحت حكم الاتحاد الروسى أو الدولة الروسية.

فقد قسم جنكيز خان إمبراطوريته الواسعة على أولاد الأربعة فأعطى الابن **الأكبر** جوجى: بلاد روسيا والقوقاز وبلغاريا وما يفتحه من غرب المعمورة، والابن الثانى **جغطاى:** بلاد الأويجور وتركستان الغربية وبلاد ما وراء النهر، والابن الثالث تولوى: خراسان وفارس وبلاد العرب وآسيا الصغرى، والابن الرابع: أوغطاى: بلاد المغول «منغوليا الآن» والصين وتركستان الشرقية وما يفتحه من شرق المعمورة.

وكان من المقرر أن يكون «جوجى» الابن الأكبر لـ «جنكيز خان» **هو الخليفة بعد موت**

أبيه، ولكن «جنكيز خان» شعر بطموحات «جوجى» واستعجاله لنيل المنصب بعد أبيه فدس عليه من قتله وعين بدلا منه أخاه «أوغطاى» فى منصب ولى العهد(١).

وقيل أيضاً أنه أى جوجى على وحشية أبيه فى التعامل مع أعدائه وسفكه للدماء وصرح بذلك، فلما علم أبوه أمر بوضع السم له فمات ومات جنكيز خان بعده بأشهر قليلة(٢).

وكان للإسلام بالغ الأثر فى نفوس أبناء «جوجى» ويرجع السبب فى ذلك لأن أباهم «جوجى» تزوج من الأميرة «رسالة بنت خوارزم شاه» التى وقعت فى الأسر وهى أخت السلطان جلال الدين «منكبرتى» آخر سلاطين الدولة الخوارزمية، وهذا الزواج باطل ولا ينعقد أصلا لكفر «جوجى» إلا أنها كانت سبية مكرهة، والدليل أن «رسالة» هذه ظلت محافظة على إسلامها وشعائرها، وإلا ما تأثر بها أبناء «جوجى» حتى دخل بعضهم فى الإسلام كما حدث مع ابنها بركة الذى تولى زعامة القبيلة بعد أخيه «باتو» وكان إسلامه منذ صغر سنه.

وهو أحد سبعة أبناء لجوجى وهم «باتو، أوردا، شوبان، بركة، جمتاى، بركجار، توقاتيمر» وكان الابن الأكبر باتو قد ورث منصب أبيه وأصبح زعيماً للقبيلة الذهبية، والتى تعد أولى قبائل التتار إسلاماً وأكثرها تعاطفاً وتأدباً مع المسلمين.

وبسبب تعاطف باتو مع المسلمين فى بلاده أخذ النصارى خاصة الرهبان والقساوسة فى بلاد المغول، وكان لهم دور وتأثير كبير على الحرب المروعة على بلاد الإسلام، فى تحريض الزعيم الكبير للتتار «كيوك بن أوغطاى» لمحاربة «باتو» قبل أن ينتشر الإسلام فى كل ربوع الشمال.

وتوفى «باتو» سنة ٦٥٠ هجرية وخلفه بعده فى رئاسة القبيلة الذهبية ابنه «حرتق» الذى لم يعش طويلاً حتى توفى وانتقلت الرئاسة لعمه البطل المقدام «بركة خان» وذلك سنة ٦٥٣ هجرية.

(١) ينطق اسم جوجى، أيضاً جوشى أو جوتشى أو دوتشى وكذلك اسم جغطاى ينطق جحطاى وتولوى ينطق تولى وأوغطاى ينطق أوقطاى.

(٢) اقرأ كتابنا «جنكيز خان».

دخل «بركة خان» فى الإسلام سنة ٦٥٠ هجرية وكان من قبل محبا ومتأثرا بالإسلام بسبب امرأة أبيه «رسالة» وقد التقى «بركة خان» فى مدينة «نجارى» مع أحد علماء المسلمين واسمه «نجم الدين مختار الزاهدى» وكان بركة عائداً لتوه من زيارة عاصمة المغول «قرة قورم» وأخذ «بركة» فى الاستفسار عن الإسلام من هذا العالم المسلم وهو يجيبه بكل وضوح وسلاسة.

فطلب بركة منه أن يؤلف له رسالة تؤيد بالبراهين رسالة الإسلام وتوضح بطلان عقائد التتار والتثليث وترد على المخالفين والمنكرين للإسلام، فألف «الزاهدى» الرسالة ودخل «بركة خان» الإسلام إثر قراءتها عن حب واقتناع وإخلاص ورغبة عارمة فى نصرة هذا الدين.

ولم يكن دخول «بركة خان» الإسلام كدخول آحاد الناس بل دخل الإسلام بطلا ملكا سلطانا لقبيلة تترية، والتتار وقتها هم الكابوس المفزع للبشرية جمعاء وللمسلمين خاصة، لذلك جاءت أعمال هذا البطل العظيم على نفس المستوى الفائق من المسؤولية والقيادة.

وتحول هذا السلطان الوثنى إلى جندى من أخلص جنود الإسلام شديد الحب والتفانى فى نصرة الدين وأهله، حيث ضرب أروع الأمثلة فى الولاء والبراء وهذه طائفة من أهم أعمال «بركة خان» فى نصرة الإسلام.

فبعدما أعلن «بركة خان» إسلامه أول ما فعله أن أرسل ببيعته للخليفة العباسى «المستعصم» ببغداد أخر خلفاء العباسيين وقتيل التتار وهذا الإجراء رغم أنه بسيط وبه كثير من الشكلية، لأن خليفة المسلمين وقتها لم يكن له أى نفوذ حقيقى إلا على مساحة ضيقة من الأرض، إلا أنه يعطى صورة واضحة جلية نحو ولاء «بركة خان» لسلطان المسلمين وانضوائه تحت جماعة المسلمين.

وبعدما اعتلى «بركة خان» رئاسة القبيلة الذهبية أخذ فى إظهار شعائر الإسلام وكانت مندثرة فى بلاد التتار منذ عهد «جنكيز خان» الذى كان يقتل من يجهر بتلك الشعائر شر قتلة، وقام «بركة خان» بإكمال بناء مدينة «سراى» وهى مدينة «سراتوف» الآن فى روسيا على نهر الفولجا وجعلها عاصمة القبيلة الذهبية، وبنى بها المساجد

والحمامات ووسعها جداً حتى صارت أكبر مدن العالم وقتها، وجعلها على السمت الإسلامى الخالص.

نظراً لأن «بركة خان» قد دخل الإسلام بحب واقتناع وإخلاص، فلقد تجمعت معانى العقيدة الصحيحة ومقتضيات لا إله إلا الله فى قلبه وجاءت ردود أفعاله وغيرته على الإسلام والمسلمين لتذكرنا بمواقف الصحابة رضوان الله عليهم والرعيل الأول من سلف الأمة، فقد كان «بركة خان» شديد الغيرة على الإسلام والمسلمين.

وقد ظهرت هذه العقيدة بوضوح عندما فكر الطاغية «هولاكو بن تولوى بن جنكيز خان» فى الهجوم على بغداد بعدما كاتبه الخائن «ابن العلقمى» وزير شؤون بغداد وطلب منه الحضور.

وكان «مانكو بن تولوى» أخو «هولاكو» هو الخان الأكبر لجميع التتار، وقد نال هذا المنصب بمساعدة قوية من «باتو» الأخ الأكبر «لبركة خان».

وحاول «هولاكو» بإقناع أخيه الأكبر «مانكو» بهذه الفكرة، وبالفعل وافق «مانكو» على الفكرة ورحب بالهجوم على باقى بلاد المسلمين.

وبدأ «هولاكو» فى الإعداد لذلك، وما أن وصلت الأخبار إلى «بركة خان» حتى التهبت مشاعره وأسرع إلى أخيه «باتو» وألح عليه فى منع الهجوم على المسلمين وقال له: إننا نحن الذين أقمنا «مانكو» خانا أعظم وما جازانا على ذلك إلا أنه أراد أن يكافئنا بالسوء فى أصحابنا ويخفر ذمتنا ويتعرض إلى ممالك الخليفة وهو صاحبى وبينى وبينه مكاتبات وعقود ومودة وفى هذا ما لا يخفى من القبح.

وبالفعل أقتنع «باتو» تماما بكلام أخيه وبعث إلى هولاكو يثنيه عما ينويه من قتال المسلمين، وبالفعل أجل «هولاكو» الهجوم على المسلمين حتى وفاة «باتو خان» ثم عاد إلى الاستعداد لغزو بغداد كما ذكرنا من قبل.

وبعد سقوط بغداد والشام ثم انتصار المسلمين فى عين جالوت وهزيمة التتار دخل «بركة خان» فى حلف مع المماليك الذين بهروا العالم عندما انتصروا على التتار فى موقعة «عين جالوت» سنة ٦٥٨ هجرية، وكثرت المراسلات والاتصالات بين السلطان

«بيبرس» و «بركة خان» وكان لها أثر كبير فى توجيه «بركة خان» لحرب «هولاكو» وأن هذا الأمر من مقتضيات الولاء والبراء.

وبالفعل اتفق «بركة خان» و «بيبرس» على محاربة «هولاكو» وكتب «بركة خان» برسالة إلى «بيبرس» يقول له فيها: قد علمت محبتى للإسلام وعلمت ما فعل هولاكو بالمسلمين، فاركب أنت من ناحية حتى آتيه أنا من الناحية الأخرى، حتى نهزمه أو نخرجه من البلاد، وأعطيك جميع ما كان بيده من البلاد.

وتوطدت العلاقة بين «بركة خان» زعيم القبيلة الذهبية والظاهر «بيبرس»، بل وتحالف الفريقان ضد عدوهما المشترك الذى يمثل «هولاكو» فى فارس.

أما «هولاكو»، فأسرع فى البحث عن حلفاء يناصرونه على هؤلاء المسلمين، فتحالف مع زعماء الصليبيين فى بلاد الشام، وقد شجعت «هولاكو» زوجته المسيحية على هذا الخط لتصرفه عن الديانة الإسلامية.

وعلى الرغم من كل هذه الجهود، وأن نفوذ المسلمين بدأ يقوى على مر الزمن، دخل كثيرون من الحكام المغول فى الإسلام حتى دخلت القبيلة الذهبية المغولية كلها فى الإسلام.

فعندما تولى «غازان محمود» أحد إيلخانات الحكم فى فارس ٦٩٤ ـ ٧٠٣ هـ اعتنق الدين الإسلامى، وطالب رعاياه بالدخول فى الإسلام، وأعلن أن دين الإسلام هو الدين الرسمى للدولة.

ومنذ ذلك الحين بدأ الإسلام ينتشر انتشاراً سريعاً فى دولة إيلخانات المغول فى فارس.

واستقر المغول فى البلاد الإسلامية، وتشبعوا بالروح الإسلامية تدريجياً، وأسسوا أسرة إيلخانات المغول فى فارس، وتطبعوا بالطبع الإسلامى مع ارتباطهم بالشعب المغولى فى شرق آسيا، مما أدى إلى سهولة تبادل المعلومات فى مختلف نواحى الحياة بين شرق آسيا وغربها.

وقوى نفوذ المسلمين بعد اعتناق «تكودار أحمد» الديانة الإسلامية ٦٨٠ هـ، وهو أحد أبناء هولاكو، عمل على جذب أتباعه إلى الإسلام، فقدم العطايا والمنح لكل من يعتنق الإسلام، ومنحهم ألقاب الشرف فى دولته.

دخول هذا الزعيم ومن جاء بعده فى حلف سلاطين المماليك، الظاهر «بيبرس» والناصر «قلاوون» وغيرهما، وقد توطدت العلاقة بين هاتين الدولتين، خاصة بعد المصاهرة التى تمت بينهم، وتبادل الرسل والهدايا، ومواجهتهم لعدو مشترك هم التتار الكفار.

أما دولة المغول الكبرى فى إيران وما جاورها والتى منها انطلقت جحافلهم لغزو العراق والشام، فقد حدث فى عام ٦٨٠ هـ أن أسلم أحد أولاد «هولاكو» وهو السلطان «تكودار بن هولاكو» الذى تسمى بعد إسلامه باسم أحمد، فصار اسمه: أحمد بن هولاكو، وقد أعلن إسلامه فى منشور أصدره لما جلس على العرش ووجهه إلى أهل بغداد.

كما أرسل رسالة إلى السلطان المنصور «قلاوون» يعلن اهتداءه إلى الإسلام، ويدعو إلى المصالحة ونبذ الحرب، ولم يتخل عن افتخاره واستعلائه على سلطان المماليك.

وقد رد عليه السلطان «قلاوون»، ثم تبودلت الرسائل بينهما، ولكن لم تكن العلاقات بينهما جيدة كما يظهر من صيغة الرسائل المتبادلة.

ومما يجدر ذكره أن السلطان أحمد دخل لوحده فى الإسلام، ولم يستطع أن يفرضه على أتباعه ولا على أمراء المغول من حوله، فصار دخوله فى الإسلام فردياً، وهذا ما يفسر سرعة القضاء عليه وقتله من جانب منافسيه من أمراء المغول الذين تآمروا عليه فقتلوه سنة ٦٨٣ هـ.

فى سنة ٦٩٣ هـ تولى محمود قازان عرش المغول، ثم فى سنة ٦٩٤ هـ دخل فى الإسلام، يقول الذهبى عن هذه السنة:

«وفيها دخل ملك التتار غازان بن أرغون فى الإسلام، وتلفظ بالشهادتين بإشارة نائبه «نوروز»، ونثر الذهب واللؤلؤ على رأسه، وكان يوما مشهودا، ثم لقنه «نوروز شيئا من القرآن، ودخل رمضان فصامه، وفشا الإسلام فى التتار».

وقد أعلن غازان الإسلام دينا رسميا للدولة المغولية فى إيران، كما غير المغول زيهم فلبسوا العمامة، كما أمر بتدمير الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية، والأصنام البوذية.

كما أمر أهل الذمة بأن يتميزوا بلباس خاص بهم.

وهكذا اختلف إسلام قازان عن إسلام السلطان أحمد بأن إسلامه لم يكن فرديا وإنما حوله إلى دين رسمى للدولة.

لكن هذا السلطان هاجم وجيشه الشام مرات ودارت بينهم وبين أهل الشام - ومعه سلاطين مصر - معارك كبيرة، وانتصر المغول فى أولها وهزموا فيما تلاها، وقد عاث الجيش التترى فسادا فى الأرض وفعلوا - كما قال ابن تيمية لقازان نفسه لما التقى به - ما لم يفعله أسلافه من حكام التتار الوثنيين. وقد بقيت الأمور على هذه الحال إلى ما بعد وفاة غازان سنة ٧٠٣ هـ.

وقد كان التتار يقدسون دستورهم الذى وضعه لهم جنكيز خان، وكان يسمى «إلياسا» إو «اليساق» وكانوا يتحاكمون إليه، وبعد إسلامهم لم يتركوا التحاكم إلى هذا الدستور.

لكن بعد وفاة قازان تولى من بعده أخوه «أولجاتيو خدابنده»، وصار اسمه محمد بن أرغون، وقد تولى عرش المغول سنة ٧٠٣ هـ إلى سنة ٧١٦ هـ، وقد بدأ عهده بتحسين العلاقة مع سلطان المماليك، فأرسل إليه هدية وكتابا خاطب فيه السلطان بالأخوة «وسأله إخماد الفتن، وطلب الصلح، وقال فى آخر كلامه: عفا الله عما سلف، ومن عاد فينتقم الله منه، فأجيب، وجهزت له الهدية، وأكرم رسوله».

ثم تولى ابنه أبو سعيد - وهو صغير - الذى لعب كثير ممن حوله به، ثم لما كبر مال إلى العدل وإقامة السنة وإعادة الخطبة.

ولاشك أن تأثير الإسلام فى النفوس تأثير بالغ عظيم، حتى فى قلوب الغزاة الذين يتربصون بأمة الإسلام الدوائر، فلا يستعبد أن تتأثر فئات من المغول بدين الإسلام العظيم، ولكن الإنصاف يقضى أيضاً بخطأ اختزال العوامل الكثيرة التى ينتشر الإسلام بسببها فى عامل واحد هو «المغول».

يؤكد ذلك أمران اثنان:

١ ـ أن دين الإسلام كان قد انتشر فى آسيا منذ القرون الهجرية الأولى على يد القائد المسلم قتيبة بن مسلم الباهلى سنة (٩٤ هـ)، حيث فتح «كاشغر» عاصمة الصين آنذاك، ثم توقفت الفتوحات العسكرية لتبدأ الفتوحات المعرفية بنشر الإسلام فى جميع بقاع آسيا عن طريق العلم والدعوة والأخلاق الحميدة.

٢ ـ أن أكثر المغول الذين انتسبوا إلى الإسلام لم يعرفوه حق معرفته، ولم يقفوا عند حدوده وشرعه، ولم يمنعهم الدين الجديد الذى انتسبوا إليه من اقتحام بلاد المسلمين، وتكرار اعتدائهم عليها بعد عصر «جنكيز خان» الطاغية، ولم تختلف سيرتهم كثيرا عن سيرة أسلافهم من المجرمين، مما حدا بأهل العلم إلى الفتوى بكفرهم وعدم صحة إسلامهم، وهى فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية المشهورة، حتى إنه كان يقول:

«إذا رأيتمونى من ذلك الجانب ـ يعنى الذى فيه المغول ـ وعلى رأسى مصحف فاقتلونى»، لما كان يجزم به من كفرهم وظلمهم وعدوانهم[١].

ولكونهم كانوا يحكّمون شريعة جنكيز خان «الياسا» بدلاً من كتاب الله وسنة النبى ﷺ فى شؤون حياتهم[٢].



(١) انظر البداية والنهاية ـ لابن كثير.

(٢) انظر حكم من بدل شرع الله لابن تيمية.

حرب «بركة خان» لابن عمه «هولاكو» بعد عين جالوت وصده عن غزو بلاد المسلمين

لم يكتف بركة خان من نشر الإسلام فى ربوع دولته حتى دخلت كلها فى دين الله أفواجا بعد عمل وقف زحف هولاكو على بلاد الإسلام بعد هزيمته فى عين جالوت وطبق بذلك مبدأ وعقيدة الولاء والبراء فى الإسلام.

واستطاع بركة خان بفضل الله تعالى من الانتصار على «هولاكو» عامى ٦٦٠هـ ـ وعام ٦٦١ هـ.

فقد حاول «بركة خان» بشتى الوسائل أن يوقف هذا المد الجارف الذى ينذر بمحو الإسلام من الوجود، ولكن لأن معظم جنوده كانوا لا يزالون على الوثنية فقد رفضوا الانصياع لأمره بمحاربة «هولاكو» لأنهم بذلك سيخالفون الخان الأعظم للتتار والذى قد وافق على الهجوم الهولاكى على بغداد.

فأخذ «بركة خان» فى اختلاق الذرائع والحجج لإشعال الحرب ضد «هولاكو» ووجد ضالته فى مسألة الغنائم حيث كان من عرف «جنكيز خان» القديم أن أسرة «جوجى» لها ثلث الغنائم التى يحصل عليها التتار جميعا فى أى معارك يخوضونها.

وبالقطع لم تكن الغنائم دافعا لـ «بركة خان» بل كان حبه للإسلام ورغبته فى مقاتلة «هولاكو» الطاغية فأرسل «بركة» رسلا من طرفه وأمرهم أن يشتدوا ويغلظوا على «هولاكو» فى السؤال، وبالفعل نجحت الحيلة واستشاط «هولاكو» غضبا وقتل رسل «بركة خان» وسير جيشا لمحاربة «بركة خان» فانهزم جيش هولاكو شر هزيمة وذلك سنة ٦٦٠ هجرية.

فعاود الهجوم مرة أخرى بجيش أكبر فانهزم جيش «بركة خان» وكان يقوده أحد قواده اسمه «نوغاى»، فأراد «هولاكو» أن يجهز بالكلية على «بركة خان» فأرسل جيشا

جرارا فيه معظم جنوده يقودهم ابنه الخبيث «أباقا»، فخرج لهم «بركة خان بنفسه» على رأس الجيش ومزق جيش هولاكو شر تمزيق سنة ٦٦١ هجرية فى منطقة القوقاز ولم ينج منهم سوى القليل.

واستغل «بركة خان» خروج الخان الأعظم «مانكو» لقتال بعض الخارجين عليه ومعه أخاه «قبلاى» وترك أخاه الآخر «أرتق بوكا» مكانه لتسيير الأمور لحين عودته، فاستغل «بركة خان» وفاة «مانغو» فى الطريق لإثارة الفتنة بين «أرتق بوكا» و «قبلاى»، حيث اتفق الجند والأمراء على تولية «قبلاى»، فأرسل «بركة خان» إلى «أرتق بوكا» بقوة عسكرية لمنازعة أخيه «قبلاى»، على منصب الخان الأعظم.

وحرض أيضاً أسرة «أوغطاى» على مساعدة «أرتق بوكا» ووقعت الحرب بينهما سنة ٦٥٨ هجرية وذلك قبل معركة «عين جالوت» بقليل مما جعل هولاكو يعود مسرعا من الشام لفض النزاع ويترك غزو مصر إلى قائده «كتبغا».

واستمرت الحروب عدة سنوات، وكان «بركة خان» فى نفس الوقت يقنع ويحث كثيرا من جنود «هولاكو» بالشام على الدخول فى الإسلام والانضمام إلى جيش «بيبرس»، وبالفعل أقنع الكثيرين منهم وتحولوا إلى حرب «هولاكو» أما «هولاكو» فوجد أن كل البلايا والمعارك التى حدثت له وللتتار جميعا كان سببها «بركة خان» فاشتد غيظه وحقده على «بركة خان» وحاول محاربته عدة مرات ولكنه هزم شر هزيمة مما أشعل الغيظ فى قلبه حتى وصت نيران غيظه إلى عقله وجسده، فأصيب بجلطة فى المخ بعد وصوله خبر هزيمة ولده «أباقا» أمام «بركة خان» سنة ٦٦١ هجرية وظل يعانى من الصرع حتى هلك الهالك «هولاكو» سنة ٦٦٣ هجرية.

فانتقم «بركة خان» للإسلام والمسلمين من هذا المجرم الطاغية الذى دمر دولة الخلافة الإسلامية وسفك دم الملايين من المسلمين.

ظل «بركة خان» طوال حياته مجاهدا مناصرا للإسلام والمسلمين فى كل موطن وعلى عدة محاور، تشغله قضية الإسلام وتلتهب مشاعره ويهتز قلبه من أجل خدمة هذا الدين، لذلك كان من الطبيعى أن يموت هذا البطل على درب النصرة والجهاد.

فبعدما هلك الطاغة «هولاكو» من شدة الغيظ والحقد على ما جرى على يد «بركة خان» ورث مكانه ابنه «أباقا» وورث عنه أيضاً حقده وغيظه على «بركة خان» خاصة أن «بركة» قد هزمه هزيمة كبيرة سنة ٦٦١ هجرية، لذلك كانت محاربة «بركة» هى أولى خطوات وقرارات «أباقا بن هولاكو».

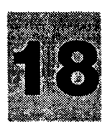
وبالفعل أعد «أباقا» جيشا جرارا لمحاربة «بركة» وأرسل «بركة» أولا قائده «نوغاى» ولكنه هزم وأصيب بسهم فى عينه، وكان «بركة خان» يحب «نوغاى» لإسلامه وجهاده معه فى كل موطن، فخرج «بركة خان» بنفسه للقاء «أباقا» وفى نيته محاربة عدو الإسلام وإزالة هذا الفرع الخبيث من شجرة التتار التى بدأت تتحول للإسلام شيئا فشيئا.

وفى الطريق أتاه اليقين وتوفى البطل العظيم مجاهدا مناصرا سنة ٦٦٥ هجرية بعدما قضى حياته الحقيقية، خمس عشرة سنة، فى خدمة الإسلام ومحبة المسلمين ومحاربة أعداء الإسلام حتى مات رحمه الله، ولم يكن له أولاد ولم يترك ذرية ولكنه ترك سجلا حافلا فى العمل للدين والفهم الصحيح لعقيدة الولاء والبراء، حتى إن السلطان المملوكى الظاهر «بيبرس» قد سمى ولده الأكبر «بركة خان» حبا فى شخصية هذا البطل العظيم.



هلاك هولاكو السفاح المغولى بالصرع

وفاة هولاكو بعد هزيمته على أيدى جيش «بركة خان» وإصابته بالصرع وعمره ثمانية وأربعون عاما.



هلاك «هولاكو» السفاح المغولى بالصرع

لكل طاغية على مر عصور التاريخ نهاية أليمة يذوق فيها العذاب الدنيوى وينطلق من الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية لنيل العذاب الأليم الأخروى.

فبعد هزيمة جيشه فى عين جالوت هزيمة منكرة أهلكت ذلك الجيش وقائده، زالت هيبة المغول التتار من نفوس الشعوب عامة والشعوب المسلمة خاصة.

وقد أرسل هولاكو بعد عين جالوت جيشا إلى مدينة حلب فأغار عليها ونهبها لكنه تعرض للهزيمة بالقرب من حمص فى شهرالمحرم عام ٦٥٦ هـ ـ ديسمبر عام ١٢٦٠ م وعاد الجيش مهزوماً إلى بلاد ما وراء نهر الفرات.

وزاد البلة طيناً على هولاكو حين قام ابن عمه الذى أعلن إسلامه بركة خان كما ذكرنا بمحاربته وتحالفه أيضاً مع المماليك.

وأدى الحال بهولاكو إلى أن اشتغل بمحاربة أبناء عمومته من القبيلة الذهبية وهزيمته مرة تلو الأخرى عام ٦٦٠ هـ، وعام ٦٦١ هـ فأصيب بجلطة دماغية أصابته بالصرع الذى انتابه أواخر حياته ومات به فى ١٩ ربيع الآخر عام ٦٦٣ هـ وقيل عام ٦٦٤ هـ وعمره ٤٨ عاماً.

وكان ميلاده عام ١٢١٨ م فى حياة جده جنكيز خان وتوفى جده وهو فى التاسعة من عمره.

قال عنه أبو الفداء فى تاريخه:

وهو هولاكو بن طلو(١) بن جنكيز خان وكانت وفاته بالقرب من قرية مراغة وكانت مدة ملكه البلاد التى سنصفها نحو عشر سنين وخلف خمسة عشر ولداً ذكراً.

ولما مات جلس فى الملك بعده ولده أبغا بن هولاكو واستقرت له البلاد التى كانت بيد والده حال وفاته وهى: إقليم خراسان وكرسيه(٢) نيسابور وإقليم عراق العجم وهو الذى

---

(١) وتنطق وتكتب تولوى أو تولى. (٢) كرسيه أى عاصمة الإقليم.

يعرف ببلاد الجبل وكرسيه أصفهان وإقليم عراق العرب وكرسيه بغداد وإقليم أذربيجان وكرسيه تبريز وإقليم خورستان وكرسيه تستر التى تسميها العامة تشتر، وإقليم فارس وكرسيه شيراز وإقليم ديار بكر وكرسيه الموصل وإقليم الروم وكرسيه قونية وغير ذلك من البلاد التى ليست فى الشهرة.

وتوفيت زوجته ظفر خان بعده بقليل.

وقال عنه ابن كثير رحمه الله فى البداية والنهاية فى ذكر ما توفى عام ٦٦٤ هـ: هولاكو خان بن تولى خان بن جنكيز خان ملك التتار ابن ملك التتار وهو والد ملوكهم، والعامة يقولون هو لاوون مثل قلاوون.

وقد كان هولاكو ملكاً جباراً فاجراً كفاراً لعنه الله، قتل من المسلمين شرقاً وغرباً ما لا يعلم عددهم إلا الذى خلقهم وسيجازيه على ذلك شر الجزاء.

كان لا يتقيد بدين من الأديان وإنما كانت زوجته ظفر خان قد تنصرت وكانت تفضل النصارى على سائر الخلق وكان هو يترامى على محبة المعقولات، ولا يتصور منها شيئاً وكان أهلها من أفراخ الفلاسفة فى تدبير مملكته وتملك البلاد شيئاً فشيئاً حتى أباده الله فى هذه السنة ٦٦٤ هـ وقيل سنة ثلاث وستين ودُفن فى مدينة تلا لا رحمه الله.

وقام فى الملك من بعده ولده أبغا خان وكان أبغا أحد إخوة ذكور والله سبحانه أعلم وهو حسبنا ونعم الوكيل.



كلمة أخيرة
اقرءوا التاريخ لتستفيدوا فى حاضركم ومستقبلكم

التاريخ هو عنوان الأمم، ولولا التاريخ لم يصل إلينا خبر ولا أثر، إنه غذاء الأرواح، وخزانة أخبار الناس والرجال، يحتاج إليه الملك والوزير والقائد البصير، وغيرهم ممن عز أمرهم.

أما الملك فيعتبر بما مضى وسقط من الدول، ومن سلف من الأمم، وأما الوزير فيعتبر بفعال من تقدم ممن حاز فضلى السيف والقلم.

وأما قائد الجيوش فيطلع به على مكائد الحرب، ومواقف الطعن والضرب.

فالأمة التى لا تقرأ تاريخها ولا تستفيد منه فى حاضرها ومستقبلها لهى أمة مقطوعة منبتة، فالماضى ليس مفتاحاً لفهم الحاضر فحسب، بل هو من أسس إعادة صياغة الحاضر.

ومقولة أن التاريخ يعيد نفسه ليست خطأ من كل الوجوه، وقد استخدم القرآن الكريم قصص الأمم السابقة للتأثير فى نفوس الناس، أو للتأثير فى نفوس الذين لم تنتكس فطرتهم قال الله تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ**﴾ **(هود: ١٠٠)**.

والتاريخ هو المنار الذى ينبئ الملاحين الجدد عن الصخور المهلكة التى قد تكون خافية تحت سطح البحر.

ولو أن المسلمين فى هذا العصر استوعبوا دروس الماضى لما أخطأوا فى كثير من الأمور.

يقول المؤرخ ابن الأثير ـ رحمة الله ـ «وأنه لا يحدث أمر إلا وقد تقدم هو أو نظيره فيزداد الإنسان بذلك عقلاً ويصبح لأن يقتدى به أهلاً».

فما حدث من سقوط بغداد على يد هولاكو المغولى فيه شبه كبير فيما حصل فى الأيام الماضية على يد هولاكو الأمريكى بوش الأبن كما ذكرنا.

لقد تحرك هولاكو المغولى بجيش كبير نحو العراق. وهذا ما فعله هولاكو الأمريكى حيث جمع مايزيد على ثلاثمائة ألف وأحاطوا بالعراق من كل جانب.

ووصل هولاكو المغلولى إلى مقربة من العراق وأقام بها شهراً وجه خلالها رسائل للملوك يطلب منهم معاونته فى القضاء على الإسماعيلية، وفى مقابل ذلك تعهد لهم بأن يبقيهم على ولايتهم ولا يتعرض لهم بسوء، وهددهم بأن امتناعهم عن مساعدته يجرهم إلى الحصار والدمار.

وكذلك هولاكو الأمريكى أيضا نزل ببعض الدول وأقام بها شهرا وهو يستعد لخوض الحرب، وطالب كثيراً من دول العالم أن تتحالف معه للقضاء على حزب البعث العراقى ورئيسه.

وكذلك استولى هولاكو المغولى على قلاع الإسماعيلية وأهمها قلعة الموت الواقعة على بحر قزوين.

ولم يكتف بهذه القلاع بل طلب من زعيم الإسماعيلية تسليم جميع القلاع فى بلاد الشام فاستجاب له وبعدها رفع الرايات المغولية على كل القلاع الإسماعيلية فى الشام.

وعندما استولى هولاكو الأمريكى على ميناء أم قصر بعد مقاومة استمرت أكثر من عشرة أيام رفعوا مباشرة الأعلام الأمريكية على الميناء وعلى المناطق التى استولوا عليها فى الجنوب فى بداية الأمر.

فى هذه الحرب فرح بعض المسلمين بقضاء هولاكو الأمريكى على حزب البعث بالرغم مما ينتظرهم من الخطر الأمريكى الذى هو أشد من خطر البعث وهذا ماحدث بالفعل.

فبعد القضاء على الإسماعيلية توجه هولاكو المغولى إلى بغداد ودار المراسلات بينه وبين المستعصم بالله فترة من الزمن يطلب منه هولاكو الاستسلام وهو يرفض.

وكان هولاكو المغولى يهاب من غزو بغداد ويخشى أن يقف العالم الإسلامى وتقف الممالك الإسلامية كلها فى وجه الغزو المغولى، وكان يخشى أن يعلن الخليفة العباسى الجهاد فى سبيل الله فيخسر هولاكو المعركة، لذا عمد إلى تمزيق الصف الإسلامى من الداخل والاستفادة من المنافقين الذين يوالون المغول.

وكذلك هولاكو الأمريكى وكان يخشى من حصول أمور لا يتوقعها إما من داخل العراق أو من خارجها من مثل دخول الآلاف من المسلمين للعراق لإعلان الجهاد ضد الغزو الصليبى الأمريكى لذا عمد إلى تمزيق الصف من الداخل والاستفادة من المنافقين الذين يوالون الأمريكان ومازال يستفيد أيضاً من الانشقاق والفرقة العربية.

ولعب نصير الدين الطوسى، وهو مستشار هولاكو المغولى الذى كان ينتمى إلى قلعة آلموت ثمان وعشرين سنة، لعب دوراً هاماً فى سقوط بغداد.

وأيضا الوزير ابن العلقمى، والذى دارت بينه وبين هولاكو مراسلات أدت إلى تخفيف الجيش فى بغداد حتى تمكن من الدخول إليها. وتولى منصب نائب الحاكم فيها.

وفى يوم الثلاثاء ٢٢ من شهر محرم سنة ٦٥٦هـ شرع المغول فى الهجوم الكاسح على بغداد، وأحاطوا بالمدينة من كل الجهات ونصبوا عليها المنجنيق، وأخذوا يمطرونها بوابل من الحجارة، حتى دكوا الثغرات فى السور والأبراج كما تم الهجوم بالصواريخ المعروفة فى ذلك العصر قبل الهجوم البرى.

وفى يوم الخميس ١٧ من شهر محرم سنة ١٤٢٤ هـ شرع الأمريكان فى الهجوم الكاسح على بغداد، وأمطروا المدينة بوابل من الصواريخ والقنابل حتى دكوا الكثير من المرافق والمستشفيات وبيوت المدنيين ومواقع عسكرية بنيران صديقة مغولية أمريكية حديثة.

فى يوم الأربعاء الموافق السابع من شهر صفر أعلن هولاكو المغولى الهجوم العام على المدينة من الشرق والغرب وأمر بردم الخنادق وهدم الأسوار، فدخلها وخرب المساجد وهدم القصور وانتشر السلب والنهب، وأسرفوا فى القتل واستمروا على ذلك أربعين يوماً.

وفى نفس التاريخ يوم الأربعاء السابع من شهر صفر دخلت القوات الأمريكية بغداد وعاثت فى الأرض الفساد وأهلكت الحرث والنسل وأسرفوا فى القتل والأسر، وانتشر بعدها السلب والنهب.

وكان أول حاكم على بغداد بعد سقوطها على يد هولاكو هو أحد وزرائه كما حدث حين سقطت عام ٢٠٠٣ هـ على أيدى المغول الأمريكان تولى الحكم حاكماً عسكرياً أمريكياً.

وأمام هذا العرض التاريخى السريع نعرض بعض الحقائق المهمة:

أولاً: زوال الرايات المزيفة: من حكمة الله عز وجل وله الحكمة البالغة أن شتت شمل الحزب الواحد الديكتاتورى فى هذه الحرب وفرق جمعهم وأزال دولتهم، ولو بقى لكانت الحرب بين رايات كفرية، العلمانية والصليبية.

لكن بعد زوال الديكتاتور صار الحرب واضحاً وأنه الآن بين الإسلام والصليبية، وفى هذا خير عظيم وهو وضوح الرايات وتحديد موقف كل من يقف تحت أية راية.

ولا يعنى هذا أن أمريكا خير لنا من حكم الفرد، فنحن نعلم بأن وجود النظام السابق فى العراق خير للعراق وللمسلمين خارج العراق من احتلال الولايات المتحدة لأرض المسلمين.

والإنسان قد يفرح لحدوث أمر ما أو زوال شىء ما والأيام والتاريخ يثبت بعد ذلك أن وجوده كان خيراً له ولعلى أذكركم بمثال سابق فى التاريخ كم فرحنا نحن المسلمين جميعاً عند سقوط الاتحاد السوفيتى، واندحار الشيوعية وهلاك الدب الأحمر، لكن ألا تتصورون لو كان الاتحاد السوفيتى موجوداً وبنفس قوته الذى كان يمثل القوة الثانية الضاربة فى العالم فإن أمريكا كانت ستقدم رجلاً وتؤخر عشرين رجلا لدخولها العراق.

وربما كان فى صالحنا الآن وجود السوفيت لكى لا تتوحد أمريكا فى شؤون العالم. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الحقيقة الثانية: جبن الأمريكان وأن قتالهم وحربهم إنما هو حرب طائرات وإلقاء

القنابل من بعد، والتاريخ قد أثبت بأنهم لم ولن يدخلوا أى بلد دخولاً برياً إلا بالتنسيق مع المنافقين فى تلك الدولة، والتاريخ القديم والحديث شاهد على ذلك ففى حربهم مع الأفغان كان حرب طائرات ومن مسافات شاهقه جداً ولم ينزلوا إلى الأرض إلا بعد التنسيق مع المنافقين فى الشمال.

وفشلت أمريكا فشلاً ذريعاً فى كل من كوبا والصومال وانسحبوا ولم يحققوا ما أرادوا والسبب هو أنهم لم يجدوا منافقين فى الداخل يخدمونهم، وفى العراق أصابع النفاق أصبحت واضحة لكل من كان يتابع الأحداث إنهم وراء ما حصل فى بغداد وغيرها من المدن العراقية والتاريخ لن يخفى شيئاً وسيأتى اليوم الذى تتكشف فيه الأوراق.

لكن نخرج من هذه النقطة بأن القضاء على الوجود الأمريكى فى العراق أو فى غيره من الأماكن يستلزم القضاء على المنافقين فى الداخل أولاً.

الحقيقة الثالثة: الحرب لم تنته: إن صراعنا مع الصليبية صراع طويل وهذه الحرب ليست هى نهاية المطاف ولا يعنى دخولهم العراق واحتلالهم لبغداد نهاية الإسلام فى أرض الرافدين وإنما هى جولة وستعقبها جولات وجولات.

وحتى بالنسبة لاحتلال أمريكا للعراق فإن المؤشرات القريبة والبعيدة تشير إلى أن أمريكا لن يستقر لها قدم فى العراق، والزمن يثبت هذا، صحيح أن جزءاً كبيراً من الشعب العراقى كان يكره النظام السابق، لكنهم جميعاً يكرهون أمريكا أكثر، كيف ينسى العراقيون السنوات العجاف التى مرت عليهم وقد ذاقوا فيها الجوع والفقر والمرض بسبب الحصار التى ضربته أمريكا على بلادهم بحجة تأديب النظام الذى ماشعر بالحصار فقد كان ينعم كأغنى دولة فى العالم والذى دفع الثمن هو الشعب.

كيف ينسى العراقيون موت مليونى طفل بسبب منع أمريكا دخول الدواء والغذاء إلى بلادهم.

فأمريكا لن تستقر فى العراق، ومن تاريخ الدنيا أن الظالم لن يستمر ولن يستقر فى أرض بقى أهله يدافعون عن حقهم حتى ولو كانوا كفاراً، فكيف بهذه الأمة، وربما أن الأمريكان لايعرفون بأننا أمة لاتنسى هزائمها، وهذه من الخصائص العجيبة لهذه الأمة،

وهو أننا لاننسى هزائمنا، فمعظم شعوب الأرض يمكن أن ينسوا الخلافات بينهم بعد حروب طاحنة أكلت أخضرهم ويابسهم ويعشوا سوياً وكأن لم يحدث شىء.

وقد رأينا بعض الشواهد على ذلك، فالألمانيتين توحدتا فى دولة واحدة بعد خلافات استمرت سنوات عديدة، بل أوروبا قوة، وهناك أمثلة غيرها، أما هذه الأمة فهى أمة لاتنسى هزائمها.

ومازلنا نذكر الأيام الخالدة والحضارة الراقية التى شيدها المسلمون هناك فى بلاد الأندلس، بل لماذا نذهب بعيداً فهذه فلسطين وقد احتلها اليهود منذ أكثر من خمسين سنة هل نسيناها؟ وهل يمكن أن ننساها؟ بل كل يوم يزداد شوقنا لها، وكل سنة تزداد المقاومة.

وكلما زاد اليهود بطشاً وقتلاً وتخريباً، كلما زاد ذلك من حرارة الانتفاضة، فنحن أمة لا تعترف بالهزيمة أبداً، فكيف إذا أضفنا إلى ذلك ما معنا من رصيد ضخم من النصوص القرآنية والبشائر النبوية وشواهد التاريخ بأن المستقبل لهذا الدين وأن النصر لهذه الأمة وأن المحق والكسر يكون لليهودية.

فمن الخطأ أن نفترض بأن جميع الخيوط بأيدى الأمريكان أو بأيدى غيرهم من قوى الأرض.

قد يقول قائل: لكن المشاهد والواقع الحالى بأن هناك خيوطاً كثيرة وقوية بل حبالا غليظة سميكة بأيدى الغرب عموماً وأمريكا خصوصاً يتمكنون من خلالها فرض هيمنتهم على مناطق كثيرة من العالم والتحكم فى معظم بل كل دول العالم؟ فنقول: هذا الكلام قد يكون فيه كثير من الصحة لكن نحن بأيدينا أعظم حبل إن تمسكنا به إنه حبل الله تعالى: **﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: ١٠٣)** فالشعب الفلسطينى: استطاع هذا الشعب الأعزل المحاصر وقد حاولت أمريكا أن تقطع عنه كل الحبال أن يقاوم دولة تملك السلاح النووى؟ الجواب فى كلمة واحدة: إنه حبل الله.

بالتأمل فى سنن الله تعالى يتبين لنا أن أمريكا ينتظرها عقاب إلهى مدمر يمزقها تمزيقاً. فما بلغت أمة فى الطغيان والجبروت والكذب والإفساد فى الأرض والصدّ عن سبيل الله ومعاداة أولياء الله ومطاردتهم وتعذيبهم بأشدِّ الأسلحة فتكاً وتدميراً ما بلغته أمريكا.

من سنن الله إهلاك الأمة إذا بلغت ذلك[1] الكفر والصد عن سبيل الله ومطاردة المجاهدين والدعاة والمصلحين والمؤسسات الخيرية والتضييق عليهم، وبعناصر مخابراتها دون حياء أو خجل هو من باب محاربة الله وكل هذا فعلته أمريكا.

فقد ادعت أمريكا لنفسها من القدرات ما لا يليق إطلاقه إلا على الله تعالى، فهى تتعامل مع الدول الأخرى ولسانُ حالها يقول: «أنا ربكم الأعلى» أنا أفعل ما أشاء.

من أردتُ بقاءه أبقيته ومن أردت إهلاكه أهلكته. وكأنها هى المتصرفة فى تدبير شؤون الكون.

ولذلك قال فرعونها فى خطابه لرئيس باكستان أمامك خياران: إما أن تدخل فى حلف الولايات المتحدة فى حربها ضد الإرهاب، وإما أن نعيد باكستان إلى العصر الحجرى.

ولهذا فهى تنتظر ما حل بفرعون وقومه: **﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٧).**

ولا يختلف اثنان على الحجم الهائل للظلم الذى أوقعته أمريكا على الدول والشعوب والأفراد فهى رائدة الظلم على المستوى السياسى والاقتصادى والعسكرى فقد نهبت ثروات الأمم والشعوب، وتسلطت على المنظمات الدولية ذات الطابع الدبلوماسى والاقتصادى كهيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن والبنك الدولى.

ومن يخرج عن رأيها ترهبه بالقوة العسكرية وبالتجويع فهى الدولة الوحيدة التى استخدمت أشد الأسلحة فتكاً وهى الرائدة فى تصنيع وتصدير الأسلحة الكيميائية والجرثومية.

وهكذا ولدت مع الظلم حيث مارس المستعمرون الأوائل حرب إبادة على السكان الأصليين من الهنود الحمر، واستمر مسلسلها الإجرامى الدامى فى فيتنام والصومال وأفغانستان وغيرها، والآن على المسلمين فى العراق.

---

(١) اقرأ كتابنا هلاك الأمم من قوم نوح إلى قوم عاد الثانية الناشر دار الكتاب العربى.

فقد ذكر أحد العسكريين الروس أن حجم ماصُبَّ على العراق من القنابل والصواريخ فى الخمسة الأيام الأولى يعادل أربعة أضعاف حجم القنبلة التى ضربت اليابان.

أطنان من القنابل دون تمييز أو رحمة ثم ويل لها من الرحمن. انظر إلى مطاردتها للدعاة والمجاهدين فى فلسطين وفى كل مكان ترفع فيه راية الجهاد، شتتت شملهم وأرملت نساءهم ويتمت أطفالهم، كل ذلك ضدِّ الشعوب الإسلامية بغية القضاء على دينها وامتصاص ثرواتها والهيمنة على ممتلكاتها واستثماراتها والسيطرة على أراضيها.

فقد احتلت البر والبحر والجو. إنه ظلم عالمى تقوده أمريكا لم يشهد له العالم مثيلاً على مرِّ قرونه وتعاقب دهوره فهل بدأت نهايتها كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ **(القصص: ٥٩)**.

وقال الله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ **(الأنبياء: ١١)**.

وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ **(الحج: ٤٥)**.

إما بجحد المنعم بها، وإما بعدم شكره واستخدامها فى غير ماخلقت لأجله. كصناعة الخمر وكالمتاجرة بالجنس وتصنيع أسلحة الدمار الشامل، وذلك لإخضاع الأمم ظلماً وعدواناً وبطراً وغير ذلك.

والمتأمل لأسلوب ومنهج حياة الأمريكيين يرى أن جميع هذه الطامات موجودة فيهم كل بحسبه، فهى الرائدة فى جميع أنواع الكفر والفساد بدءاً من أفلام الجنس والخلاعة والرعب ونهاية بالتباهى بالقوة وأسلحة الدمار الشامل ولسان حالهم يقول إنهم هم القوة العظمى فهى تجول فى البحار والأجواء والبرارى بحاملات الطائرات والمدمرات والصواريخ شرقاً وغرباً وهذا هو البطر بعينه والذى هو من أسباب إهلاك الله للأمم.

قال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن

مَنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص: ٥٨).

والحرب العالمية تقودها أمريكا الآن وتسميها حرباً على الإرهاب وهى حرب على الإسلام وهذا من أعظم الاستكبار فى الأرض فمن يحارب دين الله وأولياءه فقد استكبر وعتا عتواً كبيرا، لقد كانت فى عتوها واستكبارها تستعرض قوتها الهائلة فى أفغانستان.

ذلك البلد الفقير الممزق فهل كان يحتاج كل هذا الطغيان وحجم القنابل بكل أنواعها دون رحمة ببنى الإنسان.

وها هى اليوم تعود لتصب جام غضبها على المسلمين فى العراق ذلك البلد المحاصر لعشر سنوات، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء: ١٧٣).

ومن سنن الله الكونية ان لكل ظالم نهاية مهما طال ظلمه ومهما طالت دولته، فقد أسست أمريكا على الظلم وقتل النفس البشرية بل إبادة شعب بأكمله تحت مقولة صهيونية تقول أرض بلا شعب لشعب بلا أرض.

ولذلك نحن لانستغرب ما تفعله الدولة الصهيونية الغاصبة فى فلسطين من حرب إبادة ضد الفلسطينيين السكان الأصليين للأرض كما فعل أسلافهم من المغول والصليبيين.

ولأن الظالم دوماً لا يتعلم من دروس التاريخ فإن امريكا وإسرائيل لم تتعلما من هلاك الأمم السابقة الذين كانوا أشر منهم قوة وبطشاً.

أين هم الآن؟

لقد أصبحوا ذكرى سيئة، وعادت الحياة للشعوب التى حاولوا إبادتها.

لقد أخطأ من ظن ان الأمة الإسلامية أو العربية قد أشرفت على نهايتها، وأضحت ساعة انهيارها واندثارها وشيكة بعد أن بدأت تفقد ذاتها وكينونتها فى أهدافها وأصالتها وقيمها فى ظل ما تمر به من تغييرات جذرية فى هندسة القوة وعالم التجمعات والاتحادات بسبب الصراعات الداخلية والأطماع الخارجية الساعية إلى ما أسماه الخبير

اليهودى برنارد لويس إلغاء دور الدول العربية فى تاريخ المنطقة الجديد وجغرافيتها لمصلحة قوى إقليمية أخرى فى طليعتها إسرائيل وتركيا.

والتاريخ يعيد نفسه، فعندما سقطت بغداد على يد هولاكو المغولى عام ٦٥٦ للهجرة ١٢٥٨ للميلاد، انتهت الدولة العربية التى بدأت مع بداية الإسلام واستمرت ستمائة وستا وخمسين سنة. وزال الملك عن العرب وانتقل إلى المغول.

وأصبح العراق جزءا من الإمبراطورية المغولية. وكان هولاكو قد استولى على بلاد الشام فى السنة التى استولى فيها على بغداد، ورتب فى الشام أميراً كبيراً يسمى كتبوغا ومعه جيش من العسكر.

وكان المماليك فى مصر قد وثبوا على الملك المعظم الأيوبى عام ٦٤٨ للهجرة ١٢٥٠ للميلاد، وقدموا عليهم أميراً منهم يلقب بعز الدين التركمانى، وبذلك أصبح ملك مصر فى يد المماليك. ومات عز الدين وتولى الملك بعده شخص يسمى قطز.

وعندما سمع قظز أن هولاكو رجع إلى المشرق وترك جيشه فى الشام لغزو مصر خرج إليهم وهزمهم سنة ١٢٦٠ للميلاد وأصبحت بلاد الشام تابعة لسلطان المماليك فى مصر الذين كانوا يسيطرون أيضاً على الحجاز واليمن.

وكان المرابطون قد وحّدوا المغرب العربى تحت سلطانهم عام ٤٤٨ للهجرة ١٠٥٦ للميلاد. ثم جاء بعدهم الموحدون الذين حكموا المغرب من عام ٥٠٢ للهجرة ١١٠٤ للميلاد حتى ٦٢٦ للهجرة ١٢٢٨ للميلاد.

وبعد ذلك تجزأ المغرب إلى ثلاث دول هى دولة بنى حفص فى تونس ودولة بنى زيان فى الجزائر ودولة بنى مرين فى مراكش، ومنذ ذلك الحين بقى المغرب مجزأ.

وكان المماليك فى مصر يشكلون قوة كبيرة من النواحى الاقتصادية والسياسية والعسكرية، ثم بدأ ضعفهم حين اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح عام ٩٠٢ للهجرة ١٤٩٧ للميلاد، فخسر المماليك طريق الهند التجارى، فقدت الموارد وحل الفقر.

وكان القرن الرابع عشر قد شهد تضخم نفوذ قوة جديدة فى الشرق الأوسط هى

قوة الأتراك العثمانيين الذين وجهوا أنظارهم نحو العالم العربى، وقرروا احتلاله، وتم لهم الأمر بعد انتصار سليم الأول العثمانى على السلطان المملوكى قانصوه الغورى فى معركة «مرج دابق» قرب حلب عام ١٥١٦ للميلاد.

وقد احتل العثمانيون الشام ومن ثم مصر عام ١٥١٧، والمغرب عام ١٥١٨، والعراق عام ١٥٣٤، واليمن والجزيرة العربية عام ١٥٣٨.

وهكذا خضع العالم العربى كله لسيطرة العثمانيين، وحدث تخلف كبير فى العالم العربى بسبب عدم اهتمام السلاطين العثمانيين إلا بجمع الضرائب والمكوس.

فلم يهتموا بتنمية المجتمعات العربية، بل فرضوا نظاماً إقطاعيا صارماً أدى إلى تحوّل الشعوب العربية إلى عبيد وأقنان عند الإقطاعيين الذين كانوا فى الغالب من القادة العسكريين الأتراك.

وفى هذه الأثناء كانت أوروبا تشهد نهضة منذ بداية القرن السادس عشر. وقد أدى اكتشاف قارة أمريكا من قبل أسبانيا عام ١٥٠٠ إلى تدفق الثروات إلى أوروبا، وسرعان ماتبدل وجه أوروبا فظهرت فيها دول قومية، وسعت هذه الدول إلى الاستعمار. وكانت بريطانيا وفرنسا قوتين استعماريتين كبيرتين.

واستطاعت هاتان الدولتان ابتداء من القرن التاسع عشر، السيطرة على أجزاء العالم العربى، فسقط المغرب العربى فى يد فرنسا، وسقطت مصر وسواحل الجزيرة العربية من عدن حتى الكويت فى يد بريطانيا.

ومع انهيار الإمبراطورية العثمانية عام ١٩١٨، أكملت بريطانيا وفرنسا السيطرة على ما بقى من الوطن العربى، فسيطرت بريطانيا على العراق والأردن وفلسطين، وسيطرت فرنسا على سوريا ولبنان.

وقام المحتل البريطانى والفرنسى برسم الحدود بين أجزاء العالم العربى. ووضع الحدود وأعلن سياسة فرق تسد وعادت الهزائم تتوالى على هذا الوطن العربى الذى لابقاء له إلا بالوحدة كما توحدت أوروبا أخيراً.

وبعد الحرب العالمية الثانية، اعطت بريطانيا وفرنسا الدول العربية استقلالها تباعا، وكانت كلما استقلت انضمت إلى الأمم المتحدة، وتم إيداع خريطة لها لدى هذه المنظمة الدولية.

وهكذا أصبح هناك اثنتان وعشرون دولة عربية، وتكرّست التجزئة وعجز العرب عن تحقيق الوحدة فيما بينهم، لأن الاستعمار عند رحيله ترك دولة قائمة وفيها أنظمة مرتبطة به.

ولا توجد دولة عربية تحررت بالمقاومة سوى الجزائر واليمن الجنوبى سابقاً. وعلى الرغم من حدوث ثورات فى مصر عام ١٩٥٢ والعراق عام ١٩٥٨ واليمن عام ١٩٦٢ وسوريا عام ١٩٦٣، إلا أن هذه الثورات ظلت آثارها محدودة فى أقطارها.

ومع انهيار الاتحاد السوفيتى السابق عام ١٩٩١، ظهرت الولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة فى العالم، وتطلعت هذه القوة إلى صوغ العالم، ومنه العالم العربى، بطريقة جديدة تناسب مخططاتها فى الهيمنة المستمرة على العالم.

وظهر مشروع الشرق الأوسط الكبير بداية عام ٢٠٠٤، وهذا المشروع يهدف الى بناء دول على أسس طائفية وعرقية فى المنطقة العربية.

وتم الابتداء بتقسيم العراق إلى ثلاث دويلات طائفية وعرقية، ونرجو ألا تكون الخطوة التالية باقى الدول العربية.

وهكذا سيتم تمزيق الدول العربية وإحلال مشاريع طائفية وعرقية مكانها حتى تختفى العروبة تحت المفاهيم الطائفية والعرقية. وسوف تتجه هذه الأمة إلى الاضمحلال والزوال إذا لم تفق من الغيبوبة التى تعيش فيها حتى الآن.

وإذا كان هناك الآن اثنتان وعشرون دولة عربية، فسوف يكون فى المستقبل أكثر من مئة دولة فى المنطقة العربية موزعة ومفككة وفق المذهب والطائفة والعرق.

وقد تظهر قوى جديدة يطغى عنصرها على العنصر العربى الذى سيتحول الى شىء نادر فى المستقبل، لتعيش نهاية التاريخ كما قال فوكوياما.

والواقع الذى نعيشه يؤكد أن العرب وحدهم هم المتضررون من الاحتلال الأمريكى والصهيونى لوطنهم العربى وإن ظلوا على حالهم فسوف يخرجون من التاريخ.

ولذلك فقد خشى عليهم الرسول ﷺ حين قال فى الحديث الصحيح المروى عنه: «ويل للعرب من شر قد اقترب».

وحين سئل عن السبب قال: «لقد فتح من ردم يأجوج ومأجوج قدر هذا» وحلق بأصبعيه السبابة والوسطى.

ومن المعلوم ان يأجوج ومأجوج من آخر علامات الساعة الكبرى التى تدق الأبواب بشدة(١).

وكل ماكتبناه ونكتبه ويكتبه غيرنا ماهو إلا صيحة إيقاظ للعرب، لأن التحذير النبوى قد شملهم دون غيرهم من المسلمين فالمتأمل للعالم الإسلامى غير العربى يراهم أحسن حالاً من العالم العربى المسلم.

وعلى سبيل المثال نجد أن باكستان رغم أنها من الدول الفقيرة إلا أنها امتلكت القنبلة النووية ودخلت النادى النووى من زمن.

ودولة ماليزيا المسلمة هى من أحسن الدول فى آسيا من الناحية الاقتصادية وكذلك باقى الدول الاسلامية غير العربية.

أما الدول العربية المسلمة فهى تملك المال والنفط والثروات ولكنها لاتمتلك أى قوة

---

(١) اقرأ كتابنا «اقتربت الساعة» وكتابنا «عشرة ينتظرها العالم» الناشر دار الكتاب العربى. والحديث رواه البخارى فى صحيحه عن زينب بنت جحش زوج النبى ﷺ - ورضى الله عنها أنها قالت: استيقظ النبى ﷺ من النوم محمرا وجهه يقول: لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه. وعقد سفيان أحد رواة الحديث تسعين أو مائة (إشارة بإصبعه).

قيل: أنهلك وفينا الصالحون.

قال: نعم إذا كثر الخبث.

والخبث هو الزنا ومقدماته من الفحش والفجور والعرى كما يحدث الآن بكثرة شديدة فى جميع أنحاء الدنيا.

عسكرية ترهب بها أعداءها المجاورين لها من الأمريكان والصهاينة.

نسأل الله أن يفيق العالم من الخلافات والشقاق وأن يجتمعوا على كلمة سواء قبل فوات الأوان.

ونسأل الله ان يتقبل منا عملنا هذا وسائر أعمالنا الأخرى الصالحة وأن تكون فى ميزان حسناتنا يوم أن نلقاه إنه ولى ذلك والقادر عليه وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

المؤلف

أهم المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ صحيح البخارى.

٣ ـ صحيح مسلم.

٤ ـ البداية والنهاية لابن كثير.

٥ ـ الكامل فى التاريخ لابن الأثير.

٦ ـ مغول إيران ـ مصطفى بدر.

٧ ـ دولة الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره. د. جمال سرور.

٨ ـ المغول فى التاريخ ـ فؤاد عبد المعطى الصياد.

٩ ـ المختصر فى أخبار البشر ـ أبى الفداء.

١٠ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ـ المقريزى.

١١ ـ جامع التواريخ ـ رشيد الدين فضل الله الهدانى.

١٢ ـ تاريخ فاتح العالم ـ عطا الله ملك الجوينى.

١٣ ـ يأجوج ومأجوج ـ منصور عبدالحكيم.

١٤ ـ هلاك الأمم ـ منصور عبدالحكيم.

١٥ ـ تاريخ سلاجقة الروم ـ محمد سهيل طقوسى.

١٦ ـ سيرة السلطان جلال الدين ـ النسوى.

١٧ ـ سير أعلام النبلاء ـ للذهبى.

١٨ ـ الفتاوى الكبرى ـ لابن تيمية.

١٩ ـ حكم من بدل شرع الله ـ لابن تيمية.

٢٠ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطى.

٢١ ـ الدولة الخوارزمية والمغول ـ حافظ أحمد حمدى.

٢٢ ـ تاريخ البشرية ـ أرنولد توينبى ـ ترجمة نقولا زيادة.

٢٣ ـ الفتن والملاحم ـ لابن كثير.

٢٤ ـ انتشار الإسلام بين المغول ـ رجب محمد عبدالحليم.

٢٥ ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ـ لابن العماد الحنبلى.

٢٦ ـ الحروب الصليبية ـ سهيل زكار.

٢٧ ـ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ـ د. أحمد شلبى.

٢٨ ـ أسباب الضعف فى الأمة الإسلامية ـ د. محمد سيد الوكيل.

٢٩ ـ تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ـ براتولد ـ ترجمة أحمد السعيد السيد.

٣٠ ـ تذكرة الحفاظ ـ للذهبى.

٣١ ـ التاريخ العباسى ـ إبراهيم أيوب.

٣٢ ـ تاريخ بغداد ـ للخطيب البغدادى.

٣٣ ـ معجم البلدان ـ لياقوت الحموى.

٣٤ ـ الفَرْق بين الفِرَق ـ للبغدادى.

٣٥ ـ الملل والنحل ـ للشهرستانى.

٣٦ ـ المحلَّى ـ لابن حزم.

٣٧ ـ العصر العباسى ـ د. خالد عزام.

٣٨ ـ تاريخ الإسلام ـ للذهبى.

٣٩ ـ فضائح الباطنية ـ لأبى حامد الغزالى.

٤٠ ـ تاريخ الطبرى.

٤١ ـ وفيات الأعيان ـ لابن خلكان.

٤٢ ـ رائد نصر المسلمين على الصليبيين ـ د. حسين متولى.

٤٣ ـ خطط الشام ـ محمد كرد على.

٤٤ ـ دراسة فى الفرق ـ د. أحمد حمد حلمى.

٤٥ ـ تاريخ حلب ـ محمد على العظيمى.

٤٦ ـ تاريخ ابن خلدون.

٤٧ ـ الحركة الصليبية ـ سعيد عبدالفتاح عاشور.

٤٨ ـ النهج السديد والدر الفريد ـ مفضل بن أبى الفضائل.

٤٩ ـ واقتربت الساعة ـ منصور عبدالكريم.

٥٠ ـ الموسوعة الميسرة فى المذاهب والأديان ـ دار الندوة العالمية.

٥١ ـ البهائية ـ عبدالرحمن الوكيل.

٥٢ ـ دائرة معارف القرن العشرين ـ محمد فريد وجدى.

٥٣ ـ الإشاعة فى أشراط الساعة ـ للبرزنجى.

٥٤ ـ نهاية العالم قريباً ـ للمؤلف.

٥٥ ـ الفتن ـ لأبى نُعَيْم.

٥٦ ـ دولة السلاجقة ـ حسنين عبدالمنعم محمد

٥٧ ـ مصر والشام فى عصر الأيوبيين ـ د. سعيد عبدالفتاح عاشور.

٥٨ ـ معوقات الجهاد فى العصر الحاضر ـ د. عبدالله بنى قريع العقلا.

٥٩ ـ الدارس فى تاريخ المدارس ـ عبدالقادر بن محمد الدمشقى.

٦٠ ـ مملكة بيت المقدس ـ عمر كمال توفيق.

٦١ ـ تاريخنا المفترى عليه ـ د. يوسف القرضاوى.

٦٢ ـ الأدب فى بلاد الشام فى عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك ـ د. عمر موسى باشا.

٦٣ ـ سلاجقة إيران والعراق ـ عبدالمنعم حسين.

٦٤ ـ فقه النصر والتمكين ـ د. على الصلايبى.

٦٥ ـ مقومات النصر وأضواء القرآن والسنة ـ د. أحمد عوض أبو الشباب.

٦٦ ـ تاريخ القبائل العربية فى عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية ـ د. محمود السيد.

٦٧ ـ الدولة الفاطمية العبيدية ـ د. على الصلابى.

٦٨ ـ الحروب الصليبية ـ د. قاسم عبده.

٦٩ ـ مرآة الزمان ـ سبط ابن الجوزى.

٧٠ ـ الدولة العباسية ـ نادية محمود مصطفى.

٧١ ـ نظام الوزارة فى الدولة العباسية ـ د. محمد مسفر الزهرانى.

٧٢ ـ كتاب الروضتين ـ لأبى شامة المقدسى.

٧٣ ـ المصباح المضىء فى خلافة المستضىء ـ لأبى الفرج عبدالرحمن بن على الجوزى البغدادى.

٧٤ ـ العلاقات بين الشرق والغرب ـ د. محمد مؤنس عوض.

٧٥ ـ حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ـ للسيوطى.

٧٦ ـ نهاية الأرب فى فنون الأدب ـ شهاب الدين أحمد النويرى.

٧٧ ـ إحياء علوم الدين ـ للغزالى.

وكتب أخرى ذكرت بالهوامش.

الكاتب فى سطور

- منصور عبد الحكيم محمد عبد الجليل.

- حاصل على ليسانس الحقوق - جامعة عين شمس عام ١٩٧٨ م.

- يعمل بالكتابة والمحاماة.

- من مواليد القاهرة.

- له العديد من البحوث والدراسات الإسلامية والمقالات فى الصحف والمجلات العربية والإسلامية واللقاءات والحوارات على الفضائيات.

صــدرلــه

١ ـ جبريل أمين الوحى الإلهى.

٢ ـ إسرافيل صاحب الصور وأهوال القيامة.

٣ ـ عزرائيل ملك الموت.

٤ ـ رضوان وجنة الرحمن.

٥ ـ الشيطان وصراعه مع الإنسان.

٦ ـ طارد الجن.

٧ ـ مواجهة الجن.

٨ ـ موائد الشيطان.

٩ ـ المبشرات بالنار من النساء.

١٠ ـ النساء المبشرات بالجنة.

١١ ـ بنات الصحابة.

١٢ ـ نساء أهل البيت.

١٣ ـ اختبر معلوماتك الإسلامية.

١٤ ـ الموسوعة الثقافية.

١٥ ـ زوجات الأنبياء والرسل.

١٦ ـ مناسك الحج والعمرة.

١٧ ـ المهدى المنتظر.

١٨ ـ هلاك الأمم من عهد نوح إلى عاد الثانية.

١٩ ـ بلاد الحجاز معقل الإيمان آخر الزمان.

٢٠ ـ بلاد الشام أرض الأنبياء وأشراط الساعة.

٢١ ـ العراق أرض النبوءات والفتن.

٢٢ ـ نيويورك وسلطان الخوف.

٢٣ ـ الإمبراطورية الأميريكية البداية والنهاية.

٢٤ ـ الفراسة فى معرفة الآخرين.

٢٥ ـ واقتربت الساعة.

٢٦ ـ المهدى فى مواجهة الدجال.

٢٧ ـ سلسلة أحداث آخر الزمان.

٢٨ ـ ١٥٠ قصة لرجال ونساء مبشرين بالجنة.

٢٩ ـ ١٥٠ قصة لرجال ونساء مبشرين بالنار.

٣٠ ـ ١٥٠ قصة لرجال ونساء بكوا من خشية الله.

٣١ ـ ١٥٠ قصة لرجال ونساء رضوا بقضاء الله.

٣٢ ـ ١٥٠ قصة للفرج بعد الشدة.

٣٣ ـ ١٥٠ قصة عن الفراسة والذكاء للصحابة والصالحين.

٣٤ ـ ١٥٠ قصة عن الزهاد والصالحين ـ ثلاثة أجزاء.

٣٥ ـ ١٥٠ قصة عن الشفاء والعافية.

٣٦ ـ معجزات الشفاء بالأدوية الإلهية والنبوية.

٣٧ ـ معجزات الشفاء بالحجامة.

٣٨ ـ ١٥٠ قصة عن كرامات الصحابة والصالحين.

٣٩ ـ ١٥٠ قصة عن التائبين والتائبات.

٤٠ ـ شهداء الصحابة فى عصر النبوة.

٤١ ـ ١٥٠ قصة عن تفريج الكروب.

٤٢ ـ ١٥٠ قصة عن شمائل وأخلاق الرسول ﷺ.

٤٣ ـ ١٥٠ قصة عن الظالمين والظالمات.

٤٤ ـ ١٥٠ قصة عن شهداء الصحابة.

٤٥ ـ ١٥٠ قصة عن رجال ونساء حول الرسول.

٤٦ ـ ١٠٠ قصة لرجال ونساء عفا عنهم الرسول.

٤٧ ـ بيوت الرسول والصحابة حول المسجد النبوى.

٤٨ ـ بنات الصحابة.

٤٩ ـ سلسلة كتب عن الطب الأصيل.

٥٠ ـ دعوة للزواج.

٥١ ـ عرش إبليس ومثلث برمودا.

٥٢ ـ ١٠٠ قصة عن ذكاء الصحابيات.

٥٣ ـ الأعشاب والجن.

٥٤ ـ الموسوعة الإسلامية للنساء.

٥٥ ـ كيف تتخلص من الصرع.

٥٦ ـ ١٥٠ قصة لرجال ونساء قضى الله حوائجهم.

٥٧ ـ ١٥٠ قصة عن كرامات الصحابة.

٥٨ ـ صلاح الدين المنقذ المنتظر.

٥٩ ـ التداوى بالصبر والصلاة.

٦٠ ـ التداوى والشفاء بالذكر والدعاء.

٦١ ـ التداوى والشفاء بالتفاح.

٦٢ ـ التداوى والشفاء بالصدقة.

٦٣ ـ التداوى والشفاء بالرمان.

وكتب أخرى متنوعة تطلب من دار الكتاب العربى دمشق ـ القاهرة.

فهرس المحتويات